

د. رأفت عبد الحميد

الدولة والكنيسة

٤

المسيحية الجديدة

١٧/١٩٩٧

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
مقهى غريب



الدولة والكنيسة

الجزء الرابع

الجزء الرابع

الدولة والكنيسة المسيحية الجديدة

د. رأفت عبد الحميد

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)



الكتاب : الدولة والكنيسة

المؤلف : د. رافت عبد الحميد

رقم الإيداع : ١٩٩٩/١١٩٩٢

الترقيم الدولي : ISBN
977 - 303 - 190 - x

تاريخ النشر : ٢٠٠١

الناشر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع
حقوق الطبعة والترجمة والاقتباس محفوظة

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

٦٣٦٢٥٦٢ ☎ - فاكس / ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبة :

١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

٥٩١٧٥٣٢ ☎ / ١٢٢ ☒ (الفجالة)

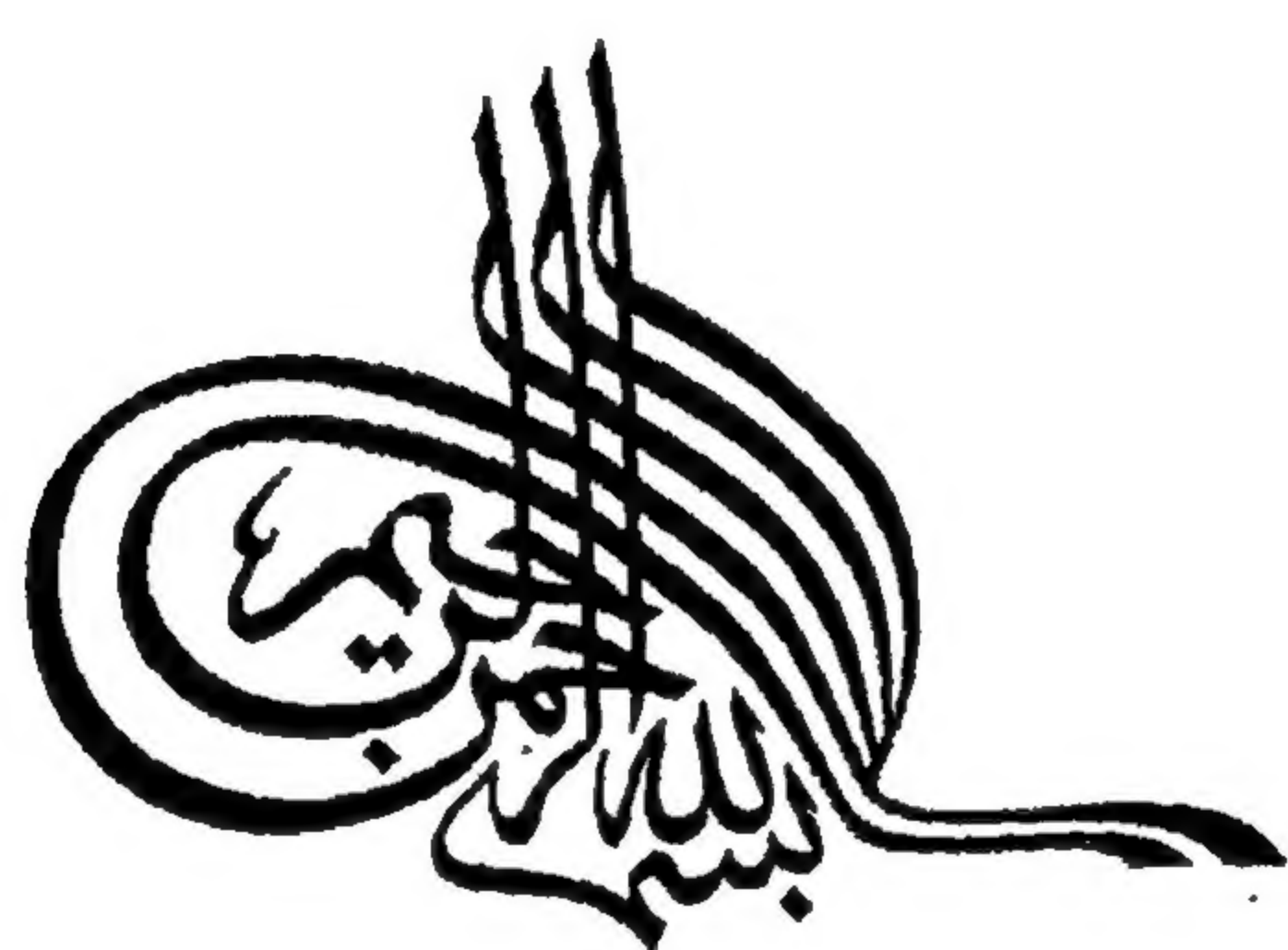
المطابع :

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ☎

www.alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com



الفاحة

هذا هو الكتاب الرابع من الدولة والكنيسة، ومن قبل قدمت للمكتبة العربية الكتاب الثاني^(١). عن الوثنية والمسيحية، والثالث عن قيصر والمسيح، أما الذى بين أيدينا الآن فيتناول سيادة المسيحية فى صورتها الجديدة "النيقية". والكتب الثلاثة تشمل القرن الرابع الميلادى الذى يمثل أهمية خاصة فى دراسة تاريخ العصور الوسطى والعالم البيزنطى على قدر سواء، إذ يعد أحد القرون الثلاثة التى تبدأ به وبالسابع تنتهى، وإلى تشكل مرحلة الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمعناها التاريخى والحضارى. ويتميز القرن الرابع عن قرينيه بأنه شهد أحداثاً جساماً كان لها أثرها البالغ فى مجريات التاريخ، بحيث عدت العلامات الرئيسية على طرق التحول من القديم إلى الوسيط ومن الرومانى إلى البيزنطى.

وتتمثل هذه فى ثلاث أساسية، الاعتراف بالمسيحية ديانة شرعية للإمبراطورية الرومانية فى أوائل القرن الرابع على يد قسطنطين، ثم إقرارها عقيدة رسمية فى نهاية القرن ذاك من جانب ثيودوسيوس وبتأثير من أمبروز، ويعد هذا انقلاباً خطيراً فى التقليد الكلاسيكى الذى ظل لقرون عديدة يربط بين الوثنية مجد روما وعظمتها.

والثانية، انتقال العاصمة الإمبراطورية من روما القديمة عند التير إلى روما الجديدة على شطآن البسفور، والتى أبت ألا أن تحمل اسم مؤسسها فذاعت باسم القسطنطينية. ولم يكن هذا الانتقال يعنى مجرد بناء مدينة جديدة فحسب بل كان يحمل فى طياته عوامل التغير الكبير إلى عصور جديدة هى العصور الوسطى وعالم جديد هو العالم البيزنطى. فروما القديمة كانت تقوم وسط العالم اللاتينى، بلسانه، وفكره وثقافته وديانته، أما القسطنطينية فقد نشأت فى قلب بلاد اليونان بلغتهم الأكثر حيوية من قرينتها، ومدارسهم الفكرية وثقافتهم وفلسفاتهم التى خلا منها الغرب أو كاد، ومن ثم أضحت القسطنطينية بوتقة راح يتفاعل فيها وينصهر

(١) الكتاب الأول من الدولة والكنيسة - وهو فى مرحلة الإعداد يتناول المصادر التاريخية والكنسية.

هذا التراث الكلاسيكي اليوناني الروماني، مع العقيدة المسيحية الجديدة، تأخذ منه وتعطيه لتخرج من بعد بصورة تخالف هيئتها الأولى وبساطتها ، يميزها هذا الجدل اللاهوتي الذي بدا ولا نهاية له، أو "قصر لابرننت" جديد بتعبير الكاتب الكنسي في القرن الخامس، سقراط. وهو الجدل الذي غطى صفحة القرنين الرابع والخامس بصفة خاصة وصبغ وجه العالم البيزنطي والعصور الوسطى بطبيعته، وأن كان قد اختلف في الشرق عنه في الغرب؛ فبينما شهدت الإمبراطورية البيزنطية على امتداد عمرها الطويل حتى القرن الخامس عشر اضطراباً فكرياً لاهوتياً دائراً من حول المسيح وطبيعته ، عقائدياً إلى حد ما بحكم تأثير المدارس الفكرية والفلسفة اليونانية التي بدت بشكل اوضح في المدرسة السكندرية الأفلاطونية، والمدرسة الأنطاكية الأرسطية، كانت أوروبا العصور الوسطى تعانيه في مجال التنظيم الكنسي وسلطان كل من الإمبراطور والبابا، ستاره التقليد العلماني وجوهره النزاع على السيادة العالمية بين البابوية والإمبراطورية.

أما الثالثة فتتمثل في الغزو الجرمانى الذى اجتاح العالم الرومانى عقب هزيمة الإمبراطورية فى معركة إدانة عام ٣٧٨، حاملين معهم نظمهم وتقاليدهم وطرائق تفكيرهم وحياتهم. حقيقة أن بعضهم عاش فترة طويلة على حدود الإمبراطورية عند الراين والدانوب، وتأثر إلى حد بالحضارة الرومانية، حتى غدا شديد الحماسة للمحافظة عليها، شأن ثيودوريش زعيم القوط الشرقيين، لكن هذا لا ينفى أن الجرمان أحدثوا فى العالم الرومانى خاصة نصفه الغربى تغييرات واسعة لا يقل تأثيرها عن العنصرين الآخرين.

هذه العناصر الثلاثة أخذت خلال القرون من الرابع حتى بداية السابع، تتفاعل مع بعضها البعض، ومع التراث الكلاسيكى، حتى أمكننا أن نتلمس على مشارف القرن السابع عالمين جديدين لكل منهما ما يميزه، هما العالم البيزنطى وأوروبا العصور الوسطى. ومن هنا تأتى أهمية القرن الرابع الميلادى الذى تناولته الكتب الثلاثة باعتباره القرن الذى شهد وقائع هذه الأحداث وعاین بداياتها.

والكتاب الرابع الذى نقدم له الآن يتناول الربع الأخير من ذلك القرن، وقعت به من هذه الأحداث الثلاث حادثتان، هما هزيمة الجرمان للإمبراطورية، ومحاولة

الدولة .. والكنيسة

تخطيط الوثنية لصالح المسيحية، وجعل الأخيرة ديناً رسمياً، وتقاسمت ساحته شخصيتان هما الإمبراطور ثيودوسيوس والأسقف أمبروز، وكان هذا الاقتسام تطوراً تلقائياً وطبيعياً لمجريات الأمور. فحتى نهاية الثلاثينيات من القرن ذاك كانت شخصية قسطنطين وحدها هي التي تحتل مسرح الأحداث بعملية الكيرين، مما لآته للمسيحية وبناء القسطنطينية، ولما كان صاحب اليد العليا على الكنيسة فقد كان على هذه الأخيرة أن تأتيه طائعة وإن كانت غير قانعة، وفي الثلاثينيات التالية كان أبناء قسطنطين على العرش، ولكن أحدا منهم لم يكن له شخصية أبية وذكاءه، فساد الساحة أثناسيوس السكندري، لا انتصاراً على الدولة ولكن صراعاً معها. أما هذا الربع الأخير فقد قدمت الدولة في شخص ثيودوسيوس للمسيحية كل ما كانت من قبل به تحلم وإليه تتطلع، فجعلت منها العقيدة الأولى، ومهدت لها سبيل السيادة على الوثنية، وشاء قدرها أن يكون على رأسها آنذاك شخصية قوية هي أسقف ميلانو، أمبروز الذي تملك عقل ثيودوسيوس وفكره، وتسلط على شخص فالنتينيان الثاني وتحداه. ورغم صداقته الحميمة لثيودوسيوس وتقديره إياه، إلا أن ذلك لم يمنعه من "إذلاله" في ميلانو عندما أقدم على إحداث مذبحة سالونيك، وكان الإمبراطور أدنى من أن يثير مع الكنيسة أزمة، فأجاب الأسقف إلى ما شاء معتبراً نفسه واحداً من رعاياها.

ولقد عالج الكتاب الذي بين أيدينا هذه الأحداث بالتفصيل من خلال العلاقة بين الدولة والكنيسة، الأحداث التي وقعت في الإمبراطورية خلال ربع القرن الرابع الأخير، فعرضت لسياسة الإمبراطور فالنز العقيدية باعتباره أريوسياً، وعداء النيقيين له، وما كان من انتهاء الأمر بمقتله على يد الجرمان في إدنة، وطبيعة الغزو الجرمانى واعتناق الشعوب الجرمانية للأريوسية، وتأثير ذلك على علاقاتهم بالإمبراطورية. ثم تحدثت عن المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية فى عام ٣٨١ لإقرار أمور العقيدة، وما تمخض عنه من رفع قدر كرسى العاصمة الإمبراطورية الأسقفى إلى المرتبة التالية لروما مباشرة، باعتبار القسطنطينية روما الجديدة، مما كان له أبعد الأثر فيما بعد، خاصة فى القرنين التاليين، على الصراع الذى دار بين الكنائس الرسولية حول الزعامة، واستبقت إلى الحلبة روما والقسطنطينية. والأسكندرية وأنطاكية وعلى استحياء بيت المقدس،

مستترة كلها برداء الجدال اللاهوتى حول طبيعة المسيح (٢). وكانت أنطاكية بالذات أكثر المدن معاناة لهذا الصراع العقيدى الذى بدأ فى القرن الرابع وقاد كنيستها إلى الشقاق حتى بين أصحاب المذهب الواحد، وجر إلى فوضاه الدولة حيث شارك الأباطرة فى أحداث هذا الشقاق. ورغم أن الخلاف كان مسألة تخص الكنيسة فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، إلا أن روما وميلانو وأكليرورس الغرب شاركوا فى هذا الصراع حفاظاً فقط على ذكرى الأسقف السكندرى أثناسيوس، دون أن يكونوا على معرفة أو مجرد دراية بجوهر هذا الشقاق وفحواه. ولما كانت المسيحية فى صورتها النيقية قد حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب الإمبراطورية، فقد كان من الضرورى تناول جهود الأباطرة فى القضاء على الفرق المسيحية الأخرى المعارضة وخاصة الآريوسية بطوائفها العديدة، وكذا سعيهم الدائب للخلاص من الوثنية التى كانت ما تزال حتى عام ٣٩١ هى الديانة الرسمية للإمبراطورية. وبينما دار الصراع فكراً فى الشرق من جانب الفلاسفة الوثنيين، وتعصباً من ناحية الأكليروس المسيحى والرهبان والدهماء، تمثلت المقاومة الوثنية فى الغرب حول مذبج النصر الذى كان مقاماً فى مبنى السناتو الرومانى ودارت المراسلات بشأنه بين الخطيب الوثنى المفوه والمتحدث باسم مجلس الشيوخ، سيماخوس والإمبراطور فالنتينيان، وهذا والاسقف أمبروز، وهذه المراسلات تمثل نفحات الأدب اللاتينى الرائع قبل احتضاره. وجاء الفصل الأخير تنمة ضرورية لبيان جهود كل من الدولة والكنيسة فى سبيل السيادة؛ فالفكر السياسى الرومانى لا يقبل بوجود كيان داخل الدولة، وفى الوقت ذاته ترفع الكنيسة شعارها "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وكان حتماً مقضياً أن يلتقى الاتجاهان على خلاف، وتمثل هذا بصورة واضحة فى سياسة كل من ثيودوسيوس وأمبروز، وانتهى بأن كسبت الكنيسة الجولة الأولى والأخيرة فى هذا الميدان فى العالم البيزنطى.

رأفت عبد الحميد

القاهرة ٢٠٠٠

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذا الاصطراع الكنسى حول الزعامة فى القرن الخامس، راجع للمؤلف الدولة والكنيسة، الجزء الخامس.



إِفْصِيحُ الْإِسْلَامِ

المسيحية الحكومية

الفصل الأول

المسيحية الحكومية

ودع أثناسيوس السكندري شعب الكنيسة وبنياه في الثاني من مايو عام ٣٧٣، بعد ان احتفظ بالكنيسة السكندرية ومصر جزيرة للنيقية وسط بحر الأريوسية في الشرق الروماني، إذ ظل ستا وأربعين سنة على كرسى الأسقفية يصطرع والآريوسيين أساقفة وأباطرة، ينالون منه ويطاولهم، يهزمونه وينتصر عليهم، حتى أعيتهم في أمره الحيل وبلغ بهم وبه الصراع مبلغ الجهد، فتركوه وشأنه للمقادير حتى مات.

وكان آخر عهده برحلة العذاب الطويلة نفيه للمرة الخامسة على عهد الإمبراطور الأريوسى فالنز Valens وقد عاد منه إلى بيعته في فبراير ٣٦٦ ليمنحى بعد ذلك سبع حجج يجنى ثمار غرسه طوال ماوى من السنين، وحرص الجالس على العرش فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية الرومانية على أن لا يعكر صفو سلامه على امتداد ما بقى للأسقف من عمر، فقد كان يعلم ما عليه أثناسيوس Athanasius من قوة الشخصية وعناد، مصدرها التفاف شعب الكنيسة من حول، وجموع الرهبان الضاربين فى فلولات مصر على امتدادها من فم النيل إلى طيبة، وسمعة عريضة حازها فى عالم المسيحية بين رجال الاكليروس فى الشرق والغرب سواء، ولم توات الإمبراطور الفرصة للانتقام إلا بعد وفاة أثناسيوس، فأرسل رسله يؤيدهم جنده لاقتحام قلعة النيقة الحصينة، الإسكندرية، ولتحتيم قوة الرهبان بمهاجمة أديارهم خاصة فى وادى النطرون، عصب الأسقفية ولرفع لوقا Laucius الأريوسى طريد الإسكندرية، أسقفاً، مما دفع بطرس Petrus خلف أثناسيوس إلى الفرار بنفسه إلى الغرب محتذياً سبيل سلفه وأستاذه.

وبينما ارتضى فالنز كارهاً مسالمة الإسكندرية وأسقفها، حرص على أن يتخلص من معاقل النيقية الأخرى المتمثلة فى اللاهوتى الشهير باسل Basilius الكبادوكى أسقف قيسارية Caesarea الكبادوك فى آسيا الصغرى، وملتيوس Meletius الأنطاكي أسقف الأغلبية المعتدلة من النيقيين. بل وامتدت قساوات

اضطهاده إلى الفرق الآريوسية الأخرى المخالفة للمسيحية الحكومية، أعنى الآريوسية في صورتها "الهوموية" Homoeos القائلة بـ "التشابه" بين الآب والابن دون تحديد لماهية هذا التشابه، والتي بها يدين، والتي مات الإمبراطور قسطنطيوس Constantious وهو عن اتباعها راض.

وكانت "الهوموية" قد حققت نجاحها الساحق على الفكر الآريوسية المغايرة في مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، والذي يعد تنمة للمجمع المزدوج في ريميني Ariminum بإيطاليا ، وسلوقية Seleucia بايزوريا في آسيا الصغرى عام ٣٥٩، ثم مجمع نيقا Nice في السنة هذه. ولم يؤثر في تفوقها تحول بعض زعمائها عنها بعض الشيء كما حدث في مجمع أنطاكية عام ٣٦١ في أخريات أيام قسطنطيوس، أو المجمع الأنطاكي عام ٣٦٤ في عهد جوفيان Iovianus ولا فت في عضدها محاولة جوليان Iulianus لأحياء الوثنية، ولا تسامح الإمبراطورية جوفيان المماليء للنيقية ، حتى إذا اعتلى العرش فالنر أصبحت "الهوموية" تمثل المسيحية الحكومية التي ارتضاها الإمبراطور.

ولم يكن قبول فالنر للمسيحية الهوموية اقتناعا بها أو فهما لمحتواها ولكن لأن فالنر لم يكن بمقدوره فكرا أن يبحث عن بديل لها، فقد كان جنديا من بانونيا Pannonia لم يهتم بتثقيف نفسه، يزدري الثقافة ولا يحترم المثقفين^(١). ولم تكن ظروفه العسكرية أو السياسية تسمح له بالتفرغ ولو لبعض زمن لمناقشة أمور العقيدة على نحو ما شهده عهد قسطنطيوس، فقد كان عليه أن يراقب بحذر وبصفة مستمرة الأطماع الفارسية عند جبهة الفرات، والزخوف الجرمانية الضاربة والمتملمة عند الدانوب، والفتن السياسية وحركات التمرد التي وقعت ضده في أوليات عهده، ومن ثم احتضن الهوموية التي ارتبطت في ذهنه بالسلام الكنسي في الجزء الخاضع لسيادته من الإمبراطورية. ودعم هذا أن يودوكسيوس Eudoxius أسقف القسطنطينية ويوزيوس Euzious أسقف أنطاكية حاضرتي الشرق، يدينان

(١) AMM. MARC. Res gest. XXIX, 1.

الدولة .. والكنيسة

بهذا المعتقد^(٢). ولما كان يعلم تماماً أنه لم يرفعه للعرش موهبة، وليس له من مسوغ لذلك إلا أخوه فالنتينيان Valentinianus إمبراطور النصف الغربى، ولا ثقافة عنده ولا خبرة، ولا حتى كانت له سيطرة على الجند كافية، فقد أدرك أن "الهومييين" هم له وسط متاهات الجدل العقيدى السائد فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، نعم المولى ونعم النصير^(٣).

غير أن الهوموية لم تصل إلى السيادة إلا على أشلاء فرق أريوسية عديدة أخرى مخالفة، بالإضافة إلى النيقية فى الشرق، وكان من أبرز هذه الفرق الأريوسية، "الأنوموية" Anomoean التى ترفض "التشابه" كلية بين الآب والابن، وقد طغى عليها اسم مؤسسها الحقيقى يونوميوس Eunonius أسقف كيزيكوس Cyzicus وتلميذ آيتيوس Aetius السورى. و"الهوميوسية" Homoiousius التى ذاع صيت أصحابها باسم "أنصاف الأريوسيين" Semi-Arians والقائلة بـ "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن. والماكيدونية التى تنسب إلى ماكيدونيوس Macedonius الذى نادى بخلق الروح القدس^(٤). هذا بالإضافة إلى العقيدة النيقية المخالفة للفرق الأريوسية كلها، وهى التى لقيت العنت الكامل على عهدى

(٢) لم يكن يوزيوس يستقر على حالة واحدة فيما يتعلق بالمسألة العقيدية، فقد كان كثير الانتقال من فريق إلى آخر. راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، ص ١٩٩، ٢٠١، ٢٢٥-٢٢٦. وأيضاً الدولة والكنيسة الجزء الثالث ص ٤٠١-٤٠٢، ٤٧٨، ٥١٤، ٥٤٤، ٥٥٠.

(٣) يروى المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس تحول فالنر إلى "الهوموية" فى صورة تراجيدية كعادة مؤرخى الكنيسة دوماً، فيذكر أنه كان يبدى فى أول الأمر احتراماً للإيمان الرسولى، يعنى بذلك النيقية، ولكن عندما عبر القوط الدانوب وخربوا تراقيا، أعد جيشاً لملاقاتهم، ولم يكن قد تلقى بعد سر المعمودية، وإذ حرص على تناول العمد قبل أن يلقاهم، كان قدره كقدر آدم الذى خضع لإغراء زوجه حواء، حيث خضع فالنر لزوجته دومينيكا Dominica وأصبح لها سميماً مجيئاً. ولما كانت أريوسية فقد جرته بالتالى إلى عقيدتها حيث عمد سنة ٣٦٨ على يد يودوكسيوس. انظر THEOD. Hist. Eccl. IV, 11. والحقيقة أن الفترة التى أعقبت وفاة قسطنطين وحتى اعتلاء ثيودوسيوس العرش (٣٣٧-٣٧٩) شهدت من جانب الأباطرة خروجاً على ما سرى به القول من أن الناس على دين ملوكهم، حيث انعكست الآية فأصبح الأباطرة على دين ناسهم. وهذا واضح فى أبناء قسطنطين الثلاثة، وأيضاً على عهد فالنر وأخيه فالنتينيان.

(٤) عن هذه الفرق انظر للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، ص ٣١٧-٣٤٥، ٤٠٢، ٤٦٥-٤٦٨، ٤٧٨-٤٨٣.

قسطنطينوس وفالتر لتمسك أتباعها بما استقر عليه رأى أساقفة المجمع المسكونى الأول المنعقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ من القول بـ "المساواة فى الجوهر" بين الآب والابن أو ما عرف بالهوموسية Homoousius.

وبينما كان الشرق الرومانى يعانى على هذا النحو من لابرنت الجدل العقيدى على حد تعبير المؤرخ سقراط^(٥). Socrates كان الغرب قد نأى بنفسه عن ذلك منذ ارتضى من البدء الايمان النيقى، ولم يحاول أن يشارك -إلا مكرها^(٦) فى هذا الصراع العقيدى الدائر فى الشرق إبان الفترة التى حكمها قسطنطينوس منفرداً، بل يمكن القول بتعبير أدق إنه لم يكن باستطاعته المشاركة بحكم القصور الذى كان يعتري لغته وفكره إذا ما قورن آنذاك بالشرق الرومانى الذى كان يسوده الفكر والثقافة اليونانية. ولذا لم يعُد المؤرخ جيبون Gibbon الحقيقة عندما راح يعقد مقارنة بين شطرى الإمبراطورية قائلاً "إن ولايتى مصر وآسيا اللتين اصطبغتاً بالثقافة اليونانية، عانتا كثيراً من جراء الجدل الأريوسى، ذلك أن الدراسة الجادة للفكر الأفلاطونى والتأويلات الجدلية العابثة، والاصطلاحات الغزيرة، أمدت كلها أكليروس الشرق وجموعه بمعين لا ينضب من التعبير الفياض والتأويلات. ووسط جدلهم المتقد سرعان ما ينسى الأساقفة الشك الذى تنصح به الفلسفة وتمتدحه، والخضوع الذى يفترضه الدين ويحتمه. أما شعب الكنيسة فى الغرب فكان ذا روح أقل فضولية، ذلك أن عواطفهم لم تكن تثيرها الموضوعات الغامضة، وعقولهم لم تعتد على ممارسة الجدل، ولغتهم الوطنية قاحلة غير قادرة على أن تقترب من مستوى اليونانية. وهكذا كان الجهل سبباً فى سعادة كنيسة غالة بحيث تمثل فى أن هيلاريوس Hilarius أسقف بواتييه ظل لمدة ثلاثين سنة بعد المجمع المسكونى الأول غريباً عن العقيدة النيقية^(٧). يضاف إلى ذلك أن النصف

(٥) SOCRAT. Hist, eccl. II, 41.

(٦) اضطر الغرب قسراً أن يدخل حلبة الصراع من حول العقيدة إبان الفترة التى حكم فيها الإمبراطور الأريوسى قسطنطينوس منفرداً (٣٥٠-٣٦١) حيث حاول فرض الأريوسية على الغرب فى مجمعى آرل ٣٥٣ وميلانو ٣٥٥.

(٧) يذكر هيلارى هذه الحقيقة فى كتابه عن المجمع HILAR. De syn. 91 هذا بالإضافة إلى أن غالة نفسها كانت من أبعد ولايات النصف الغربى تأثراً بالأحداث العقيدية الجارية فى =

الدولة .. والكنيسة

الغربي خلا أو كاد من المدارس الفلسفية اليونانية والاتجاهات الفكرية التي سادت النصف الشرقي بفعل وجود هذه المدارس به، وامتزاجها بالتراث الشرقي الذي خلفته الحضارات الشرقية القديمة، من أجل هذا كان الإمبراطور فالنتينيان الأول ذكياً وهو يبتعد بنفسه عن هذا المعترك الجدالي، عندما رفعته المقادير بسيوف الجند على عرش الإمبراطورية، عقب العهد القصير والموت المفاجيء لجوفيان. فقد استدعى إليه أخاه فالنز في مدينة نيش Naissus واقتسما فيما بينهما إدارة الحكم في الإمبراطورية، فذهب فالنتينيان باليريا وإيطاليا وإفريقيا وغالة وبريطانيا، بينما عاد فالنز بولايات الشرق. وأصبح إمبراطور الغرب الروماني منذ الأيام الأولى لامتلاكه سلطة الدولة عن سياسته فيما يتعلق بالمسألة العقيدية، واتضح هذا جلياً في الموقف الذي اتخذته تجاه كل من "الماكيديونيين" وأنصاف الأريوسيين" الذين راحوا يعملون الآن سوياً منتهزين فرصة الشتات الذي تاهت فيه الفرق المسيحية المختلفة المتصارعة، فقد تقدموا إليه عن طريق هيباتيانوس Hypatianus أسقف هرقلية Heraclea يطلبون الأذن لهم بعقد مجمع كنسي لمعالجة المسألة اللاهوتية المعقدة، وكان رد فالنتينيان حاسماً في هذا الصدد حين أجاب: "بين العلمانيين مكانى وليس من حقى أن أتدخل فى مثل هذه الأمور، اذهب وليجتمع رجال الكنيسة، أولئك الذين يخصهم الأمر ذاك إذا شاءوا"^(٨).

ولا شك دفع فالنتينيان إلى اتخاذ هذا السبيل، المقت العام الذى كان يحمله - شأن أخيه - لذوى الفكر والمتقين، والكراهية الشديدة للثقافة، حقيقة كان مسيحياً مخلصاً لعقيدته، ولكنه كان جندياً قضى حياته فى الخدمة العسكرية، فلم يسمح له ذلك أن يحظى ولو بقدر من الثقافة يسير^(٩). وكان هذا وحده كافياً لأن يمسك فالنتينيان بزمام الأمور فى أقاليم سيادته محافظاً على الأوضاع العقيدية التى وجدها هناك، دون أن يسمح لأحد أن يعكر صفو سلام هذه المنطقة، وذلك بالأقدام على

=الشرق. ويعبر عن ذلك المؤرخ مارتن Martin بقوله "أن حمى هذا الجدل لم تقو على أن

تعبّر الألب إلى غالة" انظر : Martin, histoire de France, Vol, p. 305.

(٨) SOZOM. Hist. Eccl. VI 7.

(٩) AMM. MARC. Res gest. XXVII 7; XXX 6.

إحداث أى تغيير فيما ألغاه الإمبراطور مستقراً أو يكاد فى النصف الغربى من الإمبراطورية، ولعل المؤرخ واطسون قد عبر عن ذلك بدقة فى قوله أن الإمبراطور لم يجد سبيلاً أفضل إلى الهدوء إلا الحفاظ على ما وجدته سائداً بين رعيته^(١٠).

وكان أساقفة الغرب، وحتى قبل أن يموت قسطنطينوس، قد أخذوا يتراجعون عما وافقوا عليه كرها فى مجمع ريميني^(١١) سنة ٣٥٩، منتهزين فرصة الأزمة الفارسية التى شغلت جهد وفكر الإمبراطور، وارتحاله إلى أنطاكية بعيداً ووجود جوليان، ابن عم الإمبراطور، قيصراً وهو الذى كان يضمم الوثنية ويحمل للمسيحية كل البغضاء، وراحوا يعلنون عودتهم ثانية إلى ما قبلوه فى عشرينيات القرن الرابع وهو قانون الإيمان النيقى، وزاد تعلقهم به أن وفد عليهم أثناسيوس منفياً ثم لائذاً^(١٢) خاصة وأن القانون يتفق وطبيعتهم وثقافتهم، وعلى ذلك فإن أى محاولة لأعمال الفكر جرت، كان لها الفشل حليفاً، ومن ثم لم تحظ الأريوسية بنصيب ما فى دنيا الغرب تلك. غير أن هذا لم يمنع من وجود أسقف أريوسى فى إحدى الأسقفيات القوية فى الغرب وهى ميلانو التى كان على كرسيها أوكسنتيوس Auxentius الأريوسى الذى ينتمى إلى فريق الأنومويين.

وطوال عشر سنوات (٣٦٤-٣٧٤) من إحدى عشرة سنة هى عهد الإمبراطور فالنتينيان الأول، ظل أوكسنتيوس يحتفظ بكرسيه الأسقفى مطمئناً إلى جانب الإمبراطور "المتسامح" بل ونعم بحمايته ضد حملات النقد التى كان يتعرض لها الأسقف من جانب هيلاريوس أسقف بواتييه، ويوسيبيوس Eusebius أسقف فرسالى Vercellae (فى إيطاليا) بصفة خاصة^(١٣). وقد أدرك الرجلان أن بقاء أوكسنتيوس على أسقفية هامة لها فى الغرب شأنها، لابد يوقع الضرر بالنيقية، ولهذا

(١٠) Watson, introd. To HILAR. Select works, p. 49.

(١١) راجع للمؤلف الدولة والكنيسة. الجزء الثالث، ص ٣٤٩-٣٦٨، ٣٧٦-٣٧٩.

(١٢) تم نفي أثناسيوس إلى غالة على يد الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٥، حيث أمضى هناك عامين. وفى عام ٣٣٩ سارع بالفرار إلى الغرب بعد مطاردة قسطنطينوس له ومكث هناك سبع سنوات حيث عاد إلى الإسكندرية عام ٣٤٦.

(١٣) SOCRAT. Hist. ecci. III 10.

عولاً، وهيلاري بالذات، على طرده من ميلانو، ومن ثم سبياً بذلك حثيثاً لدى الإمبراطور في المدينة نفسها سنة ٣٦٤، أى في الأشهر الأولى لتسلمه مقاليد الأمور، وراحا يثيران الأساقفة والجموع ضد الأسقف الآريوسى، الذى لم يجد أمامه سبيلاً إلا الالتجاء إلى الإمبراطور.

وهذه الخطوة التى أقدم عليها الإمبراطور لمعالجة الأمر، تفصح بما لا يدع مجالاً للشك عن السياسة التى اعتزم اتباعها طيلة عهده، فقد أصدر أوامره بعقد مناظرة بين الطرفين، ولم يكن يصدر فى ذلك كما قدمنا عن معرفة باللاهوت أو المسائل الجدالية المعقدة التى تفصل بين الآريوسيين والنيقيين. لكن المسألة كانت من جانبه تسوية وكسباً للوقت حتى تنتهى اللجنة التى شكلها للتحقيق فى هذه القضية من رفع تقريرها إليه، ولذا فإن المصادر - وكلها تقف إلى جانب النيقية - تذكر أن هيلاريوس وإن كان قد كسب المناقشة إلا أنه خسر القضية، ذلك أن الإمبراطور لم يكن على استعداد لأن يثير فى منطقة نفوذه نوعاً من الفوضى العقيدية الضاربة فى الشرق أطنابها. ولهذا أثر الاعتقاد بما جاء فى تقرير اللجنة بأن أوكسنتيوس صاحب الحق الشرعى فى أسقفية ميلانو، خاصة بعد أن مات سلفه ديونيسيوس، وعليه أصدر قراره ببقاء أوكسنتيوس على كرسيه، ولم يلق بالآ لجهود هيلاريوس الذى أطلق على قرار الإمبراطور اسم "مرسوم الأحران"^(١٤).

ولم تكن خطورة أوكسنتيوس تتمثل فى كونه يحتل عرش أسقفية لها فى الغرب ثقلها وأهميتها هى ميلانو، ولكن لأن هذه الآونة شهدت جهوداً مكثفة، لا بد أن يكون الأسقف الآريوسى من ورائها، كانت تبذل فى الشطر الغربى من الإمبراطورية وأفريقيا فى محاولة للاعتراف بأن ما تم فى مجمع ريميني يعد الأساس الحقيقى للإيمان المسيحى، وأن هذا المجمع بما ضم من أساقفة يفوق عددهم أساقفة نيقية^(١٥). يصبح أكثر شرعية من المجمع النيقى، ولهذا فإن التصدى

(١٤) HILAR. Con Auxen. 7-8, 14 وإن كان هيلاريوس يلتمس العذر للإمبراطور فالنتينيان بقوله "إن الإمبراطور أبقى على أوكسنتيوس فى منصبه ظناً منه أن الأسقف يؤمن بالنيقية" وهذه العبارة وإن كانت دفاعاً عن الإمبراطور، إلا أنها تعد دليلاً على قلة ثقافة فالنتينيان أو انعدامها.

(١٥) كان عدد أساقفة نيقية ٣١٨ أسقفاً منهم ثمانية فقط من الغرب، أما مجمع ريميني فقد حضره ٤٠٠ أسقف. انظر : SVIP. SEV. Hist. Sac. II 41.

لهذه المحاولة ومن وراءها لم يقتصر على منافحة أساقفة الغرب فقط، بل امتد أيضاً إلى الأسقف السكندري أثناسيوس الذي كان يمثل دُرْع النيقية في الشرق الروماني، إذ لم يتوان أسقف الإسكندرية عن تأييد الكنيسة في الغرب، دفاعاً عن نيقية واعترافاً بحق هذا الجزء من العالم الروماني وفضله عليه، فكتب في عام ٣٦٩ رسالة مجمعية إلى أساقفة أفريقيا Ad Afros epistola synodica أشار فيها إلى الرسائل "العديدة والرائعة" التي بعث بها إليه داماسوس Damasus أسقف روما وأساقفة الغرب الذين عقدوا مجامع في غالة وإيطاليا لإعلان ولائهم للإيمان النيقى^(١٦). وحمل بعنف على أولئك الذين يسعون جاهدين لاستئصال مجمع نيقية وإعلاء شأن مجمع ريميني، وأفصح عن زعماء هذا الفريق ومقتة لهم وهم، أوكسنطيوس وفالنز أسقف Mursa وأورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم^(١٧) Singidunum ودافع بحماسة بالغة عن آباء نيقية، وأعلن سخطه الكامل على أساقفة ريميني، ودعا إلى عدم التسامح مع من لا يزال يتمسك بقرارته ونبذهم خارج الكنيسة^(١٨).

ولم يكن أثناسيوس السكندري في رسالته هذه إلى الأساقفة الأفارقة يعبر عن رأيه وحده، بل كان يمثل بذلك تسعين أسقفاً يمثلون مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، وهي المناطق التي كان يشملها نفوذ كنيسة الإسكندرية، حيث التأم عقد هذا الأكليريوس في مجمع بمدينة الإسكندرية في هذه السنة، وأعلنوا جميعهم في رسالتهم إلى أسقف روما إدانتهم لأوكسنطيوس، وأبدوا دهشتهم لبقائه في منصبه حتى الآن.

وعلى الرغم من هذه المحاولات العنيدة التي بذلها رجال الدين في الغرب، وشارك فيها أثناسيوس السكندري وأكليروسه لطرده أوكسنطيوس من أسقفية ميلانو، إلا أن الرجل ظل في منصبه يتمتع بحماية فالنتينيان الأول حتى مات سنة ٣٧٤، ولم يلبث الإمبراطور أن لحقه في العام التالي.

(١٦) ATHANAS, ep. Ad Afros, 1.

(١٧) مورسا في بانونيا وهي الآن أوسيك في يوغسلافيا، وسينجيدونوم هي حالياً بلجراد.

(١٨) ATHANAS. Ibid. 2-3.

فلما قضى أوكسنتيوس نحيبه، سارع الخصمان اللذان اختصموا في ربهم إلى البحث عن خلف للأسقف الراحل، الآريوسيون يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى فى اختيار واحد منهم لكرسى كنيسة ميلانو، والنيقيون - وقد عمّتهم الغبطة لوفاة عدوهم الآريوسى اللدود - يسعون بكل الوسائل للقفز على هذه الأسقفية، وأحكام قبضتهم عليها، لإغراق آخر سفينة للآريوسية فى الغرب. وانتقلت حرارة الانقسام بين الأكليروس فى ميلانو إلى حمى الصراع بين الجموع، لتتذر بفوضى عارمة ومصادمات دموية، هرع على أثرها الحاكم أمبروز Ambrosius الذى يتخذ من المدينة مستقراً له ومقاماً، إلى الكنيسة ليهدئ من تائثره المصطرعين، وراح يناشد الناس السكينة وينشد فيهم الهدوء بخطاب دبجته بلاغته وحسن بيانه، أخذ بمسامع الجميع، فتحولوا على الفور إلى المناداة به هو نفسه أسقفاً لميلانو! ولما لم يكن الرجل قد تناول بعد سر العمداء، فقد جرت الاستعدادات فى هذا على التو، بحيث لم يمض على ذلك أسبوع إلا وكان قد تم تعميد أمبروز ورسامته رئيساً لأساقفة ميلانو^(١٩).

ولم يكن ما حدث على هذا النحو خروجاً عن المألوف آنذاك، فقد حدث فى القسطنطينية على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الشيء نفسه، عندما تم اختيار "نكتاريوس Nectarius أسقفاً للعاصمة ولم يكن قد عمّد بعد، ذلك أن تناول

(١٩) تتفق المصادر فيما بينها على الطريقة التى تم بها اختيار أمبروز لكرسى ميلانو الأسقفى، وتتناولها بصورة قد يكون الخيال داعب بعض جوانبها، حيث تذكر أنه بعد أن انقسمت المدينة على نفسها بين الآريوسيين والنيقيين، وهدد الانقسام بالصراع الدموى، أسرع أمبروز إلى الكنيسة، فلما أتاها توجه إلى الناس بحديث طويل امتص غضبهم وأسكن خواطرهم، عندها صاح طفل من بين الجموع "قليكن أمبروز أسقفاً" فتلقفت آذان الجموع وقلوبهم هذه الصيحة وتحولوا لتوهم لترديدها، معتبرين إياها وحياً من الله. انظر:

AMM. MARC. Res gest. XXVII 3, 12-13.

SOCRAT. Hist. Eccl. IV 30; RVFIN. Hist. Eccl. II 11.

SOZOM. Hist. Eccl. VI 24; THEOD. Hist. IV 5, 6.

ويخطئ سقراط حين يضع هذه الحادثة فى نفس العام الذى وقعت فيه أحداث الانقسام فى روما، بعد وفاة ليبريوس Liberius أسقف روما واختيار داماسوس خلفاً له، والمناداة بأورسينيوس Uresenius أسقفاً منافساً. والحقيقة أن الشقاق الذى شهدته روما جرى فى سنة ٣٦٧، بينما اختير أمبروز للأسقفية فى عام ٣٧٤. انظر: SOCRAT. Hist. Eccl. IV 29.

المعمودية لم يكن يجرى عندئذ في الأيام الأولى للميلاد، لأن الكنيسة كانت تفضل تأخيرها حتى تفتح الباب أمام الراغبين في التحول إلى المسيحية.

وينتمي أمبروز لأسرة نبيلة، شغل أبوه منصب النائب الإمبراطوري في غالة، فلما أدركته الوفاة ارتحل ولده وابنته وزوجه إلى روما، حيث أظهر الولد تفوقاً ونبوغاً في الدراسات الحرة والقانونية، ولما كانت آماله متجهة لما كان عليه والده فقد عمل محامياً في روما في بداية حياته العملية، وأحرز الرجل تقدماً ملحوظاً في عمله، ومن ثم جذب إليه بفصاحته وبلاغته النائب الإمبراطوري بروبوس Probus فعينه بموافقة الإمبراطور فالنتينيان حاكماً على ليجوريا Liguria وأيميليا Aemilia حوالي سنة ٣٧٢ وهذا الإقليم يضمن مراكز أسقفية هامة هي ميلانو وتورينو وجنوا وبولونا. وقد نبهه بروبوس إلى أن يعتبر نفسه أسقفاً أكثر منه حاكماً، بمعنى أن يخلط العدالة مع الرحمة. فحكم أمبروز أقاليمه بجدية وتعقل كسب بهما ثقة رعيته. ومع أن أمبروز لم يكن له فكر رجل داهية، إلا أنه كان يتمتع بجرأة نادرة لازمته طيلة أسقفيته^(٢٠). ودفعته منذ البداية لأن يسلك هذا السبيل بإقحام نفسه على المشكلة الكنسية المستعرة في ميلانو، عقب وفاة أوكسنطيوس، حيث كانت الأقدار تخط له طريقاً مغايراً تماماً لما كان يطمح إليه ويؤمل.

ويبدو أن أمبروز كان متردداً في قبول هذا المنصب الكهنوتي الذي خلعتة عليه الجموع، فحتى ذلك الحين لم يكن قد أبدى أى اهتمام بالأمور اللاهوتية أو المشاكل الكنسية، بل إن الكنيسة لم تكن تمثل له في شبابه أى مستوى للطموح^(٢١)، ورغم أنه كان مسيحياً مخلصاً تعود المسيحية في أسرته إلى زمن ليس بقريب، إلا أنه جرى على التقليد الذي كان مستقراً آنذاك بتأخير إتمام طقس المعمودية إلى عمر متقدم، ولذا أبدى دهشته لما أقدم شعب الكنيسة في ميلانو على اختياره، وأظهر تردده وإحجامه، مما دفع الجموع إلى أن ترفع الأمر إلى فالنتينيان الذي صادق دون توان على رغبتها، وحضر بنفسه مراسم ترسيم أمبروز على الكرسي

(٢٠) Rand, founders of Middle Ages, pp. 73-74.

Bainton, history of Christianity, vol. 1 p. 184.

Stephenson, Mediaeval history, p. 78.

Rand, op. cit. p. 73. (٢١)

الدولة .. والكنيسة

الميلاني^(٢٢) ولا شك أن الإمبراطور أقدم على ذلك تمثيلاً مع سياسته العامة في الأمور المتعلقة بالكنيسة، وحتى يجنب حاضرة أقاليمه أى انشقاق أو تصدع. وليس أدل على احترام فالنتينيان لسياسته هذه والتزامه بها، من أنه لم يكذب يمضى على اختيار أمبروز للأسقفية شهوياً قلائل حتى راح يوجه اللوم إلى الإمبراطور بسبب السلوك غير اللائق الذى ينتهجه موظفوه المدنيون والأخطاء التى يرتكبونها ولم يكن من الإمبراطور إلا أن أجابه "لقد كنت دائماً على يقين بصراحة القول عندك، ومع ذلك أمض إلى غايتك بتطهير أرواحنا وأحسن خلاصها كما تأمر بك بذلك تعاليم الإله"^(٢٣).

وكانت آخر الأعمال الكنسية التى شارك فيها بأسلوبه المعتاد فالنتينيان هو ذلك المجمع الكنسى الذى عقد فى الليريا سنة ٣٧٥، إبان وجود الإمبراطور بهذه المنطقة فى صيف ذلك العام، وقد أدى إلى عقده ازدياد نفوذ الأريوسية فى الشرق الرومانى والولايات الأوربية فى هذا الشطر، بتأثير الإمبراطور فالنز، والخشية من امتدادها ثانياً إلى الولايات الغربية المتاخمة خاصة الليريا. كما أن باسل أسقف قيسارية الكبادوك بعث إلى أساقفة الغرب رسالتين نقف منهما على ما تعرض له خصوم "الهوموية" من المسيحية الحكومية، على يد فالنز، ويقول أن هناك تفاصيل رأى أن لا يكتبها، وسوف يوضحها لهم شماسه سابينوس Sabinus الذى حمل رسالته الأولى، ويذكر أنه لا توجد كنيسة واحدة لم تتعرض لهذه العاصفة من حدود الليريا إلى طيبة فى مصر، ثم يناشد أساقفة الغرب أن يمدوا العون إلى إخوانهم فى الشرق وذلك عن طريق اتجاه عدد منهم إلى النصف الشرقى من الإمبراطورية وعقد مجمع كنسى لوضع حد لهذه الأمور^(٢٤).

(٢٢) يذكر المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس أن الإمبراطور فالنتينيان قد أبدى سعادة غامرة باختيار أمبروز أسقفاً لميلانو، مما جعله يحرص على حضور حفل رسامته، ولم يخف الإمبراطور فرحته بهذا الأمر فراح يقول "تحمداً يا ربنا: أيها القدير المخلص، لقد عهدت أنا إلى هذا الرجل أن يوفر للناس أمنهم والأمان، فعهدت إليه أنت برعاية ورشد أرواحهم. الشكر لك أن جعلت اختيارى موفقاً". انظر: THEOD, hist. Eccl. IV 6.

(٢٣) THEOD. Hist. Eccl. IV 6.

(٢٤) BASIL. Eep. XC; XCII, 1-3.

ورغم أن الديباجة التي تضمنت توجيه الدعوة إلى الأساقفة لعقد هذا المجمع قد حملت أسماء الأباطرة الثلاثة فالنتينيان وفالنز وجراتيان، الابن الأكبر لأولهما، كما جرى بذلك العرف والتقليد الإمبراطوري في شطرى الإمبراطورية، إلا أن المجمع كانت غايته، كما أكدت ذلك رسالته المجمعية التي صدرت عنه وصدق عليها فالنتينيان وأرسلت إلى أساقفة الشرق، التصدى للإمبراطور فالنز وجهود أكليروسه لإعلاء شأن المسيحية الحكومية، "الهوموية". ولهذا أعاد المجمع من جديد التأكيد على "الهوموسية"، قانون الإيمان النيقى، ودعا إلى اعتبارها دائماً إيمان الكنيسة الجامعة، وأفصح الحضور صراحة عن نياتهم عندما أعلنوا أنه لا يحق لأى من أساقفة الشرق التعلل بأنه يتبع عقيدة إمبراطوره (فالنز) لأن هذا يعد استخداماً سيئاً للسلطة الإمبراطورية، ويعتبر مرفوضاً من الرب الذى أعطانا تعاليم الخلاص، وعصيائنا لما جاءت به الكتب المقدسة "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله الله" (٢٥).

ومما تجدر الإشارة إليه، ما جاء فى القوانين الصادرة عن هذا المجمع والمتعلقة بالتنظيم الكنسى، والخاصة برسامة الأساقفة والقسيسين والشمامسة، وكيفية اختيارهم؛ إما من بين رجال الأكليروس أو من بين كبار الموظفين المدنيين الذين يذيع فى الناس صيت عفتهم وطهارتهم، وتحريم اختيارهم من بين العسكريين أو صغار الموظفين المدنيين^(٢٦). ولما كان هذا المجمع قد عقد بعد اختيار أمبروز، الحاكم المدنى لميلانو، أسقفاً للمدينة، ولما كان قد شن على أساقفة الشرق الأريوسيين هجومه، فلا بد وأن يكون أمبروز قد لعب دوراً معيناً فى هذا المجمع وقراراته العقيدية وقوانينه التنظيمية، حتى ولو بصورة غير مباشرة، بحيث استطاع أن يحصل على تأييد مجمع كنسى يوضح شرعية اختياره للأسقفية رغم عدم كونه أحد رجال الأكليروس، وحتى يدعم قرار الإمبراطور فالنتينيان بالموافقة على رسامته بقانون كنسى.

THEOD. Hist. Eccl. IV 7-8. (٢٥)

Hefele, history of councils, vol. Pp. 289-2 (٢٦)

غير أن وفاة فالنتينيان كمداً^(٢٧) عقب هذا المجمع بقليل (١٧ نوفمبر ٣٧٥) جردت قراراته من قوة تأثيرها، ولم يلبث الأريوسيون في الشرق أن انتهزوا هذه الفرصة، وعقدوا بتأييد من الإمبراطور فالنز مجعاً مضاداً في أنقرة، قرر رفض الرسالة التي حملها إليهم القسيس البيدويوس Elpidius والصادرة عن مجمع الليريا، وعدم الاعتراف بمهمته التي أوفد من أجلها والتي كانت تقتضى القيام بفحص دقيق لقانون الإيمان الذي تدين به هذه المنطقة، وتعريفهم بالإيمان النيقى، وقد أصدر مجمع أنقرة عدة قرارات بعزل عدد كبير من أساقفة النيقية في الشرق كان من أبرزهم جريجورى أسقف نيسا Nyssa^(٢٨).

وكان فالنز آنئذ يقيم في أنطاكية على مقربة من الجبهة الفارسية الساخنة أبداً، وإلى جوار أنصاره الأريوسيين وزعيمهم يوزيوس الأسقف الأنطاكى المقرب إلى الإمبراطور. وقد لقي النيقيون، بل والفرق الأيوسية غير الهرموية، العنت على يد فالنز وأعوانه خلال مقامه في أنطاكية، وتعرض عدد من زعماء هؤلاء وأولئك للنفي والإعدام، وكانت الأحداث التي وقعت في الغرب عقب وفاة فالنتينيان مساعداً لفالنز على المضى في سبيله. ذلك أن إمبراطور الغرب كان قد أعلن قبل موته ابنه الأكبر جراتيان Gratianus قيصرأ، فلما قضى، أقدم الجيش على إعلان الابن الثانى فالنتينيان الأصغر، الذى لم يتجاوز عمره السنوات الأربع إمبراطوراً شريكاً، ورغم أن جراتيان قد أظهر قبول ذلك، إلا أن الغضب والحنق تملكا عليه كل سبيل، وشاركه حمقه عمه فالنز، الذى كان يطمع فى الحصول على عونه فى مواجهة التحركات الجرمانية التى كانت تشهدها الآن جبهة الدانوب، وإن كان

(٢٧) تذكر المصادر أن الإمبراطور فالنتينيان استقبل وفداً من القواضى Quadi الذى جاء إليه بهدف الحصول على معاهدة تقرر السلام بينهم وبين الإمبراطورية، وقد راع الإمبراطور ما كانت عليه هذه السفارة من همجية وبداءة، وساءه اتهامهم للرومان بأنهم هم المعتدون، ومن ثم استبد به الحنق وثار فى وجههم مغتماً لمهاجمة مثل هؤلاء "البرابرة" لحدود الإمبراطورية الرومانية وتجاسرهم على ذلك، مما أدى إلى موته كمداً. انظر.

AMM. MARC. Res hest. XXX 6, 1-4.

RVFIN. Hist. Eccl. II 12; SOCRAT. Hist. Eccl. IV 63;

SOZOM. Hist. Eccl. VI 36

Hefele, op. cit 111 p. 290.(٢٨)

المؤرخ الكنسى سوزومنوس يعلق على هذه الأحداث بقوله "إن غضب الإمبراطورين كان راجعاً إلى أن الجيش هو الذى أقدم على ذلك دون الحصول على موافقتهم أولاً"^(٢٩).

ولكن الأحداث التى وقعت فى العام التالى "٣٧٦"، والعامين اللاحقين، حيث سمح الإمبراطور لجماعات القوط الغربيين بعبور الدانوب والنزول فى منطقة موئيزيا Moesia والصدام الذى حدث خلال هذه الأعوام بين الرومان والجرمان^(٣٠)، كل هذا أدى إلى أن يقدم الإمبراطور فالنر مضطراً على تخفيف غلواء الاضطهاد العقائدى ضد أعداء الهوموية، كما أن الفيلسوف الوثنى ثمستىوس Themistius البفلاجونى الذى كان يلقى الاحترام من جانب المسيحيين والوثنيين على السواء^(٣١)، أخذ يوجه النداء تلو الآخر إلى فالنر للإقلاع عن ممارسة سياسة العنف تجاه الخارجين عن المسيحية الحكومية، وقد أصغى الإمبراطور بعض الشيء إلى نصحه فامتنع عن إعدام زعماء الفرق الخارجة، واكتفى بإرسالهم إلى المنفى. ويصيب سوزومنوس كبد الحقيقة بقوله إن الإمبراطور لم يرفع يد قساوته عن رجال الدين إلا بعد أن إزداد قلقه من أجل الشؤون العامة للدولة^(٣٢). بل أن فالنر امتنع حتى عن ممارسة هذا الإجراء الأخير عندما ازدادت الأمور سوءاً، بعد

(٢٩) SOZOM. Hist. Eccl. VI 36 ويبدو أن سوزومنوس كان متأثراً فى ذلك بالعبارة الشهيرة التى أوردها هو نفسه بقلمه على لسان الإمبراطور فالنتينيان الأول موجهاً إياها لجنوده محاولاً كف أيديهم عن التدخل فى شئون الحكم واختيار الأباطرة، وكانوا قد طلبوا إليه فور اعتلائه العرش اختيار رجل آخر إمبراطوراً شريكاً، فأجابهم "جنودى: إذا كان من حقكم إعلانى إمبراطوراً، فقد فعلتم، أما ما تريدون فمن حقى وحدى، الزموا الهدوء رعية طيبة، ودعوني أدير أمور الدولة إمبراطوراً". راجع. THEOD. Hist. Eccl. SOZOM. Ioc. Cit; IV 5. ولعل قيام الجيش بتنصيب ثلاثة أباطرة على التوالى، جوليان وجوفيان وفالنتينيان الأول، قد أعاد إلى أذهانهم نكرى نفوذهم فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل أن يلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية أو فترة الحروب الأهلية التى استمرت ثمانية عشر عاماً منذ اعتزال دقلديانوس وزميله ماكسيميانوس العرش سنة ٣٠٥ وحتى إعلان قسطنطين نفسه إمبراطور فرداً سنة ٣٢٣.

(٣٠) انظر للمؤلف الإمبراطورية البيزنطية، جـ ١ الفصل ٣.

(٣١) Vasiliev, history of Byzantine Empire, I p. 12.

(٣٢) SOCRAT. Hist. Eccl. IV. 32; SOZOM. Hist. Eccl. VI 37.

أن راح القوط يعيثون فساداً في تراقيا، واضطر الإمبراطور إلى الارتحال عن أنطاكية قاصداً القسطنطينية لمواجهة الأمور المتردية^(٣٣).

ومع أن فالنز قد ظل حتى مقتله بسيوف القوط وفيما "الهوموية" المسيحية الحكومية لا ينبغي عنها حولاً، إلا أن السنوات الأخيرة من عهده قد شهدت فقدانها لزعمائها، الواحد في إثر صاحبه. ففي عام ٣٧٠ مات يودوكسيوس أسقف القسطنطينية، فأسرع "الهوميون" باختيار ديموفيلوس Demophilus أسقفاً خلفاً، وإذا كان "الهوموسيون" قد نظروا إلى وفاة يودوكسيوس باعتبارها فرصة مواتية، فأقدموا على رسم إيفاجريوس Evagrius أسقفاً منافساً، إلا أن الإمبراطور، الذي كان في نيقوميديا آنذاك في طريقه إلى الشرق، أسرع بإرسال كتائبه إلى العاصمة لحسم هذا النزاع، وألقى القبض على إيفاجريوس، وانفرد ديموفيلوس الأريوسي الهوموي بالسيادة على كرسي العاصمة الأسقفى. غير أنه في عام ٣٧٤ خسرت الأريوسية الحكومية مقعداً جديداً بوفاة أوكسنتيوس أسقف ميلانو، ولم يستطع الأريوسيون هناك الحفاظ على نفوذهم، حيث انتقل السلطان إلى عدو للأريوسية لدود هو أمبروز. ولم يأت عام ٣٧٦ حتى كان يوزيوس الأسقف الانطاكي، الأريوسي العنيد رفيق أريوس، فكره ومنفاه، قد مات، فاختار الأريوسيون دوروثيوس Dorotheus خلفاً له. وإذا كانت كل من القسطنطينية والكرسي الأنطاكي الرسمى قد ظلا على ولائهما للأريوسية، إلا أن اختفاء كل من يودوكسيوس وأوكسنتيوس ويوزيوس من على مسرح الأحداث كان نذيراً بأقول نجم الهوموية، المسيحية الحكومية، بصفة خاصة، والأريوسية بشكل عام بعد أن لقي فالنز الإمبراطور الأريوسي حتفه صريعاً.

وكان انهماك الإمبراطور فالنز في السنة الأخيرة من حكمه في مواجهة المسألة الجرمانية، وغياب زعماء الأريوسية هؤلاء عن الوجود، إيذاناً بتتفس أتباع النيقية الصعداء، إذ أن هؤلاء ما أن علموا بارتحال فالنز من أنطاكية إلى القسطنطينية ودخوله العاصمة على عجل في الثلاثين من مايو عام ٣٧٨، واستعداداه لملاقاة القوط، حتى عادت إليهم شجاعتهم وزاحوا يحاولون استعادة

SOCRT. hist. Eccl. IV 35; SOZOM. Loc. Cit. (٣٣)

نفوذهم وكراسيهم التي فقدوها^(٣٤). وكانت الإسكندرية أبرز الأمثلة على ذلك، فلم يلبث أهلوها أن ثاروا ضد الأسقف الآريوسي لوقا، واضطروه إلى الفرار من المدينة ليشق طريقه كرها إلى القسطنطينية. بينما عاد إلى الإسكندرية بطرس، الذي خلف أثناسيوس بعد وفاته وأمضى فترة أسقفية جلها في الغرب هرباً من اضطهاد فالنز والآريوسيين له. وكان قبل عودته قد شارك في حضور مجمع روما الثالث الذي عقد تحت رئاسة الأسقف داماسوس لأدانة القائلين بخلق الروح القدس، وقد زوده الأسقف الروماني عند عودته برسالة إلى السكندريين، تنثي على إيمانه بالهوموسية وحفاظه عليها، وإن كان العمر لم يمتد طويلاً ببطرس، إذ سرعان ما مات ليخلفه على كرسي الإسكندرية الأسقف ثيموثي Thimotheus ولم تترك أمور الدولة المضطربة فرصة لفانز - حسب تعبير سوزوموس - لمعالجة هذه التحديات أو التصدي لها^(٣٥).

هكذا قدر للمسيحية الحكومية في صورتها "الهوموية" أن تظل على امتداد عشرين عاماً (٣٥٩-٣٧٨) إلا قليلاً، صاحبة السيادة بلا منازع في الشطر الشرقي من الإمبراطورية خلال السنوات الأخيرة من حكم قسطنطيوس، وطوال عهد فالنز، إذا استثنينا العهدين القصيرين لجوليان وجوفيان (٣٦١-٣٦٤) وكان مقتل فالنز وموت زعماء الآريوسية الكبار إيذاناً بنهاية فترة جدلية عقيمة تميز بها جdal القرن الرابع الميلادي، كانت الأفكار الآريوسية محوراً لصراعها، ولم تقم للآريوسية بعدها في الشرق قائمة، وإن كانت قد انتقلت لتصبح من بعد للجرمان في الغرب ديناً.

ذلك أن القبائل الجرمانية كلها - عدا الفرنجة - تحولت إلى المسيحية الآريوسية، وظلت على إيمانها بها طيلة بقاء الممالك الجرمانية في معظمها، هذا باستثناء القوط الغربيين في أسبانيا الذين هجروها إلى النيقية عام ٥٨٩ في مجمع طليطلة. ولعل قصة المسيحية لدى الجرمان، وعلاقة الجرمان بالإمبراطورية، تستدعي منا هنا وقفة موجزة، لتأثير ذلك في مجرى الأحداث. فالجرمان كانوا قد أخذوا في النزوح من موطنهم "الثاني" جرمانيا باتجاه الجنوب أو الجنوب الشرقي،

(٣٤) SOCRAT. Hist. Eccl. IV 37; SOZOM. Hist. Eccl. VI 39; AMM. MARC. res

gest. XXX' 11, 1-5.

SOZOM. Loc. Cit. (٣٥)

بحثاً عن مناطق أكثر خصباً وأوفر حياة، بعد أن ضاقت عليهم الأرض في هذا الموطن الثانى، وتفرقت بهم السبل حيث جاء بعض منهم إلى الراين مثل جماعات الفرنجة Franks، وذهب بعض ثان إلى الدانوب والبحر الأسود، ومن أشهرهم قبيلتا القوط الشرقيين Ostrogoths والقوط الغربيين Visigoths، وبين الراين والدانوب انتشر عدد آخر من القبائل الجرمانية مثل الإنجليز والسكسون والوندال والآلان والألمان وجماعات بعد ذلك كثير.

وكان طبيعياً وقد نزل الجرمان على هذا النحو على حدود الإمبراطورية الرومانية لحماية حدود الإمبراطور - وسيلة تسمح بتسرب أعداد ليست بالقليلة من الشعوب الجرمانية إلى داخل الأراضى الرومانية، وكثيراً ما أغضت إدارة الإمبراطورية أعينها عن هذا التسرب، لاستخدام هؤلاء النازحين "سرا"!! جنداً مرتزقة فى الجيش الرومانى أو فلاحين فى أفقر مناطق الإمبراطورية مثل بانونيا Bannonia وموئيزيا Moesia وغيرها من الولايات فى البلقان. وكان طبيعياً أيضاً أن يقف الجرمان على مظاهر الحضارة الرومانية والحياة اليومية والعادات والتقاليد التى يحياها الرومان، وأن يتعرف بعضهم إلى المسيحية، وإن كانت أعدادهم قد ظلت حتى أوائل القرن الرابع الميلادى قليلة جداً.

وتشكل مسألة تحول الجرمان إلى المسيحية أمراً يختلف حوله المؤرخون خاصة المصادر التاريخية والكنسية المعاصرة، فالمؤرخ الكنسى سقراط يذكر، ويتابعه فى ذلك سوزومونوس أن القوط الغربيين انشغلوا أثناء مكثهم فيما وراء الدانوب بالحرب الأهلية التى دارت بينهم، فقد انقسموا فريقين أحدهما يتزعمه "أثاناريش" Athanarich والآخر يقوده "فريتجرن" Fritigernes الذى أرسل يستنجد بالرومان ويطلب عونهم، وعلى الفور أصدر الإمبراطور فالنزا أوامره للقوات المرابطة عند الدانوب بمساعدته، حتى إذا تم لها النصر، كانت تلك فرصة سانحة لتحول عدد كبير من القوط إلى المسيحية كنوع من العرفان من جانب "فريتجرن" تجاه الإمبراطور، ولما كان آريوسيا، فقد دخل القوط فى الآريوسية أفواجا^(٣٦).

SOCRAT. hist. Eccl. IV 33 ; SOZOM. hist. Eccl. VI 37. (٣٦)

ويضيف سوزوموس معلقاً، أن "أولفيلاً" (Ulfila (Vulfila) أحد رجال القوط الشهيرين المبشرين بالمسيحية بين بنى قومه وأسقفهم، لم يكن على دراية بالخلافات العقيدية الحادثة في الكنيسة، إذ أنه خلال عهد قسطنطيوس، وعلى الرغم من مشاركته في أعمال مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، ودخوله في شركة يودوكسيوس واكاكسيوس^(٣٧)، إلا أنه لم ينحرف عن قانون الإيمان النيقى. ويبدو أنه عاد فيما بعد إلى القسطنطينية ودخل في جدل عقيدى مع زعماء الأريوسية، الذين وعدوه بعرض مطالبه ومطالب شعبه على الإمبراطور إذا ما وعد بتقبل العقيدة الأريوسية. ولما كان مضطراً إلى ذلك أمام ضغط الظروف العصبية التى يتعرض لها قومه، فقد فصل نفسه وشعبه جميعهم عن الكنيسة النيقية^(٣٨).

وعند هذه النقطة الأخيرة، يكاد يتفق المؤرخ الكنسى ثيودوديتوس مع قرينه، وإن كان يتأخر بهذه الأحداث إلى ما بعد عبور الفيزيقوط الدانوب فور سماح الإمبراطور فالنز لهم بذلك ويقول "إن يودوكسيوس أسقف القسطنطينية اقترح على فالنز إغراء القوط بالدخول في شركته، رغم أنهم كانوا قد وقفوا على قدر من المعرفة بالمسيحية"، ويضيف؛ أن الأسقف خاطب الإمبراطور بقوله، أن وحدة هؤلاء معاً في العقيدة سوف يجعل السلام أكثر ثباتاً واستقراراً. وقد استصوب الإمبراطور هذا رأى، غير أن القوط رفضوا التخلي عن عقيدة آبائهم. ولم تتجح جهود الإمبراطور إلا بعد تدخل أولفيلاً نفسه، الذى استطاع اقناع شعبه بالدخول في شركة يودوكسيوس، خاصة بعد الرشاوى التى دفعها أسقف العاصمة للأسقف القوطى، وهكذا نجح أولفيلاً فى استمالة قومه إلى الأريوسية بحجة أن الجدل بين الفرق المختلفة يعود فى حقيقته إلى التنافس الشخصى، ولا يتضمن أى خلاف فى العقيدة، ومنذ ذلك التاريخ والقوط يؤمنون أن الآب الأعظم من الابن^(٣٩).

(٣٧) يودوكسيوس هو أسقف القسطنطينية الأريوسى، وقد سبق الإشارة إليه. أما أكاكسيوس فهو أسقف قيسارية فلسطين الذى خلف يوسيبوس القيسارى، شيخ مؤرخى الكنيسة فى منصبه. يعتبر أحد زعماء العقيدة الهوموية فى الشرق، قدم وثيقة الإيمان بها فى مجمع سلوقية عام ٣٥٩ وإن كان قد تولى فى نهاية الأمر عن عقيدته الهوموية، بل والأريوسية كلها ليصل بالنيقيين المعتدلين فى أنطاكية صفوفه.

SOZOM. Hist. Eccl. VI 37. (٣٨)

THEOD. Hist. Eccl. IV 33. (٣٩)

على أن هذه الآراء لا يمكن قبولها هكذا على علاتها أو التسليم بها دون مناقشة، فسقراط وسوزومونوس ذكرا قبل ذلك بقلميهما^(٤٠) أن أولفيلا هذا قد حضر مجمع أنطاكية الذي عقد في سنة ٣٤١ والذي ذاع باسم "مجمع التدشين" Concilium dedicationis^(٤١). والمعروف أن هذا المجمع كان أريوسيا، حضره أساقفة الشرق وترأسه يوسيبوس النيقوميدي أسقف القسطنطينية آنذاك والزعيم الأريوسي العنيد، وذكرنا أيضاً أن أولفيلا قد تم رسمه أسقفاً للقوط في ذلك المجمع على يد يوسيبوس نفسه. ثم إن أولفيلا كان أحد شهود مجمع القسطنطينية في عام ٣٨٠، على حد قول سوزومونوس، وهو المجمع الذي توج الجهود الأريوسية التي استمرت خمسة وثلاثين عاماً من أجل السيادة في الإمبراطورية، كما أن الأسقف القوطي دخل أيضاً - كما يقول سوزومونوس - في شركة يودوكسيوس أسقف القسطنطينية وأكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، وهما من أشهر آباء الأريوسية. فكيف إذن يمكن التوفيق بين هذا كله وبين القول بأنه لم ينحرف عن الإيمان النقي" حسب زعم سوزومونوس؟!

الأمر الثاني القائل بأنه عاد إلى القسطنطينية ودخل في جدل عقيدى مع زعماء الأريوسية واضطر تحت ضغط الظروف العصيبة التي يتعرض لها قومه إلى الدخول في شركة الأريوسيين.. مرفوض شكلاً وموضوعاً، إذ أنه كان قد دخل بالفعل في شركة يودوكسيوس وأكاكيوس، كما ذكر سوزومونوس نفسه في الفقرة ذاتها. يضاف إلى هذا نقطة على جانب من الأهمية كبير؛ فالإمبراطور قسطنطيوس لم يمكث في القسطنطينية بعد المجمع الأريوسي الذي عقد فيها عام ٣٦٠ إلا قليلاً ثم ارتحل عنها قاصداً أنطاكية استعداداً للحرب الفارسية^(٤٢) وما أن أخذ في إعداد قواته لذلك، حتى اضطر أن يعود بجيشه ثانية متجهاً إلى الغرب لملاقاة ابن عمه جوليان الذي كان قسطنطيوس قد عينه على غالة سنة ٣٥٦، ثم أعلن نفسه إمبراطوراً شريكاً بإرادة جنوده في عام ٣٦٠. لكن الإمبراطور

(٤٠) SOZOM. hist. Eccl. III 5, IV 24; SOCRAT hist. Eccl. II 8-10, 41.

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن هذا المجمع راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة الجزء الثالث ص ١٤٦

-١٦١-

(٤٢) THEOD. hist. eccl. II 27.

قسطنطيوس لم يصل القسطنطينية، إذ وافته منيته عند مدينة موبسوكرنى Mopsucrene على الحدود بين كيليكيا وكبادوكيا في آسيا الصغرى في الثالث من نوفمبر سنة ٣٦١، فاعتلى جوليان عرش الإمبراطورية، وأعلن عودته إلى الوثنية، فلما خلفه جوفيان عام ٣٦٣ كان ممالئاً للنيقية. ومن ثم فليس هناك مجال للقول بعودة أولفيل إلى القسطنطينية مباشرة بعد المجمع الذي عقد فيها، ودخوله في جدال مع زعماء الأريوسية. بل كيف يمكن قبول - حتى هذه العبارة الأخيرة - وسوزمومنوس نفسه يصف أولفيل بأنه "لا يفقه شيئاً عن الخلافات العقيدية الحادثة في الكنيسة" ويدلل على ذلك بأنه حضر مجمع القسطنطينية ودخل في شركة اثنين من أكبر زعماء الأريوسية وهو يعتقد أنه الإيمان النيقى!!

بل إن أولفيل لا يمكن أن يكون قد عرف شيئاً ما عن النيقية، ذلك أنه منذ عشرينيات القرن الرابع الميلادي كانت الأريوسية قد انتشرت بصورة سريعة في الولايات الشرقية من الإمبراطورية، خاصة سوريا وآسيا الصغرى. وهذه الحقيقة نعلمها من رسالة بعث بها أريوس السكندري إلى صديقه يوسيبوس أسقف نيقوميديا، يذكر فيها الكنائس التي شايعت آراءه وتابعت عقيدته^(٤٣)، فإذا علمنا أن النيقية لم تعرف بصفتها الرسمية إلا بعد أن صدرت عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥، وأن أولفيل قد ولد سنة ٣١١، أنه تلقى تعليمه وتربيته الأولى في كبادوكيا، ثم ارتحل في نهاية الثلاثينيات من القرن الرابع إلى العاصمة^(٤٤)، حيث كان يوسيبوس النيقوميدي قد أصبح أسقفاً لها، أيقنا أن مداركه قد تفتحت منذ البداية على الأريوسية فقط^(٤٥).

أما ما يقوله ثيودوريتوس من أن هذا التحول إلى المسيحية الأريوسية كان بعد عبور الدانوب، والحديث الذي دار بين الإمبراطور فالنث وأسقفه يودوكسيوس، فإن الأحداث لا تقر هذه الحقيقة. ذلك أن القوط عبروا الدانوب بموافقة الإمبراطور

(٤٣) راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة : الجزء الثاني . ص ١٧٨ .

(٤٤) Laister, Thought and letters in western Europe, p. 19; Baiton, op. cit. I, p. 159;

Strayer & Munro, op. cit. p. 31; Davis, Medieval Europe, p. 22.

(٤٥) يذكر بعض المؤرخين أن أسقفاً للقوط يدعى ثيوفيل Theophilus كان أحد شهود مجمع نيقية، غير أن مجرد اسم هذا الأسقف يدعو للشك في كونه جرمانياً. راجع :

Strayer & Munro, op. cit. p. 31; Vasiliev, op. cit. I, p. 85.

عام ٣٧٦، وكان فالنر آنذاك فى أنطاكية ثم منبج Hierapolis ولم يكن بالقسطنطينية، لمتابعة الاستعدادات للحرب الفارسية، ولم يأت العاصمة إلا فى مايو ٣٧٨ عندما استفحل خطر القوط وأصبح الصدام وشيكاً بينهم وبين الرومان، ليلقى حتفه بعد هذا التاريخ بشهرين وعشرة أيام فقط. ثم ينهدم رأى ثيودوريتوس من أساسه إذا علمنا أن يودوكسيوس أسقف القسطنطينية قد مات فى عام ٣٧٠، أى قبل هذه الأحداث التى يذكرها المؤرخ بست سنوات!!

ويضيف ثيودوريتوس أن القوط رفضوا دعوة الإمبراطور وأصروا على عدم التخلي عن عقيدة آبائهم. ولكن.. أى عقيدة تلك التى يعنيها مؤرخنا الكنسى؟ أهى الوثنية التى كان يدين بها الجرمان عامة؟ أم هى النيقية التى يدعى سوزومنوس أنهم تحولوا إليها بتأثير أولفيل فى بادئ الأمر؟ فإن كانت الأخيرة، فقد سبق لنا مناقشتها، وأن كانت الأولى أمكننا القول بأن القوط الغربيين فى انقسامهم إلى فريقين تحت زعامة كل من أثاناريش وفريتجن، قد انقسموا فى عقيدتهم، فبينما حافظ أثاناريش وجماعته على الوثنية، راح أولفيل يبشر بالمسيحية بين أتباع فريتجن، وعندما حاول أن يوسع دائرة بشارته لتضم أتباع أثاناريش، أنزل هذا عذابه الأليم بمن تحول منهم، مما أدى إلى اعتبار هؤلاء فى نظر الآريوسيين من الشهداء^(٤٦). ولا يبعد أن يكون سلوك الملك العجوز صادراً عن اعتبار هذا العمل اعتداء على حقوقه أو لتقاصاً لسلطاته، ولا بد أن يكون قد نظر إلى هؤلاء على أنهم أعوان لخصمه، خاصة فى الحرب الأهلية الدائرة بينهما، ولما كانت هذه الحرب قد انتهت بانتصار فريتجن وتخلي أنصار أثاناريش عنه وانضمامهم إلى منافسه، ولما كان رجال فريتجن وقبيله هم الذين توسلوا إلى فالنر ليسمح لهم بعبور الدانوب أولاً^(٤٧). ولما كان هؤلاء على الآريوسية، اتضح تماماً خطأ ما يذكره ثيودوريتوس عن عقيدة الآباء!

وكيف يمكن مسايرة ثيودوريتوس فى ادعائه بأن أسقف القسطنطينية قد نجح عن طريق الرشوة فى إغراء أولفيل وقبيله بالتحول إلى الآريوسية وقد أجمع

SOCRAT. Hist. eccl. IV 33. (٤٦)

C. M. H. vol. I, pp. 231-32. (٤٧)

مؤرخو الكنيسة جميعهم على امتداح أولفيللا والثناء على خلقه والإشادة بفضائله^(٤٨).

والذى نراه أن مؤرخى الكنيسة، واثنان منهم من بين رجال الدين^(٤٩). وكلهم متحمس للعقيدة النيقية، وثلاثتهم كتبوا تواريخهم فى القرن الخامس الميلادى، قد راعهم جميعاً تحول هذه الأعداد الضخمة من الجرمان عامة إلى الآريوسية، خاصة وإنها قد انتقلت من الفيزيقوط إلى جيرانهم من الأوستروقوط والوندال وغير هؤلاء من الشعوب الجرمانية الأخرى العديدة، حتى غدت الآريوسية هى دين الجرمان جميعهم عدا قبائل الفرنجة^(٥٠). ولا شك كان هؤلاء يتوجسون خيفة من انتشار المسيحية الآريوسية بين الرومان، خاصة بعد أن أصبح الجرمان هم السادة الجدد للنصف الغربى من الإمبراطورية خلال القرنين الخامس والسادس، ومن ثم فإنه ليس من المصادفة ، كما يقول ليستتر^(٥١)، Laistner أن نجد نيكيتا Niceta أسقف رمسيانا Remesiana (بالقرب من نيش)، وهو أسقف نيقى فى الجيل الذى خلف أولفيللا، يحذر المتقدمين لتناول المعمودية من تعاليم آريوس التى أخذت فى الانتشار فى هذه المنطقة.

والذى لا مرأى فيه أن أولفيللا قد لعب دوراً كبيراً فى التبشير بالمسيحية فى صيغتها الآريوسية بين بنى قومه من الفيزيقوط، وساعده على ذلك ما اتصف به من حسن الخلق وطيب السيرة، بالإضافة إلى ما كان ينتج به من الفصاحة وسحر البيان^(٥٢). ورغم آريوسيته إلا أنه قد استطاع أن يفرض نفسه على السجلات الكاثوليكية من خلال عمله الرائع بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الموثيزية - القوطية، بعد أن صنف الأبجدية القوطية من أربعة وعشرين حرفاً معتمداً فى

(٤٨) SOCRAT. Loc. cit. THEOD. hist. Eccl. IV 33; SOZOM. Hist. Eccl. VI 37

(٤٩) كان سوزومنوس أحد رهبان غزة، بينما كان ثيودوريتوس أسقفاً لكنيسة كيروس فى سوريا.
(٥٠) تحول القوط الغربيون فيما بعد عند استقرارهم فى أسبانيا من الآريوسية إلى النيقية، وكان ذلك فى عام ٥٨٩.

(٥١) Thought and letter in Western Europe, p. 20.

(٥٢) THEOD. Hist. eccl. IV 33; SOZOM. hist. Eccl. VI 37.

بعضها على اليونانية وفي بعضها الآخر على لسان أهل الشمال^(٥٣). وقد ساعده على ذلك دراسته لليونانية واللاتينية أثباء تلقية تعليمه في كبادوكيا ثم القسطنطينية. وقد حرص في ترجمته للكتاب المقدس على أن يحذف منه أسفار صموئيل والملوك لامتلائهما بالمعارك الحربية، وقال مبرراً ذلك "بأن القوم أصلاً مولعون بالحروب ومن ثم فهم محتاجون الآن للقيمة العيش أكثر من احتياجهم لمهماز الجواد، فلطالما أنهكت الحروب قواهم"^(٥٤).

على هذا النحو كان الفيزيقوط قد تحولوا، أو بتعبير أدق عدد ليس بالقليل منهم، وهم الذين يشكلون أشياع فريترن، إلى المسيحية الأريوسية، قبل أن تضطرهم الأحداث إلى التوسل للإمبراطور فالنز كي يسمح لهم بعبور الدانوب، ذلك أنه في عام ٣٧٠ كانت جحافل الهون Hunni الآسيوية قد وصلت إلى مشارف البحر الأسود ومصب الدانوب، بعد أن خرجت من موطنها الأصلية وراحت ترحف غرباً في سيل عرم عبر سهول روسيا الجنوبية، تبث الهلع في أفئدة السارماثيين وجرمان هذه المناطق^(٥٥). وتهافت تحت ضرباتهم مملكة الأوستروقوط التي كانت تقوم آنذاك عند البحر الأسود، وأرغم اليأس ملكهم إرمانريش Ermanarich على الانتحار، وعبثاً حاول أثناريش تنظيم وسائل الدفاع عن الجزء الخاضع لسيطرته من مملكة الفيزيقوط، بعد أن أمكن الفرع من قلوب قبيلة كلما صك مسامعهم وقع أقدام جماعات الهون، من ثم أضطر إلى الانسحاب مع أتباعه إلى خلف جبال الكربات، على حين أقدم رجال فريترن على إرسال مندوبيهم إلى الإمبراطور فالنز يلتمسون السماح لهم بعبور النهر للاحتماء خلفه من سيوف الزحوف الهونية، مع وعد بتعمير مؤنيزيا وتزويد الجيش بالجنود وإطاعة الإمبراطور في كل ما يصدر عنه كما تفعل رعيته^(٥٦).

(٥٣) SOCRAT. Hist. eccl. IV 33; Laistner, op. cit. p. 20; Vasiliev, op. cit. I, p. 85.

(٥٤) Strayer & Munro, op. cit. p. 32. للمزيد من التفاصيل عن تحول الجرمان إلى الأريوسية، راجع

Neander, General history of the Christian religion and church, II, pp. 125-129;

Shaff, history of the Christian church, III, pp. 640-641.

(٥٥) AMM. MARC. res gest. XXXI. 3.

(٥٦) Ibid. XXXI, 4.

هكذا أقبلت سنة ٣٧٦ تحمل في طياتها نذر الشر للإمبراطورية وفاللز دون أن يدري، ذلك أن الإمبراطور أو أحدا من مستشاريه السياسيين أو العسكريين، لم يحاول التريث لدراسة النتائج التي يمكن أن تترتب على قبول هذا الالتماس، وما يتبعه من استعدادات ضخمة فيما يتعلق بنواحي الأمن والتموين اللازمة لاستقبال هذا العدد الضخم من القوط، بل رحبوا جميعاً بهذه الفكرة، وأمر الإمبراطور "باستقبال هؤلاء المتضرعين" - على حد تعبير سقراط - أحسن استقبال، وأنزلهم في موثيزيا، وأعتبر نفسه بهذا الأمر محفوظاً^(٥٧). فتساقط القوط على الإمبراطورية في خريف عام ٣٧٦ عبر الدانوب بأعداد كثيفة تساقط أوراق الشجر في مهب رياح الخريف^(٥٨).

ولا شك أن الآمال دأبت فاللز وقواده العسكريين في إمكان الحصول على قوة عسكرية جديدة وكبيرة، تنهى هذه الأزمة الفارسية التي تسبب نزيفاً مستمراً للإمبراطورية، خاصة بعد نقض الفرس شروط المفاوضات الجارية بينهم وبين فاللز لإقرار السلام، ولذا صادف ملتصق القوط في نفس الإمبراطور هوى، ووجد فيه إرضاء لكبرياء عنده وغروره، وزين له الأمر مستشاروه، فقد ألقت إليه المقادير عدداً من الرجال لا حصر له، يمكنه في تصوره - من بناء جيش لا يهزم. فيستغنى بذلك عن سياسة التجنيد الإجباري في الولايات، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من الأراضي البور في تراقيا سوف تعمر بهم. بل إنه راح ينفذ سياسته هذه دون توان، فأهمل تجنيد أهالي الولايات التي أنزل فيها القوط، وأعفاهم من الخدمة العسكرية، في مقابل دفع ضريبة البديلة، حتى يزيد بذلك الدخل العام. ويعلق سقراط بعيني المؤرخ الناقد على ذلك بعبارة رائعة تقول "وكان لهذا التغيير الذي حدث أكبر الأثر، بل كان يمثل أصل كثير من الأخطار التي تعرضت لها من بعد الإمبراطورية"^(٥٩). ويضيف سوزومونوس "لقد كان فاللز يعتقد أن القوط سوف

(٥٧) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 34 ويقول سقراط معلقاً "وكانت هذه هي الحالة الوحيدة فقط طيلة عهده التي ظهر فيها رحماً" والحقيقة أن فاللز كان مكروها من رعيته كلها بسبب وحشيته وغلظته، من النيقيين باعتباره أريوسياً متحمساً، ومن اللوثيين لكونه مسيحياً متعصباً.

راجع. C. M.H, I, p. 235.

(٥٨) AMM. MARC. Res gest. XXX I. 4.

(٥٩) SOCRAT. hist. eccl. IV, 34.

يكونون أكثر نفعاً للإمبراطورية وشيئاً مخيفاً لأعدائها، ولكنه عرف - بعد فوات الأوان. جسارة الخطأ الذى ارتكبه^(٦٠).

ولم يكن استقرار الجرمان على قطعة من الأرض الرومانية أمراً مستغرباً، فقد جرى ذلك من قبل على عهد أورليان Aurelianus كما أسلفنا، ولم يكن استخدامهم فى الجيش الرومانى حدثاً غير عادى،، فقد كان ذلك شيئاً شائع الحدوث فى القرن الرابع، لكن الذى يدعو للاهتمام، هو استقبال هذا العدد الكبير من الجرمان دفعة واحدة، وانزالهم فى منطقة بعينها دون اتخاذ أى من الاستعدادات اللازمة لذلك. ولم يكن للإمبراطور من شروط إلا أن يسلم القوط أسلحتهم، ومع أن هذا الشرط قد بدا لأعين القوط صارماً، إلا أن القدر الذى أنجاهم من سيوف الهون تمثل لهم الآن فيما يتطلبه الإمبراطور رحيماً^(٦١). ومن ثم أعلنوا على الفور قبول ذلك، غير أن الضباط الرومان الذين وكل إليهم تنفيذ ذلك صرفوا همهم إلى الاغتصاب والسلب دون تجريد محاربى القوط من أسلحتهم، مما كان له أفدح النتائج بالنسبة للأحداث التى ألمت من بعد بالإمبراطورية.

وقد ترك موظفو الإمبراطور وقواده فى منطقة تراقيا للظروف وحدها مهمة إطعام هذه الجموع، وزاد الأمر سوءاً أن سيق عدد لا بأس به من القوط تحت قيادة يوليوس، القائد الرومانى، تجاه الحدود الشرقية حيث أعيد تنظيمهم فى وحدات جديدة للعمل على الجبهة الفارسية. وكان هذا الإجراء فى حد ذاته وما تبعه من إرسال بعضهم شتاء إلى أدرنه Adrianopolis، يعنى لدى الجرمان تمزيقاً لبقائهم القبلى، وفتح الباب لفقدان الثقة بين النزلاء الجدد والإمبراطورية، زاد هونها سوء معاملة موظفى الإمبراطور وقواده خاصة فيما يتعلق بمسألة التموين. ويتحمل لوبيكينوس Lupicinus النائب العسكرى لتراقيا، وماكسيموس Maximus القائد المحلى، النصيب الأكبر فى هذه الناحية، إذ استغلا المجاعة التى كان يعانى منها القوط، وراحوا يبيعونهم لحوم الكلاب، ثم باعوا أبناء القوط أنفسهم عبيداً فى الأقاليم. وكان لابد أن يشعر القوط بالإهانة من جراء هذه المعاملة^(٦٢).

(٦٠) SOZOM. hist. eccl. VI 37.

(٦١) Strayer & Munro, op. cit. p. 32. C. M. H. I, p. 232

(٦٢) AMM. MAR. res gest. XXXI, 4.

وكان هذا كله إيذاناً بتجميع القوط لقواهم وقواتهم والدخول في معركة حاسمة مع الإمبراطورية الرومانية، وقد جرى ذلك سريعاً في عام ٣٧٨ عند مدينة أدريانوبل (Adrianopolis (Ederne حيث لقي الجيش الروماني هزيمة مروعة راح ضحيتها - في أقل التقديرات - حوالى خمسة وأربعين ألف جندي، وخر الإمبراطور فالنر نفسه صريعاً، وبانت منطقة البلقان ومن ورائها الولايات الرومانية في الشطر الغربي تحت رحمة الجحافل الجرمانية^(٦٣).

وتعد معركة أدريانوبل من المعارك الفاصلة في التاريخ، إذ كانت لها نتائجها البعيدة التي تركت آثارها الواضحة على مسيرة التاريخ الأوربي عبر العصور الوسطى، بل وامتدت هذه الآثار إلى العصور الحديثة نفسها، ناهيك عن النتائج المباشرة التي ترتبت على هذه المعركة، حيث فتحت حدود الإمبراطورية الرومانية أمام الجحافل الجرمانية، التي تمكنت خلال القرن الذي أعقب المعركة من إسقاط نصف الإمبراطورية الغربية، وأقامت على أنقاضه ممالك جرمانية تمثلت في مملكة الأنجلو - سكسون في إنجلترا، ومملكة الفرنجة في غالة، ومملكة القوط الغربيين في إسبانيا، ومملكة الوندال في أفريقيا، ثم مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا، ليأخذ تاريخ أوروبا العصور الوسطى بذلك منحى مغايراً تماماً لما كان عليه في العصور القديمة^(٦٤).

(٦٣) عرض المؤرخ المعاصر "أميانوس ماركلينوس" Ammianus Marcellinus لمعركة أدريانوبل بالتفصيل في الجزء الأخير من كتابه Res gestae حيث تتوقف أحداث الكتاب عند هذه المعركة.

(٦٤) للمزيد من التفاصيل عن النتائج المباشرة والبعيدة لمعركة أدريانوبل، راجع للمؤلف ، الإمبراطورية البيزنطية، الجزء الأول، الفصل الثالث.



الفصل الثاني

تداعى المسيحية الحكومية

الفصل الثاني

تداعى المسيحية الحكومية

حققت الأريوسية انتصارها وسيادتها على النيقية، خلال السنوات التى حكمها الإمبراطور قسطنطيوس منفرداً، وعلى امتداد عهد فالنز. وإذا كانت قد امتدت لتشمل الإمبراطورية كلها بشقيها زمن أولهما، فإنها قد انحسرت أيام ثانيهما إلى الشطر الشرقى فقط. ولم تكن كنيسة ميلانو فى الغرب بأريوستها إلا ميراثاً خلفه قسطنطيوس لأوكسنطيوس عندما كان المد الأريوسى جارفاً، ولم يكن بقاؤه فى أسقفيته حتى انتصاف سبعينيات القرن الرابع الميلادى إلا إفادة من سياسة "التغاضى" التى اتبعها الإمبراطور فالنتينيان الأول إزاء كل الفرق المسيحية.

وبموت فالنز أصبح مصير الأريوسيين فى الشرق فى يد المقادير، خاصة وهؤلاء يعلمون أن الإمبراطور جراتيان، الذى آل إليه الآن حكم النصف الشرقى، يؤيد النيقية. ورغم أن كنيسة القسطنطينية قد ظلت طيلة أربعين عاماً كاملة (٣٣٩-٣٧٩) أريوسية، ويتربع على كرسيها الآن ديموفيلوس (لا أن هذا وأهلها كانوا يخشون أن يفرض عليهم إمبراطور من الغرب آت، يدين بعقيدة القوم هناك، وهى النيقية التى ركن الغرب إليها ولم يبع عنها حولا.

وفى الفترة التى خلا فيها عرش القسطنطينية من وجود إمبراطور، وهى الشهور الواقعة بين مقتل فالنز وإعلان ثيودوسيوس إمبراطور (أغسطس ٣٧٨-يناير ٣٧٩) وامتدادها حتى دخول الإمبراطور الجديد إلى عاصمته فى نوفمبر ٣٨٠، ماجت القسطنطينية بشتى الفكر، وازدادت حدة الخلافات اللاهوتية بين الدوائر الكنسية، وتخطت هذه إلى رجل الشارع، ما بين الأريوسيين بفرقهم الغديدة، والماكيدونيين، وهؤلاء جميعاً والنيقيين، وأصبحت العاصمة فإذا الناس فيها كلهم ولا حديث لهم إلا المسألة العقيدية، فقهوا من أمر اللاهوت شيئاً أو جهلوه، وهذه هى الفترة التى عبر عنها اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى النيساوى Gregorius Nysaeus بقالته الرائعة وهو يصف القسطنطينية وأهلها: "لقد امتلأ كل شىء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق

والأزقة. فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمناً لشيء، فلسفوا لى الإجابة حول المولود والمخلوق، وإذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز، أجابنى البائع بأن الأب أعظم من الابن، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامى قد أعد، جاءتنى الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم!!".

وكانت كنائس القسطنطينية كلها دون استثناء بيد الأريوسيين، وقد حاول النيقيون ذات مرة فى عام ٣٧٠ بعد وفاة يودوكسيوس، أن يختبروا قوة خصومهم، وأن يتحسسوا مواقع خطاهم، وذلك باختيار ايفاجريوس أسقفاً لهم، غير أن هذه المحاولة حققت فشلاً ذريعاً، واستمرت الأسقفية بأيدي الأريوسيين الذين رفعوا ديموفيلوس إلى كرسيه، بعد أن تدخلت القوات التى بعث بها فالنر لصالح الأريوسية. والآن، وفى خلو العرش من حاكم، واستناداً إلى المرسوم الذى أصدره الإمبراطور جراتيان عام ٣٧٩ بالتسامح العام فى الإمبراطورية، أقدم النيقيون فى القسطنطينية على إعادة المحاولة مرة ثانية، ووقع اختيارهم هذه المرة على أحد الآباء الكبادوكيين الثلاثة الأشهار، هو جريجورى النازيانزى Gregorius Nazianzenus أسقف نازيانزا^(١). ومع أن تطلعات النيقيين بهذا الاختيار كانت

(١) ينتمى جريجورى لأبوين مسيحيين، وهو سمي لأبيه الذى كان أسقفاً لنازيانزا Nazianzus ولد حوالى سنة ٣٢٥، وحرصت أمه على تنشئته تنشئة مسيحية صادقة. وقد أرسل هو وأخوه قيصر Caesarius إلى قيسارية الكبادوك لتلقى تعليمهما، وهناك التقى بصديق عمره باسل الكبير، ثم انتقلا إلى قيسارية فلسطين، ومنها للإسكندرية فى الفترة التى كان فيها اثناسيوس الأسقف السكندرى لآنذا بالغرب (٣٣٩-٣٤٦). ولم يلبث جريجورى أن انتقل بعد ذلك إلى أثينا لإكمال تعليمه، وهناك فى جامعتها ثانية التقى بباسل الكبادوكى، وكانا زميلين للأمير جوليان الذى صار إمبراطوراً فيما بعد (٣٦١-٣٦٣). فلما عاد إلى مسقط رأسه بعد اثنتى عشرة سنة أمضاها فى أثينا، راح ينتقل بين نازيانزا وبين أحد الأديرة فى بونطس مع صديقه باسل. وفى عام ٣٥٩ أعطى أبوه توقيعه على المرسوم المزدوج الصادر عن ريمنى وسلوقية، مما أثار غيظ الرهبان فأعلنوا تحديهم له وأثاروا عليه بعض رجال الدين مما دفع جريجورى إلى المقام بجوار والده، وحثه على إعلان إيمانه بالنيقية ورفض المرسوم المزدوج، وبذلك انتهى الشقاق الذى حدث فى كنيسة نازيانزا. ولما كان جريجورى الأب قد بلغ من الكبر عتياً، فقد خضع لإلحاح رعيته برسم ابنه كاهناً ليساعده، وتم ذلك فى عام ٣٦١ على غير رغبة الابن. فلما مات الأب عام ٣٧٤، أصبح جريجورى الابن أسقفاً خلفاً له، وظل هناك حتى استدعاه أهالى القسطنطينية النيقيون ليكون راعياً لهم. وقد ترك جريجورى تراثاً لا هوتياً=

الدولة .. والكنيسة

واسعة، إلا أن طموحاتهم كانت محدودة مخافة أن تصاب محاولتهم الثانية هذه بالإخفاق كما جرى لهم أول مرة. ومن ثم دعوه ليكون راعياً لهم وممثلاً لفريقهم، يلتفون من حوله، ويقوم هو بأداء الخدمة الكنيسة، دون إثارة شعور الفريق الأريوسي الذي مازال من الناحية الرسمية صاحب السيادة في الشطر الشرقي من الإمبراطورية، وصاحب الحق الشرعي في كرسي القسطنطينية الأسقفى.

وكان جريجورى النازيانزى على قدر كبير من الثقافة، نهل من الفكر اليونانى فى الإسكندرية وأثينا، ثم صرف همه بعد ذلك لدراسة اللاهوت، وهو يمثل مع باسل أسقف قيسارية كبادوكيا وجريجورى أسقف نيسا، أشهر آباء اللاهوت اليونان فى أخريات القرن الرابع الميلادى، كما أنهم يعتبرون بحق جيل النيقية الجديد المعتدل الذى يخفف من غلواء التطرف عند جيل النيقية الأول المتمثل فى كل من يوستاتيوس Eustathius الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى، ولهذا استحق جريجورى النازيانزى أن يدعوه المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى إفسوس سنة ٤٣١ "الكبير" وأن يعرف عالمياً باسم "اللاهوتى".

ولما لم يكن للنيقيين فى القسطنطينية كنيسة يؤدون فيها طقوسهم، فقد أقدم جريجورى على تحويل منزل أحد أصدقائه فى العاصمة إلى كنيسة، وأطلق عليها كلمة لها مغزاها هى "البعث" (Anastation (resurrection وهو يعنى بذلك بعث الإيمان النيقى من جديد أو إعادته إلى الحياة مرة ثانية بعد أربعين سنة من السيادة الأريوسية^(٢). وقد نجح جريجورى بالفعل بعظاته ونشاطه وحيويته وحسن بيانه أن

فكرياً كبيراً وضعه ضمن آباء اللاهوت الشهيرين فى الكنيسة الشرقية بصفة خاصة. للمزيد من التفاصيل عن جريجورى وأعماله راجع: Nicene and post Nicene fathers, Vol VII وسوف نورد لها ثبوتا فى قائمة المصادر فى نهاية الكتاب. وانظر أيضاً. SOCRAT. Hist. eccl. V 6; RVFIN hist. eccl. II 9 وقد عرف جريجورى النازيانزى باسم "الالهى" وهو الوحيد من بين آباء الكنيسة فى الشرق والغرب الذى يشترك فى هذا اللقب مع يوحنا الانجيلى. راجع: Nicene and post Nicene fathers, vol. VII p. 187; Baynes & Moss, Bzantium, pp. 93-84, 212-213, 226; Laistner, op. cit. p 64.

(٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 5; SOCRAT. hist. Eccl. V 7 ويورد سوزوموس كعادته فى مثل هذه الأمور رواية أخرى بالإضافة إلى التفسير الأول، ويقدم لها بكلمة "كما سمعت" =

يجمع حوله قلوب فلول "الهوموسيين" الذين كانت قد ضاقت بهم السبل، ولكنه أثار في الوقت ذاته حسد الفرق المسيحية الأخرى وحقدتها، مما دفعهم إلى مهاجمة هذا المنزل الذي اتخذ منه كنيسة، في محاولة للاعتداء على حياته، فلما لم يدركوه، حطموا الأواني المقدسة التي عثروا عليها^(٣). وكان هذا العمل دليلاً على المكانة التي احتلها جريجورى بشكل سريع وغير متوقع في نفوس جموع القسطنطينية، وترك آثاره السيئة على نفس جريجورى، تضافرت معها عوامل أخرى عديدة كانت دافعاً له على محاولاته المتكررة للتخلي عن منصبه، حتى قبل أن يرسم بصفة رسمية أسقفاً للقسطنطينية.

وكان من بين هذه العوامل أن شخصاً يدعى ماكسيموس Maximus اسكندري المولد، درس الفلسفة الكلبية وأصبح أحد أساتذتها، وأعلن في الوقت ذاته تمسكه بالهوموسية وتحمسه الزائد لها، جاء إلى القسطنطينية حوالى ذلك الوقت التي استدعى إليها جريجورى وتقرّب إليه ثم قلب له ظهر المجن وناصبه العداء. ووسط التيه الذي يغرقنا فيه مؤرخو الكنيسة حول ماكسيموس هذا وعلاقته بجريجورى^(٤) نستطيع أن نتلمس طريقنا بشق الأنفس، وبكل الحذر والروية.

فنحن لا نسمع شيئاً مطلقاً عن ماكسيموس هذا إبان الفترة التي كان فيها لوقا الأريوسى أسقفاً للإسكندرية على عهد الإمبراطور فالنز، ولكن فيما يبدو لم يلبث أن وصل صفوفه ببطرس السكندري حالة عودته من مهربه فى روما، بعد طرد لوقا ومقتل فالنز، وأصبح مقرباً منه أثيراً لديه، فلما خلا عرش القسطنطينية من إمبراطور يسوده، وراح النيقيون يبحثون لهم عن وجود وحياة، كان هذا كفيلاً بتشجيع كثير من العناصر الطامحة للذهاب إلى القسطنطينية للبحث عن مجال تعلى فيه قدرها. وكان كرسي العاصمة الأسقفى يغرى الكثيرين بالقفز عليه، على الرغم

=خلاصتها إنه فى أحد الأيام أثناء الصلاة سقطت إحدى النساء الحوامل من أعلى الدهليز وفارقت الحياة لساعتها، فلما أقيمت الصلوات من الجموع، عانت إليها الحياة وكذا جنينها!! (هكذا) ومن ثم أمام المعجزة حمل المكان اسم البعث.

(٣) SOCRAT. hist. Eccl. V 7; SOZOM. Loc. Cit. Hefele, op. cit. II p. 341.

(٤) SOCRAT. hist. Eccl. V 7; SOZOM. Hist eccl. VIII 8; THEOS. Hist. Eccl. V 8.

الدولة .. والكنيسة

من وجود أسقف آريوسى يحتل المنصب. وهذا شىء بدا واضحاً فى سلوك الأساقفة أثناء انعقاد مجمع القسطنطينية وبعد اعتزال جريجورى، إذ راحوا كلهم يصطرون من حوله^(٥). ولا شك ساعد على هذا أن الفريق النيقى كان يعلم ما يدين به إمبراطور الغرب جراتيان الذى سرعان ما أفصح عن عقيدته بمرسوم التسامح الذى أصدره عقب موت عمه فالنز، من أجل هذا واثت النقيين فى العاصمة الشجاعة فأرسلوا فى استدعاء جريجورى ليكون راعياً لهم. ولما كان بطرس السكندرى، أعلم الناس بحقيقة إيمان إمبراطور الغرب لوجوده قريباً منه فترة ليست بالقصيرة، ولما كان يسعده تماماً أن يرى أحد أنصاره أسقفاً على كنيسة العاصمة الإمبراطورية، فلا بد أن يكون قد شجع ماكسيموس هذا على الارتحال إلى القسطنطينية عله يفلح فى مبتغاه، وقد أثبتت الأحداث صدق ما نذهب إليه.

فما أن جاء ماكسيموس إلى العاصمة حتى وجد جريجورى قد سبقه إليها، وأنه قد حاز شهرة واسعة، وأن النقيين فى المدينة قد التفوا من حوله، لذا لم يجد أمامه من سبيل إلا أن يجعل من نفسه واحداً من رعايا جريجورى، ثم من أصدقائه، ثم من المقربين. ولما كان يعلم محبة جريجورى للرهبانية، فقد راح يمارس رياضة الزهد، فكسب بذلك ثقة جريجورى إلى حد كبير جداً، حتى بلغ الأمر بجريجورى أن يخصص إحدى خطبه لامتداحه والثناء عليه. غير أن ماكسيموس كشف عن حقيقة أمره عقب الهجوم الذى دبرته بلبيل الفرق المسيحية المعادية "للهموسية" على كنيسة أنسطاسيا، فلم يُبد أى امتعاض لما حدث، بل أدرك أنه بهذا الحادث يمكنه تحقيق مأربه، فانتهاز فرصة الغضب والسخط الذى تكنه الفرق الأريوسية لجريجورى، والمرض الذى ألم به على أثر هذا الاعتداء، ودبر مع خمسة من رجال الأكليروس المصريين الذين كان بطرس قد بعث بهم إلى العاصمة، أمر رسامته أسقفاً للقسطنطينية^(٦). بعد أن نجح فى شراء بعض أصوات الدهماء فى العاصمة، وقد تم ذلك حوالى منتصف سنة ٣٨٠ أى قبل قدوم الإمبراطور ثيودوسيوس إليها. غير أن شعب الكنيسة المؤيد لجريجورى ما

(٥) SOZOM. hist. Eccl. VII 7.

(٦) GREG. NAZ. orat. XXXIV; Nicene and p. n. f. VII

أن علم بهذا الأمر في صبيحة اليوم التالي، حتى هاجموا مقر ماكسيموس واكليروسه، واضطروه إلى الفرار خارج العاصمة، فولى وجهه شطر سالونيك حيث يقيم ثيودوسيوس لعل الظروف تسنح له بعرض قضيته عليه، أو لعله يجد عنده ملاذاً (٧). ومن الجدير بالذكر أن استقرار الكنيسة السكندرية خلال القرون من الرابع إلى السابع، يشير صراحة إلى أن عدداً من أساقفتها قد لجأوا في كثير من الحالات لممارسة مثل هذا الأسلوب الذي استخدمه ماكسيموس، ولعل ذلك يعود في المقام الأول إلى إيمان كنيسة الإسكندرية أنها أعلى كعباً من كنيسة القسطنطينية، وأن رجالها أحق من غيرهم باعتلاء كرسيها الأسقفى. وإذا كان جريجورى قد كسب بجهود رعيته النيقية هذه الجولة، فإن الإسكندرية لن تنسى أو تغفر له ذلك. ومن ثم سنجدها تنتهز أول فرصة تسنح لها للانتقام لنفسها. إلا أن هذه الحادثة قد زادت اللاهوتى الكبادوكى رغبة في التخلي عن مهمته في العاصمة والعودة إلى أسقفيته.

غير أن الإمبراطور ثيودوسيوس لم يحقق له هذه الرغبة، على الأقل في المدى القريب جداً، ذلك أنه ما أن عاد إلى القسطنطينية حتى أعلن صراحة عن سياسته العقيدية الممائلة للنيقية، وجاء ذلك في أول تصريح رسمى له (٨). ثم ما لبث أن استدعى إليه أسقف العاصمة الأريوسى ديموفيلوس وطلب إليه العودة إلى "الهوموسية". فلما أبى أقدم الإمبراطور على سحب كنائس المدينة كلها من يد الأريوسيين وسلمها إلى النيقيين، فجمع ديموفيلوس شيعته وقرأ فيهم أية الإنجيل "ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى" (٩). وولى وجهة خارج أسوار القسطنطينية حيث تبعه الأريوسيون، ليمارسوا إلى حين طقوس عقيدتهم، وقد صاحبهم في هذا الخروج لوقا الأسقف الأريوسى طريد الإسكندرية (١٠). واستقدم الإمبراطور إليه جريجورى النازيانزى وأعلنه أسقفاً للقسطنطينية بعد أن تمت

(٧) Nicene and p. n. f. III p. 136, n. 3, col. A; Hefele, op. cit. II p. 341.

(٨) THEOD. Hist. Eccl. V 6

(٩) متى ٢٣/١٠.

(١٠) SOCRAT. Hist. Eccl V 7; SOZOM. Hist. Eccl. VII 5.

رسامته على يد ميلتيوس Meletius الأنطاكي، الذي كان قد شخص إلى العاصمة مبكراً لهذا الغرض^(١١).

هكذا آذنت شمس الأريوسية بالمغرب، بعد أن آمنت بها كل كنائس الشرق سنين عدداً، وخضعت لها كل كنائسه عدد سنين. وتمتعت هي بالسيادة فترة قاربت نصف القرن من الزمان إلا قليلاً. وشغلت فكر وجهد الإمبراطورية كلها قرابة ثلاثة أرباع القرن الرابع الميلادي، ابتداء بالأباطرة ورجال البلاط والدوائر السياسية وثكنات الجنود، وانتهاء برجل الشارع والجموع. ولئن كان الصراع العقدي بين النيقيين والأريوسيين، وهؤلاء الآخرين وأنفسهم، قد أثرى الفكر الإنساني بهذه المباحث الجدلية، إلا أنه أرقق العقيدة من أمرها عسراً، وخرج بها من بساطتها الأولى إلى تعقيدات المدارس الفلسفية اليونانية على اختلاف أفكارها وآرائها وتراث الفكر الشرقي القديم. وبغض النظر عما يقوله مؤرخو الكنيسة وآباؤها في كتاباتهم، فإن النيقيين والأريوسيين على قدر سواء مسيحيون، لمسيحياتهم التي ارتضاها كل لنفسه، مخلصون، يبحثون عن مستقر ومقام على أرض ثابتة يبنون عليها فكرهم. وكل يستمد آراءه ويقدم حججه من آي الكتاب المقدس وتعاليم الآباء^(١٢). وبينما يمثل الهوموسيون الاتجاه المحافظ الذي يخشى

(١١) SOCRAT. hist. Eccl. V 8; THEOD, hist. Eccl. V 8.

(١٢) راجع آراء الأريوسية كما جاءت على لسان أريوس في THEOD hist. Eccl. I 4؛ ورسالة يوسيبوس النيقوميدي إلى باولينوس الصوري في Ibid. I 5 ووثيقة إيمان أريوس SOCRAT. hist. Eccl. I 26 ومراسيم الإيمان الصادرة عن مجمع النكشين الأنطاكي سنة ٣٤١ في

ATHANAS. De Syn. 28; HILAR. De Syn. 29-30.

ومرسوم سيرميوم الثاني الصادر سنة ٣٥٧ في ATHANAS. Ibid. 28; HILAR. Ibid. 11. وآراء آيتيوس السوري في GREG. NYS. Con. Euno., I 6; BASIL. De spir san. II 4; SOCRAT. Hist. Eccl. II 35; SOZOM. Hist. Eccl. II 15, IV 26 وصيغة الإيمان

الهومية التي سادت في (٣٥٩-٣٧٨) في ATHANAS. De Syn. 29. أما عن النيقية فيكفي فقط أن نعود إلى قانون الإيمان للصادر عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ في SOCRAT. Ibid. I. 8; THEOD. Ibid. I. 11 وكذلك خطب أثاناسيوس ضد الأريوسيين

(Nicene and p. n. f. IV pp. 306-447) Orations c. Arianos

فتح باب الاجتهاد وإعمال الفكر في أمور لقيت قبولاً ومصادقة لدى جموع المسيحيين بعامة ابتداء بمجمع نيقية ، فإن الأريوسيين يدعون بحق أصحاب المنهج العقلاني المجتهد الذين يحاولون إرساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية يرتضيها المثقفون ورجال الفكر في زمانهم، وهذا لا ينفي أيضاً أن النيقيين السلفيين جاءت عقيدتهم هم الآخرون في جوهرها مزيجاً بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية والتراث الشرقي منذ أيام كلمنت وأوريجن السكندريين.

ومن هنا لم تجد الأريوسية لها في الغرب صدى، ولم تجد لها أيضاً في الشرق بين البسطاء من يتفهمها، وكانت أشد الجماعات كراهية لها ومقتاً هم الرهبان، سواء في مصر أو فلسطين أو آسيا الصغرى (١٣). ومن ثم انحصرت طيلة فترة سيادتها بين المفكرين وأصحاب الاتجاه العقلي من رجال الاكليروس والعلمانيين على السواء، وكان هذا واضحاً تماماً في المدرسة اللاهوتية الانطاكية، التي ظل تأثيرها باقياً وفعالاً حتى أخريات القرن الخامس الميلادي.

وقد يبدو من غرائب الأمور أن تنتقل الأريوسية بعد زوالها من المجتمع الروماني إلى الشعوب الجرمانية. إذ كيف يمكن لهذه الجماعات التي لم تدرك حظاً من الثقافة، أن تركز إلى الأريوسية التي تتطلب في جوهرها إعمال الفكر؟ غير أن الأمر ليس على هذا النحو من التعقيد . فالجرمان قبلوا الأريوسية لأنها تتفق مع أوليات التفكير الواقعي في الحياة العادية، على النحو الذي بشر بينهم به أولفيلا، والتي هي في الوقت ذاته مبادئ الأريوسية الأصلية التي نادى بها أريوس السكندري سنة ٣١٨، والقاتلة بأن الآب سابق في الوجود على الابن، وأن الله أعظم من الابن، وأن المسيح مخلوق شأن سائر الخلق. ومن هنا، ولهذا المبادئ الأولية البديهية كان إيمانهم بها وحرصهم عليها، رغم وجودهم وسط المجتمع الروماني في الغرب والذي يدين كله بالنيقية.

(١٣) عن أسباب كراهية الرهبان للأريوسية راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة: الجزء الثالث ص ٢٢٩-٢٣٢، ٣٣٠-٣٣٣، وله أيضاً الفكر المصري في العصر المسيحي، الفصلين الثاني والثالث.

وفوق هذا وذاك فإن الآريوسية كانت هي المسيحية التي وجدها الجرمان آنذاك في الإمبراطورية، ولم يرهقوا أنفسهم في البحث وراء أسرار المسيحية والخلافات العقيدية، ومن ثم لا يعدو الأمر ببساطة أن هذه الآريوسية كانت لديهم هي المسيحية فقط.

هكذا لم يكن للآريوسية منذ البداية في الغرب نصيب، لأن الآريوسية بطبيعتها تعتمد الجدل العقلي مدخلاً ضرورياً لمعرفة المسيحية والإيمان بها. وبينما يصير أوغسطين Augustinus أبو الكنيسة اللاتينية في القرن الخامس الميلادي على ضرورة الإيمان أولاً "أومن لكي أفهم"، يقف العقليون في الشرق على الطرف الآخر المضاد، إذ يحكمون عقولهم قبل قلوبهم في مسائل الإيمان، وفي الوقت الذي يعترف فيه هيلاريوس أسقف بواتييه في غالة في القرن الرابع، أنه ظل لمدة ثلاثين سنة بعد مجمع نيقية المنعقد في عام ٣٢٥ لا يعرف شيئاً عن "الهوموسية" (الابن مساو للآب في الجوهر) قاعدة الإيمان الأرثوذكسي للكنيسة الجامعة في الشرق والغرب، ومفتاح باب آتون الصراع اللاهوتي طيلة القرن الرابع، كان آباء الكنيسة الشرقية منذ القرن الثاني وما تلاه يملأون صفحات كتبهم بمسائل عقلانية جدالية حول مكانة الأقنوم الثاني في الثالوث، الكلمة، الابن، ويأتى في مقدمتهم كلمنت وأوريجن وديونيسيوس في الإسكندرية، ولوقيانوس الأنطاكي، وآباء كبادوكيا الثلاثة، جريجورى النازينزى، وجريجورى النيساوى، وباسل القيسارى، ثم يوحنا ذهبى الفم.

وكان هذا أمراً طبيعياً يتمشى واختلاف كل من شطرى الإمبراطورية عن الآخر في النواحي الفكرية والمجالات الثقافية، إذ كان الغرب اللاتينى يفتقر إلى المدارس الفلسفية التى زخر بها الشرق اليونانى، كما أن اللغة اللاتينية لم تكن لها نفس الحيوية والعطاء الذى تميزت به اليونانية، حتى أننا نجد الخلاف العقيدى فى القرن الرابع كله لا يخرج لغة عن حروف معينة تضاف إلى مصطلح "الهوموسية" Homousius أو تحذف منها، لتباعد بين الفرق المختلفة بعدا كبيرا، فـ "الهوموسية" تعنى المساواة فى الجوهر بين الآب والابن، فإذا أضيف إليه حرف "اليوتا" فى اللغة اليونانية (i) لتصبح الكلمة "هومويوسية" Homoiusius انقلب

المعنى إلى "التشابه في الجوهر" وإذا حذف من الكلمة الجزء الأخير وهو مقطع "الجوهر" (ousia) essence أضحي تعبير "الهوموية" Homoeos يعنى "التشابه" فقط بين الآب والابن دون تحديد لماهية هذا التشابه!!

وتجسدت الخلافات رغم كثرتها فى اتجاهين رئيسيين مثلثهما مدرستا الإسكندرية وانطاكية لتفسير الكتاب المقدس، اتخذت الأولى بتأثير أستاذها أوريجن اللاهوت العلمى الأفلاطونى والتفسير المجازى، واختطت الثانية بفكر زعيمها لوقيانوس المنهاج الأرسطى والتفسير العقلى. ولما كان أريوس القس السكندرى، قد تقلد المناصب الكهنوتية الأولى فى الإسكندرية وتأثر بمدرستها، وتلقى تعليمه اللاهوتى فى المدرسة الأنطاكية، فقد جاءت آراؤه اللاهوتية مزيجاً من الفكر الأفلاطونى فى القول باستحالة الخلق المباشر، والمنهج الأرسطى فى المنطق، ولهذا كان من اليسير أن تتقبل الأوساط الكنسية المثقفة فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية هذه الآراء، بينما تمجها دوائر الأكليريوس فى الغرب. وازداد عداؤ الغرب للأريوسية، بعد أن أضيف إلى قانون الإيمان الكنسى فى مجمع نيقية المكسونى مصطلح "الهوموسية" بعد أن ألقى بها هوسيوس القرطبى إلى مسامع الإمبراطور قسطنطين، وهى صيغة كانت مقبولة فى الغرب منذ استخدمها للمرة الأولى الأسقف الرومانى ديونيسيوس فى مراسلاته مع سميّه الأسقف السكندرى فى القرن الثالث، واضطر الأخير إلى قبولها كارها ارضاء لقرينه أسقف روما.

ورغم أن الأسقف السكندرى أثناسيوس لم يذكر هذا التعبير فى أسفاره العديدة خاصة عمله الذى يقترب من الأعمال العقيدية وهو خطبه ضد الأريوسيين Orations contra Arianos إلا مرة واحدة، إلا أنه ظل على ولائه لها طيلة عمره الأسقفى، بل أصبح هو المدافع عنها عندما تحول العالم كله أريوسياً فى عهد قسطنطيوس، وفاء لسلفه الأسبق ديونيسيوس. وكان هذا من بين العوامل الهامة التى زادت الغرب تمسكاً بهذه الصيغة بعد أن لاذ أثناسيوس بحماه أثناء فترة نفيه الثانى، وبعد أن قدر فيه جهاده من أجل الحفاظ عليها. وبالمثل آوى الغرب إليها واطمان بها ولم يجد للتحول عن سنة السلف دافعاً.

لكن الآريوسية فرضت على الغرب بارادة الإمبراطور قسطنطيوس وقرارات مجمعي آزل سنة ٣٥٣ وميلانو عام ٣٥٥. ولم يكن لعقيدة هذه طبيعة انشطارها، أعنى بقرار من الحاكم، أن يقدر لها البقاء في الغرب الذي يكرها قدر جهالته بها وعجزه عن فهم منطق فكرها. ولهذا لم يلبث أن ارتد أساقفة الغرب الذين شهدوا مجمع ريمنى عام ٣٥٩، والذين اقتيدوا إلى التوقيع على قانون الإيمان الآريوسى فى صيغته "الهومية" ارتدوا إلى النيقية حتى قبل أن يوليهم قسطنطيوس دبره متحرفا إلى الشرق.

غير أن إحدى الأسقفيات الهامة فى هذه المنطقة، وهى ميلانو، ظلت على ولائها للآريوسية بفضل وجود أسقفها أوكسنتيوس، وبسبب السياسة التى سار عليها الإمبراطور فالنتينيان الأول بالعزوف كلية عن التدخل فى المسائل الكنسية، واستطاع أوكسنتيوس خلال أسقفية الطويلة (٣٥٥-٣٧٤) أن يجتذب إلى جانب عقيدته عدداً ليس بالقليل من أهالى ميلانو، بل أفلح أيضاً فى أن يضم إلى كنيسة الإمبراطورة جوستينا زوج فالنتينيان الأول، التى تركت تأثيرها واضحاً على ابنها فالنتينيان الثانى الذى أعلن إمبراطوراً شريكاً فى عام ٣٧٥ مع أخيه الأكبر جراتيان بعد موت أبيهما. ومما يدل على كثرة عدد الآريوسيين فى المدينة تلك الاضطرابات التى أعقبت وفاة أوكسنتوس عام ٣٧٤ بسبب استبقاق النيقيين والآريوسيين لاختيار مرشح جديد للأسقفية والتى كانت من نصيب أمبروز.

هذه الخلفية الآريوسية التى كان عليها عدد ليس بالقليل فى ميلانو، دفعت أمبروز بكراهيته للآريوسية أن يبذل جهده قدر استطاعته للقضاء على قلعته الأخيرة فى الغرب، وشجعه على ذلك الاتجاه النيقى المتحمس عند كل من جراتيان وثيودوسيوس وكانا يكتان له الاحترام. غير أن أمبروز اصطدم هنا بالإمبراطورة الأم جوستينا وإبناها الإمبراطور للصبي فالنتينيان؛ فقد طالب الآريوسيون فى المدينة أن تخصص لهم إحدى الكنائس التى كانوا قد طردوا منها، ليقيموا فيها طقوس عقيدتهم، ونقل الإمبراطور هذه الرغبة إلى أمبروز الذى رفض ذلك صراحة على اعتبار أن الآريوسيين خارجون عن الكنيسة الكاثوليكية. وقد تطور الأمر بعد ذلك بناء على تدخل جوستينا إلى محاصرة إحدى الكنائس التى كان يعظ

فيها أمبروز بهدف الاستيلاء عليها، غير أن الجموع النيقية تمسكت بأسقفها، مما أعطاه دافعاً قوياً لتحدى الإمبراطور وأمه التي كانت تحمل للأسقف كل الكراهية، بسبب تدخله المستمر في شئون الإدارة الإمبراطورية والبلاط. إلا أن هذه المحاولة فشلت واستدعى الجنود الذين كانوا يحاصرونها للعودة إلى ثكناتهم.

وكان الإمبراطور قد دعا أمبروز إلى حضور مجلس يعقد في القصر الإمبراطوري، يضم مستشاري الإمبراطور وأوكسنطيوس الأريوسي لبحث هذه المسألة، غير أن الأسقف الميلاني رفض حضور مثل هذا الاجتماع وكتب إلى فالنتينيان رسالة حول هذا الشأن تكشف عن رأيه للمرة الأولى صراحة فيما يتعلق بعلاقة الدولة بالكنيسة، وازدراءه للأريوسية.

وقد حرص أمبروز في رسالته على أن يبين للإمبراطور أنه ليس عاصياً أو متمرداً بحيث يرفض إطاعة الأوامر الإمبراطورية بالحضور إلى هذا المجلس، ولكنه يؤمن إيماناً كاملاً بأنه في المسائل التي تخص العقيدة، فإن أحداً ليس من حقه أن يصدر حكماً أو يجلس منها مجلس القضاء إلا الأساقفة وحدهم، وضرب لهم مثلاً ما فعله أبوه من قبل عندما عرضت عليه مثل هذه الأمور، فأجاب صراحة بأنه ليس من حقه كعلماني أن يتدخل فيما لا يخصه، مشيراً بذلك إلى موقفه من اتحاد الماكيدونيين وأنصاف الأريوسيين، وينبئه إلى أنه ليس من حقه كإمبراطور أن يقدم على ذلك، خاصة وأنه لم يتناول بعد سر العمد، ويعرج أمبروز في حديثه إلى مسألة اختياره من قبل شعب الكنيسة بطريقة شرعية، وكيف صادق أبوه على ذلك وأبدى الإعجاب، ويبدى أسفه على هذا المرسوم الذي أصدره فالنتينيان الثاني، بتأثير من جوستينا والذي يمنح للأريوسيين الحرية في ممارسة عبادتهم وأداء طقوسهم الدينية، واختياره لأوكسنطيوس مستشاراً له وقاضياً في هذه الدعوى، واتهم أوكسنطيوس بأنه لا يصلح إلا أن يكون قاضياً لليهود أو الوثنيين، وكلاهما للمسيح عدو.

وطالب أمبروز الإمبراطور بأن يدعو إلى عقد مجمع كنسي، كما فعل قسطنطين، لمناقشة الأمور الكنسية، فهذا هو مكانها الطبيعي، وأنحى باللائمة على ما حدث في مجمع ريميني من جانب بعض الأساقفة، وهو يعنى بذلك الرد على ما

الدولة .. والكنيسة

أعلنته جوستينا من اعترافها بقانون الإيمان الصادر عن هذا المجمع. ويؤكد أمبروز أنه لا يمكنه عصيان أوامر الإمبراطور ولكنه يعلم أن أكليورسه وشعب كنيسته لن يوافقوه على ذلك ولن يسمحوا له بالحضور، لإيمانهم بأن مشاكل الكنيسة يجب أن تحل داخلها، وبناء على ذلك فإنه على استعداد تام لتقبل أوامر الإمبراطور التي قد تصدر بنفيه وتنفيذها، ولكن ليس قبل أن يتعهد الإمبراطور بعدم تسليم الكنائس إلى الآريوسيين. ولا ينسى أمبروز في النهاية أن يمن على فالنتينيان بما قام به من أجله مبعوثاً إلى ماكسيموس، في معرض حديثه عن عدم خبرته بما جرى وراء أستار القصر الإمبراطوري، وأنه لم يقدم على ذلك إلا من أجل فالنتينيان نفسه.

ولا شك أن محاولات جوستينا من خلال ولدها لإعادة السيادة إلى الآريوسية قد تحطمت تماماً أمام عناد أمبروز وتمسكه بالنيقية، والاتجاه العام في الإمبراطورية الذي جرى به ثيودوسيوس لإقرار هذه الصيغة للإيمان.

وليس أصدق من الوقوف على آراء الأسقف الميلاني أمبروز، وفكره الكنسي عن العلاقة بين الدولة والكنيسة، باعتباره إرهاباً بما سيكون عليه الحال في العصور الوسطى الرئيسية من بعد، عندما يحتدم الصراع سافراً بين البابوية والإمبراطورية في الغرب، على العكس تماماً مما كان حادثاً في الشطر الشرقي على امتداد الزمن بالإمبراطورية الرومانية في شكلها وثيابها البيزنطية، نقول.. ليس أصدق على التعبير عن هذا كله من أن نورد هنا هذه الرسالة التي بعث بها أمبروز إلى فالنتينيان الثاني حول المسألة الآريوسية، وما تضمنته من أفكار وآراء في هذا السبيل الذي عرضنا له، كتب أمبروز يقول:

"من أمبروز الأسقف إلى الإمبراطور الرحيم والأوغسطس المبارك فالنتينيان":

"دعاني دلماتيوس Dalnatus النوتاري، بناء على أوامركم كما أكد لي، وطلب إليّ اختيار عدد من القضاة كما فعل أوكسنطيوس من قبل ولم يعين لي أسماء أولئك الذين يطلبهم، ولكنه أضاف أن هناك نقاشاً يدور في المجلس المنعقد لمناقشة بعض الأمور الكنسية، وأن قراركم سوف يحسم هذا الجدل.

"وحول هذه النقطة بالذات أعتقد أنى قد أعددت رداً معقولاً، لا يمكن لأحد أن يتهمنى بالعصيان إذا ما رحلت أوكد أن أباكم طيب الذكر لم يجب حول هذا الموضوع بمجرد كلمات من فيه، بل أكدها بقوانينه قائلاً: "إنه فى الأمور التى تتعلق بالإيمان أو النظام الكنسى فإنى سوف أقاضى فقط من ثبت عجزه أو عدم صلاحيته، فهذه تعاليم الكتاب، ولذا كانت رغبته أن يختص الأكليروس بمعالجة الأمور التى تهم رجاله، بل فوق هذا وذاك، أنه إذا ما اتهم أسقف فى مسائل أخرى وكانت المسألة الأخلاقية متضمنة فيها، فقد كانت رغبته أيضاً واضحة فى أن تحال هذه القضية إلى حكم الأساقفة.

"من ذا الذى إذن تراه يعصى رحمتكم؟ هل الذى يرغب فى أن تتشبه بأبيك، أو ذاك الذى يريدك أن تخالفه؟ إلا إذا كان قرار ذلك الإمبراطور العظيم يبدو عند البعض غير ذى قيمة، مع أن الإمبراطور قد أفصح عن صدق إيمانه بجدية اعترافه^(١٤)، وتجلت حكمته واضحة فى جهوده المستمرة من أجل ازدهار الدولة.

"أيها الإمبراطور الرحيم متى سمعت أن العلمانيين قد أصدرُوا أحكاماً فيما يتعلق بالأساقفة حول قضية الإيمان؟ وهل بلغنا حد المهانة من جراء تملق البعض ومداهنتهم، إلى درجة التغافل عن حقوق الأكليروس، أو نعطى إلى آخرين ما عهد الله به إلينا، وإذا ما تصادف وتلقى أحد من رجال الدين تعليمه على يد واحد من العلمانيين، من تراه يتبع الآخر؟ فليناقدش العلمانى، وليصغ رجل الدين، وليتعلم هذا من ذاك.. ولكن مع كل ذلك فالذى لا شك فيه أننا سواء تابعنا ما جاء به الكتاب المقدس، أو اقتفينا سنة الأقدمين، فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه فى مسائل الإيمان، وأكررها.. فى مسائل الإيمان، قد استقرت الأعراف بأن الأساقفة هم قضاة الأباطرة، وليس هؤلاء قضاة أولئك.

(١٤) الإشارة هنا إلى عمل من الأعمال التى تمجد فالنتينيان الأول، ذلك أنه بينما كان يقوم على خدمة الإمبراطور جوليان فى معبد الهة الحظ Fortuna أقدم أحد المشاركين على نثر الماء المقدس عليه، فما كان من فالنتينيان إلا أن لكمه بقبضته قائلاً أن هذا الماء يدنس من يلمسه أكثر مما يطهره!! وهذه واحدة من الروايات العديدة التى يضمها كتاب التاريخ الكنسى لسوزوموس الراهب الغزاوى، والتى تتناول المشاعر العامة لدى المسيحية تجاه الإمبراطور جوليان، انظر: SOZOM. Hist. eccl. VI 6.

"ولسوف تبلغ بفضل الله سن النضوج الكامل، وعندها سوف تقرر أى نوع من الأساقفة يمكن أن يسلم حقوق الأكليروس إلى العلمانيين. لقد اعتاد أبوك، الذى أوتى الحكمة بفضل الله، أن يقول: ليس مما يدخل فى دائرة اختصاصى أن أقضى بين الأساقفة.. ولكنك الآن تقول: يجب أن أقضى بينهم. وبينما كان والدكم، رغم أنه تعمد فى المسيح، يعتقد أنه ليس أهلاً لتحمل عبء مثل هذا القضاء، فكيف تبيع لنفسك وأنت لم تتل بعد لنفسك سر العماد، ادعاء حق القضاء فيما يتعلق بأمور الإيمان، رغم أنك مازلت تجهل سر ذاك الإيمان.

"وبمقدورى أن أتصور أى نوع من القضاء يقع عليهم اختياره مادام يخشى حتى الآن نشر أسمائهم. ألا فليأتوا إلى الكنيسة، وليستمعوا مع الجموع لا إلى أى شخص يجلس فى مقعد القاضى، بل إلى ذاك الذى يجب أن تختبر فطرته، ويختاروا أيهما أحق بالاتباع. أن المسألة تخص أسقف تلك الكنيسة وحده، فإذا ما أصغى الناس إليه واعتبروه خير من يصلح للحوار، فليتبعوه، ولن تتملكى الغيرة ولو للحظة.

"ولقد أسقطت من قولى أن الجموع نفسها قد نالت حقها فى إعطاء قرارها، وصمت عن الحقيقة الذائعة بأنهم قد التمسوا من أبيك من هو الآن راعيهم^(١٥). وسكت تماماً عن وعد أبيك من أنه إذا ما ارتضى ذلك الذى اختير للأسقفية هذا الاختيار، فلسوف تشهد الأسقفية هناك الأمان والسلام.. وها أنا الآن أتخذ سبيلي بمقتضى الإيمان بهذه العهود.

"ولكن إذا ما راح هذا يتباهى باستحسان بعض الغرباء له، فليكن إذن أسقفاً لأولئك الذين ظنوا أنه يجب أن يحمل لقب الأسقف، ذلك أنى لن أعترف به أسقفاً أبداً ولا هو أنى جاء.

"وكيف نقر أيها الإمبراطور أمراً، أصدرت أنت فيه بالفعل حكمك، بل وسنت له القوانين^(١٦)، ترى هل يجوز لأحد من بعد أن يرى فيه عكس ما رأيت؟ ولا ريب فأنت عندما تضع للآخرين قانوناً، فإنك بالتالى تسنه لنفسك أيضاً، ذلك أن

~(١٥) يشير أمبروز إلى مسألة اختياره.

(١٦) وهو القانون الذى صدر فى صالح الأريوسيين والذى يسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وكان هذا بتأثير من جوستينا. SOZOM. Hist. Eccl. VII 13

الإمبراطور هو أولى الناس باتباع القوانين التي يصدرها . وبعد، فهل تريدني أن أخمن كيف يمكن لهؤلاء الذين اختيروا قضاء، أن يتصرفوا بصورة مخالفة لقرارئك؟ أو على الأقل يقدمون اعتذارهم معللين ذلك بأنهم لا يستطيعون الوقوف ضد مثل هذا القانون المجحف أو الصارم الذي أصدره الإمبراطور؟

"ولكن هذا سوف يعد خروجاً على القانون، وليس عملاً يصدر عن إنسان يعرف قدره. ولكن ألا ترى أيها الإمبراطور أن ما ظننته إلغاء جزئياً لقانونك، إنما هو في حقيقته إلغاء للقانون كله لأنني لا أتمنى أبداً أن يعلو قانونك فوق قانون الله، ذلك أن القانون السماوي يعلمنا ما يجب اتباعه، أما القوانين الوضعية فلا توقفنا على شيء من ذلك. فهذه تبتغي التغيير بدافع الخوف، ولكنها لا يمكنها أن تلهم الإيمان.

"من تراه إذن قادراً على أن يعلن منفرداً أو وسط جماعته في وجه الإمبراطور، أنا أرفض مشيئتك؟ وذلك عندما يقرأ أن الأوامر قد صدرت بأن من يتصدى للإمبراطور سوف تحتز رأسه، وأن من يبغض معبد الرب سوف يلقي عقوبة الموت. لقد حرم على رجال الدين أن يقولوا ذلك، فهل ترى أحداً من العلمانيين على ذلك بقادر؟ وهل يقف إلى جانب الإيمان من يؤمل في حسن الجزاء أو يخاف سوء المنقلب؟

وأخيراً.. أتراني إذا استطعت الإقدام على اختيار علمانيين لمناصب القضاء، فمن ذا الذي يمكن، إذا ما أيد هؤلاء صدق إيمانهم هم، أن يتعرض للنفي أو الإعدام، حيث أن القانون قد جاء في صالح قوانين الإيمان. وهل يمكنني بعد ذلك أن أعرض بهؤلاء الرجال سواء بالتكر للإيمان أو باستحقاقهم العقاب؟

"ويمضي الأسقف قائلاً...

"إن أمبروز ليس على قدر من الأهمية كبير بحيث يمكنه الخط من شأن الكهانة من أجل مصلحته الخاصة، ولا تمثل حياة فرد قيمة ما بالقياس إلى كرامة كل الأكليروس الذي من خلال مشورته أعطيت تلك التوجيهات، خاصة عندما أبلغوني أنه من المحتمل أن يتم اختيار نفر من الوثنيين أو اليهود عن طريق أوكسنتيوس، بحيث يصبح من الممكن إعلاء قدرهم على قدر المسيح إذا ما عهدت

إليهم بمعالجة أمور تخص المسيح. أى شيء إذن يمكن أن يدخل السرور على قلوبهم أكثر من رؤية المسيح يهان؟ أى شيء يمكن أن يغمرهم بالسعادة إلا أن تتكرر ألوهية المسيح؟ لقد أعلنوا بكل وضوح اتساقهم مع ذلك الأريوسى الذى ينادى بأن المسيح مجرد مخلوق وهو الشيء يبدى الوثنيون واليهود استعدادهم الكامل للاعتراف به.

"ولقد تقرر هذا من قبل فى مجمع ريميني ، والحق أنى أعلنت بغضى لهذا المجمع، معلناً اتباعى لإيمان نيقية الذى لا يمكن أن ينتزعنى منه موت أو سيف، ذلك الإيمان الذى ارتضاه وآوى إليه كل من أبيكم والإمبراطور الوريث ثيودوسيوس، ولقد آمن الغال بهذا المعتقد وكذا أسبانيا، وحافظوا عليه مع الاعتراف الصادق بالروح القدس.

"وإذا كان هناك أى شيء تجب مناقشته، فقد تعلمت أن يتم ذلك داخل الكنيسة كما كان يفعل أسلافنا. وإذا كان لابد من عقد اجتماع لمناقشة أمر يتعلق بالإيمان فمن الأحرى أن يتولى ذلك مجمع الأساقفة، كما جرى العرف به زمن قسطنطين، الأمير المجد الذكر، الذى لم يصدر أى قانون مسبق، بل ترك القرار الفصل للأساقفة^(١٧)، وهكذا فعل قسطنطيوس طيب الذكر، الذى ورث عن أبيه المجد والكرامة. وما حدث فى البداية انتهى بصورة مغايرة تماماً وإلى الأفضل، ذلك أن الأساقفة وقعوا أولاً مرسوماً للإيمان صادقاً، فلما أغرى بعضهم بمناقشة بعض الأمور المتعلقة بالإيمان داخل القصر، تصوروا أن تلك القرارات التى صدرت عن الأساقفة سوف تتغير وتستبدل تحت وطأة الخوف، غير أنهم سرعان ما شجبوا تلك الصيغة الزائفة، والأمر الذى لا شك فيه أن غالبية أعضاء مجمع ريميني قد ارتضوا قانون الإيمان النيقى وأدانوا الصيغ الأريوسية.

"ولو افترضنا أن أوكسنطيوس قد التجأ إلى مجمع محلى بغية مناقشة نقاط تتعلق بالعقيدة "وأن كان من غير الضرورى لنقال كواهل الأساقفة وازعاجهم من

(١٧) لا شك أن ما يقوله أمبروز هنا بعيد عن الحقيقة، ذلك أن قسطنطين ساق الأساقفة فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ على حد تعبير يوسيبوس للتوقيع على قانون الإيمان بعد الإضافات التى أدخلت عليه، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، الفصل الخامس.

أجل رجل واحد، حتى لو كان ملكاً قد هبط من السماء، وذلك أنه ليس من الواجب تفضيله على سلام الكنيسة، فإننى عندما أعرف هذا، فإننى أعلن أنا الآخر رفضى لذلك. فلتقدم إذن على إلغاء القانون إذا ما كانت الرغبة تحدوك فى إثارة الجدل.

"ولسوف أمثل بنفسى أيها الإمبراطور إلى مجمعك الأسقى، ولسوف أقدم هذه الملاحظات فى حضرتك، إذا ما سمح لى أكليروسى أو رعيتى، ولكنهم يعلنون أن الأمور التى تخص العقيدة يجب أن تعالج فى الكنيسة وفى حضرة شعبها.

"وإن الأمل ليحدونى أيها الإمبراطور أن لا تصدر قراراً بنفى إلى حيث أريد أننا، فأنا أتغرب كل يوم ولا أحد يحرسنى، بل أفضل أن تحدد أنت لى المكان الذى تريده لى منفى، فلقد أعددت نفسى لكل الاحتمالات، غير أن الأكليروس يخاطبنى الآن قائلاً: "ليس هناك خلاف كبير فى أن تترك مذبح المسيح بمحض اختيارك أو أن تسلمه، لأنك إذا ما هجرته فإنك بالتالى تخون عهده.

"ولعلى أود فقط أن يكون مؤكدا لى أن الكنيسة لن تخضع بصورة ما للأريوسيين، عندها سوف أقدم نفسى بملء إرادتى لتكون طوع إرادتك. وإذا كنت وحدى فقط المتهم بإثارة الفوضى، فلماذا إذن هذه الأوامر الخاصة بغزو كل الكنائس الأخرى؟ إن كل ما أتمناه أن لا يُعكّر صفو سلام الكنائس، وبعدها لن أفرع لى حكم قد يصدر ضدى.

"والآن.. أرجو أن تتعطف أيها الإمبراطور فتقبل العذر الذى من أجله لم أستطع القدوم إلى هذا الاجتماع الكنسى، فلم يعرف عنى أبداً أنى حضرت مثل هذه الاجتماعات إلا من أجلك فقط^(١٨)، وليست لدى القدرة على الجدل داخل جدران القصر، فأنا لا أعرف ولا حتى أرغب فى معرفة ما يجرى وراء أستار هذا القصر"^(١٩).

على هذا النحو راح أمبروز ينافح عن النيقية فى الغرب، أما فى النصف الشرقى" فإن الإمبراطور ثيودوسيوس حرص على أن يضمن لها السيادة، ومن ثم

(١٨) يشير هنا مرة أخرى إلى خدماته السياسية التى قام بها من أجل الإمبراطور.

AMB. Ep. XXXI (١٩)

فقد وجه الدعوة على الفور لعقد مجمع فى القسطنطينية يضم كل أساقفة الأقاليم الواقعة تحت سلطانه، خاصة وأن جماعة "الماكدونيين" التى دخلت فى اتحاد مع "الهوميوسيين" (أنصاف الأريوسيين) فى أوائل عهد الإمبراطور فالنتينيان الأول، قد عادت من جديد تحاول إثبات وجودها مرة أخرى على المسرح العقائدى، وذلك فى الفترة التى خلا فيها عرش القسطنطينية من إمبراطور يعتليه. وكان ماكيدونيوس Macedonius الذى اشتقت الطائفة منه اسمها، هو أحد رجالات الأريوسية فى القسطنطينية، ولم يلبث أن أصبح أسقفاً للعاصمة بعد وفاة يوسيبوس النيقوميدى سنة ٣٤١، واستمر فى منصبه حتى عام ٣٤٦ ثم عزل منه على أثر الضغط الذى تعرض له الإمبراطور قسطنطيوس من قبل أخيه قنسطانز، للعفو عن النيقيين وعلى رأسهم الأسقف السكندرى أثناسيوس. غير أنه لم يلبث أن عاد إلى كرسيه عام ٣٥١ عقب مقتل قنسطانز وانفراد قسطنطيوس بالإمبراطورية، وظل يترجع على كرسي العاصمة حتى تم إقصاؤه عام ٣٦٠ بعهد أن رفض التخلي عن إيمانه بالهوميوسية، عقيدة أنصاف الأريوسيين، والقائلة بالتشابه فقط، وهى التى غدت المسيحية الحكومية كما علمنا من قبل.

ولما كان ماكيدونيوس ينتمى إلى أنصاف الأريوسيين فكراً، وهم الذين لم يبتعدوا كثيراً عن آراء أريوس ويوسيبوس النيقوميدى، مؤسسى الأريوسية الأصلية، فقد راح يعمل فكره أيضاً فى مسألة الأقيوم الثالث، وهو الروح القدس، ووجد قانون الإيمان النيقى يقدم له السبيل إلى ذلك. فالقانون النيقى لم يكن صيغة جامعة مانعة، ولكنه جاء رداً فقط على الآراء الأريوسية، وجاء تجميعاً يضم إيمان كنيسة قيسارية فلسطين، والعبارات التى أضافها الإمبراطور قسطنطين بوحي من مستشاره للشئون الدينية هوسيوس القرطبي، مما جعل الإمبراطور يتوهم أنه جمع الشرق والغرب. على كلمة سواء، حتى يجنب دولته شراً مستطيراً، ولذا فتح الباب على مصراعيه أمام هذا الجدل اللاهوتى الذى ثار من حول الأقيوم الثانى، الإبن. ولما كان هذا القانون لم يتضمن شيئاً صريحاً وتفصيلاً عن الروح القدس، سوى عبارة "ونؤمن بالروح القدس" فإن ماكيدونيوس، متأثراً بالفكر الأريوسى عن خلق المسيح، قال هو الآخر بخلق الروح القدس، وشايعه نفر ليس باليسير، خاصة

الأسقفيات الواقعة في منطقة الهلسبون، وعرفوا بـ "الماكيدونيين" ونعتهم خصومهم من النيقيين بـ "المجذفين على الروح القدس" أو أعداء الروح القدس". Pneumatomachi ولئن كان الماكيدونيون قد عادوا فانضموا إلى أصولهم الأولى، أنصاف الأريوسيين، إلا أنهم عادوا الآن سيرتهم، وميزوا أنفسهم ثانية بالماكيدونيين، بعد أن أيقنوا أن شمس الأريوسية إلى أفول، من أجل هذا كانت الماكيدونية من أهم الموضوعات العقيدية التي طرحت على بساط البحث في مجمع القسطنطينية.

دعا ثيودوسيوس أساقفة الكنائس الخاضعين لسيادته لعقد هذا المجمع، وفي مايو ٣٨١ توافد على القسطنطينية مائة وخمسون أسقفًا يمثلون مختلف الكنائس الشرقية، ولم يحضره أحد من أساقفة الكنيسة الغربية لا بصفتهم الشخصية، ولا بممثلين عنهم، وكذلك كان الحال مع الأسقف الروماني داماسوس^(٢٠). وإن كان البعض يحاول أن يجعل من أسقف روما الداعية الرئيسي لهذا المجمع، ويستندون في ذلك إلى الرسالة التي بعث بها داماسوس إلى ثيودوسيوس^(٢١). غير أن هذه الرسالة تتعلق بمجمع آخر عقد بالقسطنطينية في السنة التالية (٣٨٢). ومن اليسير دحض هذه الدعوى على اعتبار أن الأسقف الروماني نفسه لم يحضر هذا المجمع بشخصه أو حتى بمندوبين عنه، كما أن الأساقفة الذين شهدوا المجمع لم يكن من بينهم أحد من الأكليروس الغربي، يضاف إلى ذلك أن داماسوس يخضع من الناحية الرعوية للإمبراطور جراتيان، ومن ثم فليس من حقه كنسيا أن يوجه الدعوة لعقد مجمع يضم أساقفة الكنيسة الشرقية يعقد في القسطنطينية. وفوق كل هذا فإن القضايا المطروحة أمام المجمع كانت تخص الشرقي في جوهرها، وكان من أهمها الإجهاز على الأريوسية، وصورتها الجديدة المتمثلة في الماكيدونية. والغرب لا يعاني بطبيعته من هذا الصراع. ويحسم هذا الأمر ما جاء على لسان الأساقفة في رسالتهم التي بعثوا بها إلى ثيودوسيوس عند انتهاء أعمال المجمع، فقد جاء في ديباجتها: "تلبية لدعوتكم التأم في القسطنطينية جمعنا"^(٢٢).

THEOD. Hist. Eccl. V. 7, 8. (٢٠)

Hefle, op. cit. II p. 342; Percival, The seven ecumenical councils, p. 162. (٢١)

SOZOM. Hist. Eccl. VII 9. (٢٢)

وقد أدت سمة المجمع على هذا النحو إلى إثارة الجدل حول كونه مسكونياً. غير أن هذه القضية حسمت من البداية لصالح المجمع، بإدخاله في عداد المجمع المسكونية السبعة التي تعترف بها الكنيسة الشرقية، وإذا كان ثيودوسيوس، كما يقول Hefele قد أراده من البداية مجعاً عاماً، خاصاً بأساقفة الشرق وحدهم، ولم يردده مسكونياً^(٢٣). فإن الكنيسة بعامة قد اعتبرته المجمع المكسونى الثانى، بعد المجمع الأول الذى التقى فى نيقية عام ٣٢٥ على عهد الإمبراطور قسطنطين، بل إن هذا المجمع الأخير نفسه لم يكن يضم بين أعضائه البالغ عددهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً إلا ثمانية أساقفة فقط من الغرب، لم يكن الأسقف الرومانى أحدهم. ومع ذلك فقد اعتبر أول المجمع المسكونية. ولعل الأمر فى نظرنا يتعلق بمسألة العقيدة، إذ أن المجمعين اتفقا على قضية واحدة هى إدانة الأريوسية والتصدى لها، وذلك مما يدعم وحدة الكنيسة الجامعة. ومن الجدير بالذكر أن المجمع المسكونية الخمسة الباقية، والخاصة بالكنيسة الشرقية، كانت تضم فقط أساقفة الشرق، خاصة بعد أن زادت الهوة اتساعاً بين الشرق والغرب، فى أعقاب سقوط ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية فى أيدي الجرمان، وقيام دويلات جرمانية مستقلة هناك^(٢٤).

وفى الرسالة الصادرة عن مجمع القسطنطينية فى عام ٣٨٢، والموجهة إلى داماسوس، يصف أساقفة هذا المجمع، الذى عقد فى السنة السالفة، بالمسكونية^(٢٥). وعلى الرغم مما لقيته القرارات التنظيمية الصادرة عن المجمع من إعراض من جانب بابوات روما، ليو الأول (٤٤٠-٤٦١) وجريجورى الأول (٥٩٠-٦٠٤) واعتراف كنيسة روما فقط بقانون الإيمان الذى اتفق عليه المجمع، إلا أن تسميته

Hefele, op. cit. II p. 342. (٢٣)

(٢٤) تجدر الإشارة إلى أنه كان هناك رسل لأسقف روما فى المجمع المسكونى الرابع الذى التأم عقده فى خلدونية سنة ٤٥١، أما فى المجمع المسكونى الخامس الذى عقد سنة ٥٥٥ على عهد الإمبراطور جوستينيان فى القسطنطينية، فإن الأسقف الرومانى فيجيليوس كان موجوداً بالعاصمة آنذاك، لا لحضور المجمع، ولكنه جىء به منذ عام ٥٤٨ بأمر من جوستينيان وبقي

سجيناً فى العاصمة. انظر: Jones, L.R.E. I pp. 219-221, 296-298.

THEOD. Hist. Eccl. V 9. (٢٥)

بالمجمع المسكونى الثانى بقيت علماً على قوانينه ، ولقيت قبولاً فى أنحاء العالم المسيحى (٢٦).

وقد حضر المجمع عدد من رجالات النيقية الشهيرين، مليتيوس الأنطاكي، وتيموثى السكندري^(٢٧). Timothius وكيرلس Cyrillus الأورشليمي، وجلازيوس Gelasius أسقف قيسارية فلسطين، وأسخوليوس Ascholius أسقف سالونيك، وهللاديوس Helladius أسقف قيسارية الكبادوك الذى خلف باسل الكبير، وجريجورى النازيانزى أسقف القسطنطينية، وجريجورى النيساوى، وبطرس أسقف سيواس Sebaste وأمفيلوخوس Amphilochius أسقف قونية Iconium وأوبتيموس Optimus أسقف انطاكية بيسيديا، وديودوروس Diodorus الطرسوسى، وبلاجيوس Pelagius أسقف اللاذقية Laodicea ويولوجيوس Eulogius الرهاوى، وأكاكيوس Acacius أسقف حلب Beroea وايزيدور Isidore أسقف Cyrus فى سوريا وغيرهم^(٢٨). وفى الوقت ذاته حرص ثيودوسيوس على دعوة الماكيدونيين، مؤملاً ضمهم إلى صفوف النيقية، بينما حرص الماكيدونيون على حضوره بصورة أشد رغبة فى كسب عدد من الأساقفة الآخرين إلى جانبهم، وكان عددهم ستة وثلاثين أسقفا معظمهم من الهللسيونت، وعلى رأسهم الليوزيوس Eleusius أسقف كيزيكوس Cyzicus على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة Marmora ومارقيان أسقف لامبساكوس Lampsacus^(٢٩).

ويبدو أن الإمبراطور ثيودوسيوس قد بذل - على حد قول سقراط^(٣٠). مع أساقفة المجمع، جهداً كبيراً لإقناع الماكيدونيين بالعدول عن آرائهم والعودة إلى دائرة الإيمان النيقى، خاصة وإنهم، كما أوضح لهم المجمع، كانوا قد دخلوا قبل

(٢٦) عن الخلافات التى أثرت حول مسكونية المجمع راجع.

Hefele, op. cit II pp. 370-374; Percival, op. cit. p. 162.

(٢٧) كان بطرس أسقف الإسكندرية قد مات فى أوائل عام ٣٨١ قبل انعقاد المجمع، وقد أدى ذلك إلى وصول وفد مصر برئاسة تيموثى الأسقف الجديد، إلى المجمع متأخراً.

(٢٨) SOCRAT. Hist. Eccl. V8; SOZOM. Hist. Eccl.; VIII 7; THEOD. Hist. Eccl. V8

(٢٩) SOCRAT. Loc. Cit.; THEOD. Loc. cit

(٣٠) SOCRAT. Loc. Cit.

ذلك في شركة النيقية مع ليبيريوس أسقف روما^(٣١). غير أن الماكيدونيين أصروا على موقفهم، وزاد الأمر تعقيداً أن خلافهم مع النيقيين لم يعد قاصراً حول "هوموسية" الابن، بل تعداها إلى "الهوموسية" الخاصة بالروح القدس^(٣٢). ومن ثم فقد انسحبوا من القسطنطينية وكتبوا إلى أنصارهم في كل منطقة الهللسبونت يطلبون إليهم عدم الدخول في شركة النيقيين والبقاء على إيمانهم^(٣٣). وقد لعب جريجورى النازيانزى دوراً كبيراً في هذا الحوار الذى جرى مع الماكيدونيين حول القول بخلق الروح القدس، إلا أن ذلك لم يزدهم إلا تمسكاً بعقيدتهم^(٣٤).

وكان أول عمل أقدم عليه المجمع هو اختيار أسقف للقسطنطينية، وقد ناقش المؤتمر موضوع رسامة ماكسيموس الكلبى السكندرى الذى جرى من قبل بيد بعض رجال الاكليروس المصرى، الذين بعث بهم بطرس أسقف الإسكندرية الراحل، وقد أعلن المجمع رفضه لهذه الرسامة واستنكاره إياها، وأن كانوا لم يروا

(٣١) شكل الماكيدونيون وأنصار الأريوسيين جبهة واحدة، وسعوا لدى فالنتينيان الأول أملاً فى الحصول على تأييده، على النحو الذى بينا فى الفصل الأول. فلما أخفقوا معه عقدوا مجعاً فى لامبساكوس على الهللسبونت فى خريف عام ٣٦٤، استمرت جلساته شهرين، وقرروا فيه رفض الهوموية "التشابه" والعودة إلى الهومويوسية (التشابه فى الجوهر). ولما حاولوا الحصول على تأييد فالنز، لم يكن حظهم بأسعد منه مع أخيه، بل قام بنفى مندوبيهم. ولذا حاولوا من جديد التقرب إلى فالنتينيان، فشكّلوا وفداً من يوستاتيوس أسقف سيواس، وسيلفانوس أسقف طرسوس، وزودوا الوفد بنصائح تدعوه للجوء إلى أسقف روما ليبيريوس إذا دعت الضرورة لذلك، والدخول فى شركته إذا لزم الأمر، إذ كانوا يرون فيه لين جانب بعد أن وضع توقيعهم على مرسوم سيرميوم الأريوسى، وكان ذلك تحت ضغط من الإمبراطور قسطنطيوس، ولكنه منذ عاد من منفاه وخاصة بعد وفاة قسطنطيوس أعلن جهاراً ندمه على ما قدمت يداه، وتمسكه بالإيمان النيقى. وبالفعل لم يتمكن الوفد من لقاء الإمبراطور، فارتحل إلى روما وقدم للأسقف الرومانى وثيقة إيمان تعلن اعترافهم بالنيقية، ثم اتجهوا إلى صقلية وعقدوا مجعاً مع أساقفة الجزيرة أكدوا فيه ما سبق أن أعلنوه فى روما. غير أن نفراً من الماكيدونيين رفض هذا الاعتراف وظل على ولائه لعقيدته حتى وقعت أحداث المجمع المكسونى الثانى. راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ص ٤٧٩-٤٨١، ص ٤٨٧-٤٩٤.

Hefele, op. cit. II p. 348. (٣٢)

SOCRAT. Hist. Eccl. V 8. (٣٣)

GREG. NAZ. Orat. XLI 6-7, 9-12. (٣٤)

ضرورة لتوقيع أية عقوبة على كنيسة الإسكندرية بعد أن مات بطرس. وقد جاء في القانون الرابع الصادر عن المجمع ما نصه "فيما يتعلف بماكسيموس الكلبي، والفوضى التي أحدثها في القسطنطينية، نعلن أن ماكسيموس لم يكن في يوم ما أسقفًا، وليس الآن، وكل من رسمهم، وكل ما تم على يديه باطل"^(٣٥). وأعلن المجمع بعد ذلك اختيار جريجورى النازيانزى أسقفًا للقسطنطينية، وذلك بعد جهود كثيرة بذلها الإمبراطور ثيودوسيوس وعدد من الأساقفة في مقدمتهم مليتيوس الأنطاكي الذي كان يترأس الجمع، ذلك أن جريجورى أبدى عدم رغبته في ذلك، غير أنه أمام هذه الجهود لم ير بدا من قبول هذا المنصب، فقام مليتيوس الأنطاكي وعدد من أساقفة المجمع بالاشتراك في إجراءات ترسيمه، وأبدى الإمبراطور ثيودوسيوس استحسانه لهذا الإجراء، ولم يلبث الأسقف الأنطاكي العجوز أن مات، فخلفه جريجورى النازيانزى في رئاسة المجمع^(٣٦).

وكان موت مليتيوس فاتحة باب للصراع الذى اندلع فى المجمع بحيث لم يتمكن جريجورى من السيطرة عليه، ذلك أن وفاة الأسقف الأنطاكي أثارت من جديد مشكلة الشقاق الحادث فى أنطاكية منذ فترة طويلة بين النيقيين الأصليين اليوستانيين والنيقيين المعتدلين المليتيين. ولما كانت غالبية المجمع تخالف جريجورى النازيانزى الرأى، وتأخذ فى الوقت ذاته سبيلاً يزيد من حدة الشقاق فى أنطاكية^(٣٧). فقد أثر أسقف القسطنطينية ورئيس المجمع الانسحاب بهدوء من جلسات المجمع، بل لقد امتنع عن ممارسة مهام منصبه الكهنوتية، وزاد إصراره هذه المرة على العودة إلى بلده ثانية. وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير وصول وفد كنيسة الإسكندرية تحت رئاسة تيموثى الذى تم اختياره مؤخراً خلفاً لبطرس، ولم يكن تيموثى قد نسى ما حدث من إهانة للإسكندرية على يد رعية جريجورى النازيانزى، عندما أقدموا على طرد مرشح الإسكندرية ماكسيموس، وما كان من أمر تأكيد هذه الإهانة من جانب أساقفة المجمع بقانونهم الرابع

(٣٥) Hefele, op. cit. II p. 359; Percival, op. cit. p. 179.

(٣٦) SOZOM. Hist. Eccl. VII 7.

(٣٧) انظر الفصل الرابع.

واختيارهم لجريجورى أسقفاً للعاصمة. ومن ثم فقد أعلن الوفد السكندرى لحظة وصوله رفضه الموافقة على اختيار جريجورى لكرسى القسطنطينية الأسقفى، وأيدوا فى الوقت ذاته الاتجاه الذى ساد المجمع فيما يتعلق بمشكلة أنطاكية، خلافاً لما كان يرتئيه جريجورى النازيانزى^(٣٨)، واحتج الوفد السكندرى بأن ما جرى من اختيار جريجورى يعد خروجاً عن القوانين الكنسية التى تحرم انتقال أسقف من كنيسة إلى أخرى، وما جاء بهذا الخصوص فى القانونين الخامس والسادس لمجمع نيقية^(٣٩).

غير أن هذه "التصرفات" من جانب الأسقف السكندرى كانت فوق احتمال كثير من الأساقفة "الأجلاء" حضور المجمع، مثل هلاديوس القيسارى الكبادوكى، وجريجورى النيساوى، وأمفيلوخىوس، وأبثيموس، وديودوروس، وبلاجيوس، ويولوجيوس، وكيرلس وجلازيوس، فعزلوا أنفسهم عن الاكليروس السكندرى وانضموا إلى جانب جريجورى وأعلنوا شرعية اختياره وقوامة رسامته^(٤٠). إلا أن أسقف القسطنطينية بما جبل عليه من لين جانب منذ البداية، ودمائة خلق، أثر الانسحاب وأوصى المؤتمرين باختيار أسقف جديد فى العاصمة، ولم يفلح معه هذه المرة رجاء كثير من أشياعه أو جهود الإمبراطور ثيودوسيوس، الذى لم يجد فى النهاية بدا من الاستجابة لرغبة أسقفه، وودعه برسالة تحمل الاعزاز له والجسرة والأسى على تخليه عن منصبه^(٤١). ويبدى سوزوموس إعجابه بخلق جريجورى وتعلقه بقوله "إن فصاحته وإيمانه لم يدفعانه إلى الغرور والتعالى والتمسك بالأسقفية فى العاصمة"^(٤٢). لكن الذى يدعو للدهشة حقاً أن الكثيرين من صغار الأساقفة بعضهم نفر من الشيوخ، حضور المجمع، لم يكن موقفهم من جريجورى

SOZOM. Ioc. cit (٣٨)

Hefele, op. cit., I pp. 381-392. (٣٩)

THEOD. Hist. Eccl. V 8. (٤٠)

Id. (٤١)

SOZOM. Hist. Eccl. VII 7. (٤٢) وقد عاد جريجورى إلى بلدته نازيانزا برعى شئون الكنيسة

بها ، حتى تم اختيار يولاليوس Eulaius أسقف لها، فانسحب إلى أريانسوس Ariansus حتى

مات فى عام ٣٩١. انظر Nicene and p. n. f. VII pp. 198-199.

يتفق ومكانته وسعة معرفته وعلمه، ولذا أبدوا على الفور ترحيبهم باستقالته، بل وربما سعادتهم واغتيابهم بذلك^(٤٣). ودخلوا مباشرة فى إجراءات اختيار أسقف جديد للعاصمة خلفاً له. ويبدو أنهم كانوا يكتنون له الحقد لمكانته العلمية ومعرفته اللاهوتية التى تتضاءل إلى جوارها أشخاصهم، بالإضافة إلى موقفه المعارض لهم بخصوص النزاع الأنطاكي، وتأييده إياهم لمحاولاتهم توسيع هوة هذا الشقاق. وكانت هذه هى السمة التى سادت كثيراً من فترات النزاع الكنسى خلال تلك القرون، فلم تكن مسألة العقيدة إلا رداءً يستتر به الأساقفة فقط، بينما كانت معظم صراعاتهم حول مصالح شخصية بحتة، وما حدث فى مجمع نيقية ليس عناً ببعيد، عندما أقدم قسطنطين على إحراق كل شكايات الأساقفة ضد بعضهم بعضاً، بعد أن هاله حجمها، وانصرف رجال الدين عن مناقشة أمور العقيدة إليها!!

والمتتبع للتاريخ الكنسى يدرك للوهلة الأولى أن ما فعله الأسقف السكندرى تيموثى لم يكن سابقة ولا غريباً عن سلوك أساقفة الكنيسة. السكندرية تجاه القسطنطينية طوال القرون من الرابع إلى السابع، فبطرس الذى خلف أثناسيوس كان هو الذى دفع ماكسيموس الكلبى إلى إحداث هذه الاضطرابات التى تحدثنا عنها منذ قليل فى القسطنطينية، بغية القفز على عرشها الأسقفى، وتيموثى يواصل الآن سقيا غرس زرعه سلفه، فلما وجد الأبواب موصدة أمام اعتلاء صنيعته ماكسيموس كرسى العاصمة الأسقفى، سعى جهده كى يهز قوائم هذا الكرسي تحت من يعتليه، اللاهوتى الكبادوكى الأشهر.. جريجورى النازيانزى، خاصة وأن هذا كان صاحب شهرة ذائعة فى مجال الدراسات اللاهوتية لم يستطع الأسقف السكندرى تيموثى ساعتها أن يدانيه فيها، وسوف نشهد من بعد ما سوف يفعله رجل الإسكندرية "ثيوفيلوس" Theophilus مع رجل القسطنطينية "يوحنا ذهبى الفم" Ioannes Chrysostomus فى مطلع القرن الخامس الميلادى، وما كان من أمر "كيرلس" Cyrillus السكندرى مع "نسطوريوس" Nestorius بطريرك العاصمة الإمبراطورية فى ثلاثينيات القرن نفسه، وما حدث فى سبعينيات هذا القرن أيضاً إبان الصراع المحتدم بين الإمبراطورين "زينون" Zeno و"باسيلسكوس"

(٤٣) SOZOM. Hist. VII 7; Hefele, op. cit. II p. 347.

الدولة .. والكنيسة

Basiliscus من محاولات الأسقف السكندري عزل الأسقف القسطنطيني وترسيم واحد من رجالات الإسكندرية بدلاً منه!! وغير ذلك من الوقائع كثير!!

خلاصة القول إن العلاقات بين القسطنطينية والإسكندرية طوال القرون من الرابع إلى السابع ، لم تكن طيبة في يوم من الأيام.. فالأسقف السكندري كان يعتبر نفسه أعلى كعباً في "التقدمة" و"الفكر اللاهوتي" من قرينه القسطنطيني، ولم يذهب من مخيلة بطاركة الإسكندرية أبداً أنهم زحزحوا عن المرتبة الثانية التي كانوا يحتلونها بعد الأسقف الروماني، في عداد الكنائس الرسولية، وأن هذه "الإزاحة" التي تعرضوا لها جاءت من جانب أباطرة القسطنطينية إعلاء لمكانة كرسي العاصمة الإمبراطورية الأسقفية، وكان المجمع المسكوني الثاني، نعى مجمع القسطنطينية الذي نحن بصددده الآن، هو أول المجامع التي "قننت" هذه الإزاحة كنسياً، وأعطتها الصفة "الشرعية" من وجهة النظر الإمبراطورية والأكليروسية، لذا لم يكن غريباً أن يمثل كرسي القسطنطينية الأسقفية غصة في خلق أساقفة الكرسي السكندري، وليس هنا مجال الخوض في تفاصيل هذا الصراع الكنسي، لأننا سوف نخصص جزءاً كاملاً من موسوعة "الدولة والكنيسة" هذه لمناقشة تلك القضية الشائكة، والتي شغلت الكنائس الرسولية حتى القرن السابع الميلادي، ولكن الذي يعنينا الآن التأكيد على أن ما فعله بطرس وتيموثي السكندريان ورجلها ماكسيموس، كان السمة البارزة لسياسة بطريركة الإسكندرية تجاه بطريركية القسطنطينية على امتداد أربعة قرون من الزمان.

وقد جاء القانون الثاني الصادر عن هذا المجمع، نعى مجمع القسطنطينية المسكوني، خاصاً بهذه المسألة، فقد ساوى في عبارة واحدة بين كل من بطرس السكندري وما أحدثه من اضطراب في العاصمة بتأييده رسامة ماكسيموس الكلبي، ومليتئوس الأنطاكي لانتقاله من أسقفية إلى القسطنطينية للمشاركة في رسامة جريجوري النازيانزي، وهذا الأخير لقبوله الرسامة أسقفاً للعاصمة وهو يشغل كرسي أسقفية أخرى من قبل، ولذا فقد صدر القانون الثاني على هذا النحو: "لا يجوز للأساقفة أن ينتقلوا إلى أسقفيات أو كنائس خارج دائرة رعايتهم، ولا أن يحدثوا الاضطرابات في كنائس. ومن ثم فلاسقف الإسكندرية تبعاً لما جرت به

القوانين، السيادة على كنائس مصر، ولأساقفة الشرق حق رعاية أمور الشرق فقط، ولتبق امتيازات كنيسة أنطاكية التي ذكرت في قوانين المجمع النيقى كما هي^(٤٤). ولأساقفة الأقاليم الآسيوية السيادة على أقاليمهم، ويدبر الأسقف البونطى أمور بونطس وحدها، والأساقفة التراقيون شئون تراقيا، ولا يسمح لأى أسقف أن ينتقل من إقليمه من أجل رسامة أسقف لكنيسة أخرى أو أى أعمال كنسية ثانية إلا بناء على دعوة، ويجب أن يراعى القانون الخاص بالأسقفيات، وليكن واضحاً أن مجمع كل إقليم عليه تدبير شئون الأقليم كما تقرر ذلك فى نيقية. أما الكنائس الأخرى داخل أراضى البرابرة فسوف ترعى طبقاً لما جرى به العرف الذى ساد منذ أيام الآباء الأول^(٤٥).

وعلى الرغم من أن الإمبراطور أوصى المجتمعين بمراعاة صالح الكنيسة والعقيدة عند اختيارهم للأسقف الجديد، إلا أن الأساقفة انقسموا على أنفسهم لأن كلا منهم. على حد تعبير سوزوموس - كان يود أن يكون أسقف العاصمة من بين أنصاره^(٤٦). وقد امتلأت قائمة المرشحين بالعديد من الأسماء ثم أضيف فى نهايتها بإيعاز من ديودوروس الطرسوسى أسم محافظ القسطنطينية نكتاريوس Nectarius فلما قدمت القائمة إلى الإمبراطور ليختار بنفسه من يريد، أشار باختيار هذا الشخص الذى أضيف اسمه مؤخراً، ولما لم يكن قد تلقى بعد سر المعمودية، فقد جرى على الفور تعميده، وأجريت مراسم سيامته أسقفاً للعاصمة وأصبح رئيساً لمجمع القسطنطينية^(٤٧).

(٤٤) SOCRAT. Hist eccl. V 8; THEOD. Hist. Eccl V 8 وينص القانون السادس لمجمع نيقية "يتمتع أسقف الإسكندرية بحق الإشراف على، ورعاية كنائس مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، كما جرى بذلك التقليد القديم، ويراعى هذا الحق أيضاً بالنسبة لأسقف روما وأسقف أنطاكية كل فيما تحت سيادته". انظر: Hefele, op. cit. I pp. 388-404; Percival, op. cit. pp. 15-16, 178-179.

(٤٥) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

(٤٦) SOZOM. Hist. Eccl. VII 8..

(٤٧) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; THEOD. Hist. Eccl. V 8.

واختيار شخص علماني، يشغل منصب محافظ المدينة، وليس عنده ربما إلا قدر ضئيل من المعرفة اللاهوتية^(٤٨)، لا يمكن أن يكون قد حدث هكذا اعتباطاً. فسوزوموس نفسه الذي يسوق قصة اختيار نكتاريوس بشيء من الطرافة، يعلق على ذلك قائلاً: "لقد كان حدس البعض أن الإمبراطور أقدم على هذا الاختيار بتوجيه من السماء، ومع اعتقادي أن الأمور لا يمكن أن تجري دون تدخل السماء، إلا أنني في هذه الحالة بالذات لا أستطيع أن أقرر إن كان هذا الحدس صادقاً أم به شيء من الكذب"^(٤٩). والذي لا شك فيه أن الإمبراطور ثيودوسيوس قد أدرك للوهلة الأولى أن الأمور في المجمع لا تشير إلى شيء من التفاؤل، وأن نفوس الكثير من الأساقفة تتطوى على مطامع بعيدة المدى حول القفز على كرسى العاصمة الأسقفى، أو اختيار أحد الأشياء لهذا الفريق أو ذاك. وقد وضع جلياً في موقفهم من جريجورى النازيانزى، وخلافهم حول المسألة الأنطاكية، ولعله اتضح أيضاً من هذه القائمة المليئة بأسماء المرشحين، ولا بد أن يكون المؤتمر قد فشلوا فى التوصل إلى الاتفاق حول شخصية بعينها كما طلب إليهم الإمبراطور ذلك، ولهذا رأى أن يحسم الأمر بنفسه، وأن يكون على رأس هؤلاء المجتمعين شخصية قوية، تدعمها سلطة الإمبراطور ونفوذه، حتى يمكن أن يتجه سفين المجمع إلى شاطئ الأمان. ولذا لا نستبعد أن يكون ديودور قد أوعز بوضع اسم نكتاريوس فى نهاية قائمة المرشحين بتوجيه من الإمبراطور نفسه. خاصة وأن سوزوموس يذكر أن الإمبراطور لم يصغ لأصوات الاحتجاج التى ارتفعت واهنة عندما علم أن المرشح الجديد لم يكن قد عمد بعد. ويضيف سوزوموس "ولم يجد الجميع بدا من الانصياع لأوامر الإمبراطور". وهذه العبارة الأخيرة وحدها دليل كاف على ما كان يرمى إليه ثيودوسيوس بعد ما وصلت إليه حال المجمع من الفوضى.

وهكذا لم يلبث المجمع أن توصل إلى اتخاذ قراراته العقيدية وقوانينه التنظيمية. وجاء القانون الأول مصداقاً لما بين يديه من الإيمان النقي، ولا عنا لكثير من الفرق المسيحية الأخرى مثل اليونوميين (الأنومويين) والآريوسيين وأنصاف الآريوسيين والماكيدونيين وغير هؤلاء كثير^(٥٠).

Vasiliev, op. cit. I p. 81 (٤٨)

SOZOM. Hist. Eccl. VII 8.. (٤٩)

SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist. Eccl. VII 9. (٥٠)

ثم أصدر صيغة لقانون الإيمان تضم وثيقة إيمان نيقية مضافاً إليها ما اتفق عليه المجتمعون حول الروح القدس رداً على الماكيدونيين^(٥١).

وقد أصبحت هذه الوثيقة التي عرفت بـ"قانون الإيمان النيقو-قسطنطيني"، ليس فقط القانون الرئيسى للإيمان، ولكن الركيزة الأساسية والرسمية لكل الفرق المسيحية على الرغم من خلافاتها العقيدية، وغدت أوسع انتشاراً بعد إقرار مذهب الطبعيتين فى المسيح فى المجمع المسكونى الرابع الذى عقد فى خلقيدونية Chalcedon سنة ٤٥١^(٥٢). وإذا كان قانون الإيمان النيقى بصورته التى صدر عليها باعتباره رداً على الآراء الأريوسية، قد ترك الباب مفتوحاً أمام الفرق المسيحية الأخرى، خاصة الأريوسية، للصراع العقيدى فى محاولة لوضع صيغ بديلة، وسمح بقيام جماعة الماكيدونيين وإذاعة آرائهم حول الروح القدس، فإن صيغة الإيمان التى صدرت عن مجمع القسطنطينية، بما تضمنته عن الروح القدس، كانت هى الأخرى مدخلاً ولج منه الخلاف واحتدم بين كنيسة روما والقسطنطينية فى القرن التاسع على عهد فوطيوس Photius أسقف القسطنطينية، وانتهى إلى الشقاق الأعظم بين الكنيستين فى القرن الحادى عشر (١٠٥٤) بيد البابا ليو التاسع وميخائيل كريولاريوس بطريرك القسطنطينية^(٥٣).

(٥١) تقول الوثيقة: "ؤمن بالله واحد، الأب القدير، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، الابن، المولود الوحيد من الله، مولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب فى الجوهر، كل شيء به كان. الذى من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومريم العذراء، وتأنس ثم صلب من أجلنا على عهد بيلاطس البنطى. وتآلم وقبر وقام فى اليوم الثالث ثانية كما حدثت بذلك الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب، وسوف يأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات. الذى ليس لملكه انقضاء. وبالروح القدس السيد واهب الحياة. المنبثق من الأب. الذى هو مع الأب والابن معبود وممجد. الناطق بالأنبياء. وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة ورسولية. ونقر معمودية واحدة للتطهير من الخطايا. ونترجى قيامة الموتى والحياة فى الدهر الآتى " انظر:

Percival, op. cit. p. 163; Hefele, op. cit. II p. 350.

Vasiliev, op. cit. I p. 81. (٥٢)

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن الشقاق الكنسى حول الروح القدس، راجع: دكتور اسحق عبيد، روما وبيزنطة، ص ١-١٩ وأيضاً: =

الدولة .. والكنيسة

على أن أهم القوانين التي صدرت عن المجمع، والتي تركت آثارها البعيدة على العلاقات الكنسية بصفة خاصة فيما بعد، هو القانون الثالث الذي ينص على أن "يحتل أسقف القسطنطينية التقدم في الكرامة بعد أسقف روما مباشرة لأن القسطنطينية هي روما الجديدة"^(٥٤). وتبع ذلك تنظيم المناطق التابعة للأسقفيات المختلفة، بحيث أضيفت تراقيا، التي كانت هرقلية حاضرتها ورأس كنائس الإقليم فيها، إلى سيادة أسقف القسطنطينية^(٥٥). ومع أن القانون يعترف ضمناً إن لم يكن صراحة بمكانة روما وعلو كعبها، إلا أن كنيسة روما رفضت الاعتراف بهذا القانون، محاجة بأنه خروج على التقليد الكنسي في ترتيب الأسقفيات، واعتداء على القانون السادس لمجمع نيقية. وقد ظلت روما قروناً طويلة ترفض هذا القانون، وأعلن ذلك صراحة المندوب البابوي لوكنتيوس Lucentius في الجلسة السادسة عشرة لمجمع خلقيدونية، وعلى نفس الدرب سار البابا ليو الأو وكذا البابا جريجورى الأول. ولم تعترف روما بذلك الوضع إلا بعد أن احتلت القسطنطينية على يد اللاتين في الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤، حيث سمح البابا إنوسنت الثالث Innocent III والمجمع اللاتيراني الرابع المنعقد في عام ١٢١٥ بأن تحتل القسطنطينية المرتبة الأولى بعد روما^(٥٦).

ولئن كان الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) قد اعترف في إحدى نوافله بمجىء القسطنطينية بعد روما في المرتبة، إلا أن المؤرخين المتحمسين للقسطنطينية قد فسررا كلمة "بعد" meta التي جاء ذكرها في القانون بأنها تشير فقط إلى ترتيب زمني وليس مكانيسا، وهم يشيرون بهذا إلى تأسيس القسطنطينية

Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 105-110; Barry, = the Papal monarchy from st. Gregory to Boniface VIII, pp. 124-129.

SICRAT. Hist. Eccl. V 8. (٥٤)

(٥٥) SOCRAT. Hist. Eccl. V. 8. وتضمن التنظيم، إشراف هيلاديوس أسقف قيسارية كبادوكيا على إقليم بونطس بالاشتراك مع جريجورى أسقف نيسا، وكذلك أتريوس أسقف ميليتينا في أرمينيا. أما أمفيلوخوس أسقف قونية وأبتيموس البسیدی فقد اختصا بالأقاليم الآسيوية، على حين بسط تيموثى سيادته على مصر والمناطق التابعة لها، وبلاجيوس وديودوروس على كنائس الشرق مع احترام حقوق أنطاكية.

(٥٦) Percival, op. cit. p. 178; Hefele, op. cit. II p. 359 وأيضاً نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص ٩٨-٩٩.

بعد روما يقرون طويلة، ويرتبون بناء على رأيهم هذا وضع روما والقسطنطينية في مرتبة واحدة (٥٧).

وإذا كان هذا القانون لا يمس مكانة رومان بل على العكس من ذلك يعترف بسمو قدرها ومكانتها، إلا أنه كان بصورة مباشرة لطمة إلى كل من الإسكندرية وأنطاكية. إذ كان على الإسكندرية بمقتضى هذا القانون أن تتخلى كارها عن مكانتها الثانية بعد روما لتحلها القسطنطينية، وكان على أنطاكية بالتالى أن تهبط رغم أنها عن مرتبتها الثالثة لتستقر عليها الإسكندرية، ولتأتى هي في المرتبة الرابعة. وكان مجمع نيقية قد وضع الكنائس الثلاث على هذا النحو، روما فالإسكندرية فأنطاكية، واعترف قانونه السابع باحتلال كنيسة بيت المقدس للمرتبة الرابعة مع خضوعها لإشراف قيسارية فلسطين، لذلك كان القانون الثالث لمجمع القسطنطينية المسكونى قلباً لكل هذه الأوضاع وعاملاً رئيسياً في إشعال نيران الصراع الكنسى بين هذه الكراسى الأسقفية الكبيرة، والتي جرت وراءها الكنائس الأخرى، في دوامة الإضطراب من أجل الزعامة، وتلك كانت سمة الجدل بين الكنائس في القرن الخامس (٥٨).

وقد يكون ما أحدثه مرشح الإسكندرية ماكسيموس الكابى، من اضطرابات في العاصمة السبب المباشر كما يقول Hefele وراء صدور هذا القانون (٥٩)، إلا أن المتتبع للأحداث منذ تأسيس القسطنطينية يرى أن الأباطرة كانوا حريصين على الارتفاع بقدرها على الكنائس الأخرى. وكان الإمبراطور قسطنطين نفسه أول من أقدم على ذلك حينما استدعى أريوس من الإسكندرية بعد عودته من منفاه، للمثول في القسطنطينية ليثبت قوامه إيمانه أمام إسكندر أسقف العاصمة الجديدة التي لم يكن عمرها الآن يتجاوز ست سنوات فقط (٦٠). ولا يخفى علينا أيضاً الجهود التي

(٥٧) Hefele, Loc. cit.

(٥٨) لن نخوض هنا في تفاصيل هذا الصراع الذى استمر في جذوته طيلة النصف الأول من القرن الخامس الميلادى، وظلت ذيوله تسعى لعدة قرون من بعد. وسوف نورد الكتاب الخامس من الدولة والكنيسة بمشيئة الله لبحث هذا الموضوع.

(٥٩) Hefele, op. cit. II. p. 359.

(٦٠) احتفل بتدشين العاصمة الجديدة في ١١ مايو سنة ٣٣٠، وكانت جلسة تبرئة أريوس عام =

الدولة .. والكنيسة

بذلها كل من الإمبراطور قسطنطيوس وفالترز، من خلال أساقفتهم الأريوسيين، يوسيبوس النيقوميدي وماكيدونيوس ويودكسيوس وديموفيلوس، على التوالي، لإعلاء شأن القسطنطينية عن طريق فرض عقيدة أسقف العاصمة على الفرق المسيحية الأخرى. وكان العداء من جانب الإمبراطورين تجاه الأسقف السكندري أنثاسيوس، هو في جوهره عداء مباشر للإسكندرية، الكنيسة والمدينة، بما لها من ماض عريق وعلو كعب في ميدان الفكر اللاهوتي المسيحي. ولا شك أن ما يجري لأسقف القسطنطينية جريجورى النازيانزى، من جانب أسقف الإسكندرية تيموثى، على مرأى من الإمبراطور ومسمع، كان كفيلاً بأن يحرص الإمبراطور على أن لا ينهى المجمع جلساته، إلا بعد أن يرد إلى القسطنطينية اعتبارها وهيبتها.

وفى يولييه ٣٨١ أنهى المجمع جلساته، وبعث برسالة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس ضمنها القرارات والقوانين التى اتفق الجميع عليها، وجاء فيها:

"تلبية لدعوتكم التام فى القسطنطينية جمعنا، وبعد أن أعدنا الوحدة إلى صفوفنا، وضعنا تعريفات مختصرة تؤكد إيمان الآباء فى نيقية، وتدين "الهرطقات" التى ظهرت تتاونه. ومن أجل النظام الكنسى، أصدرنا عدداً من القوانين وألحقنا ذلك كله برسالتنا هذه إليكم. نلتمس الآن أن يتفضل عظمتكم فيؤكد فى رسالة تحمل رحمتكم قرارات هذا المجمع، فكما كرمت الكنيسة برسائل دعوتكم، فلتتعطف الآن بتوقيع هذه القرارات".

وكان طبيعياً أن يستجيب الإمبراطور لرجاء الأساقفة، فأصدر أوامره فى الثلاثين من يوليو بأن "كل الكنائس يجب أن تخضع للأساقفة الذين يؤمنون بوحداية الألوهية ممثلة فى الأب والابن والروح القدس، وعليها أن تدخل فى شركة نكتاريوس أسقف القسطنطينية وتيموثى أسقف الإسكندرية، وبلاجيوس أسقف الشرق فى اللاذقية، وديودوروس الطرسوسى، وفى آسيا والأقاليم الآسيوية مع أمفيلوخىوس أسقف قونية، وأبثيموس الأنطاكي البيسيدى، وفى بونطس مع هلاديوس القيسارى الكبادوكى، وأوترىوس المليتيني، وجريجورى النيساوى، وفى

=٣٣٦، حيث توفى فى نفس العام. بل فى اليوم نفسه المحدد للمناظرة بينه وبين أسكندر أسقف العاصمة الجديدة!! وبصورة تدعو للارتياح حسب ما يرويه مؤرخو الكنيسة.

موثيزيا وسكيزيا مع ترنتيوس أسقف سكيزيا، ومارتيريوس أسقف مارقيانوبولس وكل من لا يدخل في شركة هؤلاء وجب طرده من الكنيسة^(٦١).

قرت عينا الإمبراطور ثيودوسيوس بهذا الذي توصل إليه مجمع الأساقفة المسكوني في القسطنطينية، واستفتح خيراً في سبيل اقرار العقيدة النيقية، غير أن الغرب الذي لم يشارك من أساقفة أحد في أعمال المجمع، لم يدع الأمور تسير كما أراد لها إمبراطور الشرق، ولم يتقبل كثيراً مما صدر عن المجمع، ولم يوافق فقط إلا على وثيقة الإيمان. وكان على رأس هؤلاء المعارضين أمبروز أسقف ميلانو، الذي تزعم عدداً من أساقفة اللاتين لمجابهة قرارات المجمع وقوانينه، وكان من بينها موضوع ماكسيموس الكلبي مرشح الإسكندرية. فعلى الرغم من أن جموع القسطنطينية لفظته خارج البيعة والمدينة، وأدان المجمع فعالة، ولم يعترف الأسقف الروماني داماسوس بصحة اختياره كما جاء في رسالته إلى اسخوليوس أسقف سالونيك^(٦٢)، وهي المدينة التي فر إليها ماكسيموس بعد طرده من العاصمة، إلا أن أمبروز وجماعته أعلنوا في إصرار وقوفهم إلى جانب ماكسيموس وادعاءاته في أسقفية القسطنطينية، ورفضوا في الوقت ذاته الاعتراف بكل من جريجورى النازيانزى ونكتاريوس!!

وقد جاءت هذه القرارات كلها عن مجمع عقد في أواخر صيف عام ٣٨١ في أكويليا Aquileia وعلى وجه التحديد في الثالث من سبتمبر، أى بعد انتهاء أعمال مجمع القسطنطينية بشهر واحد، أو بتعبير أدق بعد وقوف الغرب على قرارات الجمع المسكوني الثاني. ولم تستمر جلسات مجمع أكويليا إلا جلسة واحدة هي التي عقدت في نفس يوم افتتاحه، ولم يحضر المجمع أسقف روما أو ممثلون عنه. بينما كان أمبروز يمثل الشخصية الرئيسية في المجمع والداعية إلى عقده والمحرك الأساسى وراء قراراته، وقد طالب المؤتمر في النهاية بعقد مجمع عام يضم أساقفة الكنيسة في الشرق والغرب لبحث مشكلة أسقفية القسطنطينية^(٦٣).

(٦١) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist VII 9.

(٦٢) Hefele, op. cit. II p. 359.

(٦٣) كانت فكرة عقد هذا المجمع قائمة منذ أواخر عام ٣٧٨ وأوائل ٣٧٩ عندما كان جراتيان إمبراطوراً فرداً بعد مقتل فالنز، ومرد ذلك إلى أن أسقفين من أساقفة الليريا هما بالاديوس Palladius وسكونديانوس Secundianus كانا قد اتفهما من جانب بعض أساقفة الغرب بأنهما=

ولا شك يبدو غريباً موقف أمبروز والأساقفة اللاتين على هذه الصورة، فالمشكلة هنا ليست مسألة عقيدية تتعلق باللاهوت وتخص الكنيسة الجامعة، ولكنها مسألة تنظيمية تتصل بالتنظيم الكنسى، وهى من صميم شئون الكنيسة الشرقية وحدها، أو بتعبير أدق، النصف الشرقى من الإمبراطورية، وماكسيموس أدين على يد مجمع عام يضم مائة وخمسين أسقفًا، وأعلن شعب الكنيسة فى القسطنطينية عدم قبوله له أو رضائه عن اختياره الذى دبر بليل، وجريجورى النازيانزى جاء إلى القسطنطينية بدعوة من جماعة النيقيين هناك، ورسم أسقفًا برضاء المجمع وموافقة الإمبراطور، وكذا كان الحال بالنسبة للأسقف الجديد نكتاريوس. وإذا كان جريجورى قد انتقل من أسقفية ليغلى كرسى أسقفية أخرى خلافاً لما جرى به التقليد الكنسى وأقره المجمع النيقى، كما أذاع الوفد السكندرى، فإن القانون الرابع لمجمع القسطنطينية قد استثنى فقط من ذلك "من توجه إليهم الدعوة" فما الذى ارتآه الأسقف الميلانى أمبروز من الناحية التنظيمية خطأ، حتى يصر على شرعية رسامة من أدين، ويرفض الاعتراف بمن جاءوا إلى الأسقفية بالطريقة الشرعية؟!

وفى صمت المصادر، وقلة المعلومات أو انعدامها، يصبح الأمر شائكاً ومحيراً، ولكننا نحاول أن نتلمس الطريق قدر الجهد. ففعل ماكسيموس قد استطاع خلال وجوده فى سالونيك بعد هروبه إليها، التأثير على أسقفها أسخوليوس، الذى كان أحد حضور المجمع، بعد عودته، وبالتالي التأثير على عدد من الأساقفة اللاتين، ومنهم أمبروز بحيث وقفوا إلى جانبه على هذا النحو، ولم يعلنوا تخليهم عنه إلا العام التالى إبان المجمع الذى عقد فى روما. ولعل أمبروز، شأن أساقفة الغرب جميعاً، كان يضمّر العداء لجريجورى النازيانزى، وأبوى كبادوكيا الآخرين معه، لخلاف فى رأى بين هؤلاء وأولئك حول المشكلة الأنطاكية. فبينما يؤيد لاهوتيو كبادوكيا النيقيين المعتدلين وزعيمهم الراحل مليتيوس، يقف الغرب فى

على الأريوسية، فلما تقدما إلى الإمبراطور بالتماس لعقد مجمع عام لبحث مسألة هذا الاتهام، أرجئت الفكرة تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية، ثم خضع جراتيان لتأثير الأسقف الميلانى أمبروز وقصر المجمع على أساقفة الليريا والغرب فقط، وكان أمبروز يرمى من وراء ذلك إلى حرمان أسقفى الليريا من تأييد أساقفة الشرق. وقد انتهى الأمر بإدانة الأسقفين وعزلهما، وإن كان الأسقفان رفضا قبول قرار الإدانة وطالبا بعقد مجمع جديد.

للمزيد من التفاصيل راجع : Hefele, op. cit. II pp. 375-377.

جانب النيقيين المتطرفين المعروفين باليوسنتائيين، والذين كان الأسقف السكندري الأسبق أثناسيوس يأخذ جانبهم، ومن ورائه الغرب دون معرفة بحقيقة الخلاف وبلا فهم لطبيعة الجدل، وهذا يتضح أيضاً خلال مجمع روما الذى عقد سنة ٣٨٢، كما سيأتى ذكره بعد. ولما كان مليتيوس الأنطاكي من أشد المتحمسين لجريجورى النازيانزى، وهو الذى تولى بالاشتراك مع عدد من أساقفة المجمع المسكونى الثانى، رسامته. أمسى ضرورياً رفض أمبروز الاعتراف بشرعية اختياره. أما نكتاريوس فحالاً لا يختلف فى شيء عن أمبروز، فكلاهما كان حاكماً مدنياً قبل أن يلبس الرداء الكهنوتى، وكلاهما لم يكن قد عمد بعد، وكلاهما اختير بطريقة شرعية ورضاء الإمبراطور، ومن ثم فليس من مبرر لموقف أمبروز ضده إلا أن يكون معتبراً إياه مغتصباً لكرسى كان ماكسيموس الكلبى - فى نظره - به أولى!!

وإذا كانت روما قد رفضت الاعتراف بالقانون الثالث، الخاص بإعلاء قدر كنيسة القسطنطينية، فإن أمبروز لم يكن يقل عن أساقفة روما رفضاً لهذا القانون، ولم يكن ذلك ناجماً عن حرص على حقوق كنيسة الإسكندرية أو الكنيسة الأنطاكية، ولكن مؤازرة لروما، حفاظاً على التقليد الكنسى، وتوجساً من ازدياد نفوذ هذه الأسقفية الناشئة فى المدينة التى ما زالت تحبو فى سنى قرنها الأول من عمر الزمن، خاصة وقد امتد نفوذها الآن ليشمل أيضاً تراقياً. وإذا كانت الليريا قد أضيفت سياسياً إلى سيادة إمبراطور النصف الشرقى، فلا بد أن ترعاها بالتالى ، ولو بعد حين، كنيسة القسطنطينية.

ولما كان ثيودوسيوس مازال فى بداية عهده، يحاول أن يكون حريصاً على عدم إثارة النصف الغربى من الإمبراطورية، بإمبراطوره وإكليروسه، وهو يعلم تماماً مدى الصداقة التى تربط بين الأسقف الميلانى والإمبراطور جراتيان، بل ويدرك يقيناً إلى أى حد يصل تأثير أمبروز ونفوذه فى بلاط الغرب، فقد وجه الدعوة من جديد، استجابة لطلب مجمع أكويليا، لعقد مجمع جديد فى القسطنطينية فى صيف عام ٣٨٢، حضره نفر من أساقفة الشرق لم يكن عددهم يقل عن ضمهم المجمع المسكونى الثانى فى العام الماضى. وقد دعا الإمبراطور جريجورى النازيانزى لحضور هذا المجمع، غير أنه اعتذر بمرضه، متمنياً لهم التوفيق، وإن

كان قد علق بخيبة أمله في مثل هذه الاجتماعات^(٦٤). وكان الهدف الرئيسي لهذا المجمع هو إرضاء إكليروس الغرب، الذي كان يعقد مجعاً في الوقت ذاته في روما، ذلك أن شيئاً ما جديداً لم يتمخض عنه مجمع القسطنطينية الثاني هذا.

تلقي أساقفة المجمع رسالة من أساقفة الغرب تدعوهم للانضمام إليهم في روما، غير أن أساقفة الشرق تعللوا بأنهم وطنوا أنفسهم على أساس رحلة قصيرة^(٦٥). وقد جاء ذلك في رسالتهم المجمعية التي بعثوا بها إلى داماسوس أسقف روما، وأمبروز أسقف ميلانو والأساقفة الآخرين المجتمعين في روما وحملها ثلاثة من بينهم هم سيرياقوس Syriacus ويوسيبوس Eusebius وبريسكيانوس Priscianus. وتضمنت هذه الرسالة وصفاً للإضطهاد والمعاناة التي لقيوها ولقيته معهم كنائسهم على عهد الإمبراطور فالنز، وإن كانوا الآن قد دخلوا في مرحلة الأمان. واحتوت الرسالة أيضاً موجزاً لقانون الإيمان الذي يدينون به ويقولون فيه "لقد تعلمنا أن نؤمن باسم الآب والابن والروح والقدس، بالوهية واحدة وسلطان واحد وجوهر واحد للآب والابن والروح والقدس. وبكرامة واحدة ومجد لا نهائي لأقانيم ثلاثة كاملة، أو ثلاثة شخوص". وأدانوا الأريوسية والماكيدونية واليونومية^(٦٦). واختتمت الأساقفة رسالتهم بالتأكيد على شرعية اختيار نكتاريوس أسقفاً للقسطنطينية، وذلك استناداً إلى القانون الرابع الصادر عن المجمع السابق والذي يدين ماكسيموس الكلبى. كما تضمنت نهاية الرسالة أيضاً اعترافهم بشرعية رسامة فلافيان Flavianus أسقفاً لأنطاكية. وكان قدر جرى اختياره على يد أتباعه في أنطاكية بعد أن علموا بنبا وفاة مليتيوس وصدق على ذلك الوفد الأنطاكي في المجمع^(٦٧)، وبقية الأساقفة.

GREG. NAZ. Ep. CXXXV. (٦٤)

THEOD. Hist. Eccl. V 9. (٦٥)

(٦٦) Hefele, op. cit. II p. 379 وقد جرى الاعتقاد خطأ بنسبة هذا الاعتراف إلى المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، والدليل على ذلك ما جاء فى خاتمة اعترافهم من القول بأن "الكثير من التفاصيل حول هذا الأمر "التجسيد" يقف عليه الأخوة اللاتين من رسالة العقيدة.. التى أصدرها المجمع العام المنعقد فى القسطنطينية فى السنة السابقة".

(٦٧) كان الوفد الأنطاكى برئاسة مليتيوس يضم خمسة وستين من رجال الأكليروس فى فلسطين وفينيقيا وسوريا والعربية والرها وما بين النهرين والفرات وكيليكيا وايزوريا. انظر دكتور أسد رستم - كنيسة أنطاكية. الجزء الأول. ص ٢٥٥ وله أيضاً للروم الجزء الأول، ص ٩٣.

وكانت خاتمة الرسالة بالذات هي التي تنحصر فيها أهميتها وأهمية المجمع بصفة عامة ، نعى اطلاع الغرب على أن ما تم اتخاذه بشأن ماكسيموس لا خطأ فيه، وأن إعلان نيكيتاريوس أسقفاً قد تم بطريقة قانونية. وكان أساقفة الغرب يعقدون مجمعهم في روما عندما جاءهم وفد القسطنطينية، وعلى رأس المجمع كان داماسوس، ويضم أمبروز، الذي حال المرض بينه وبين متابعة بعض الجلسات، وبريتون Britton أسقف ترير (Augusta Treverurum) وأسخوليوس أسقف سالونيك وأنيموس Anemius أسقف سيرميوم Sirmium والقديس جيروم Hieronimus وباولينوس Paulinus أسقف النيقية المتطرف في أنطاكية، والمندوبين الثلاثة رسل مجمع القسطنطينية.

ولا شك أن وجود أسخوليوس في هذا المجمع، يؤيد وجهة النظر التي ذكرناها من قبل، فيما يتعلق بإمكانية نجاح ماكسيموس السكندري في استمالته إلى قضيته بعد عودته من مجمع القسطنطينية. كما أن مشاركة باولينوس الأنطاكي أيضاً لها دلالتها الهامة الخاصة بمعادة الغرب للأسقف الأنطاكي الراحل مليتيوس وخليفته فلافيانوس. وكانت أهم القضايا التي ناقشها المجمع مسألة الآراء الأبولينارية^(٦٨)، وإدانتها. وقد قام جيروم بوضع صيغة اعتراف للإيمان كان على الأبوليناريين توقيعها إذا ما رغبوا في العودة إلى شركة الكنيسة^(٦٩).

إلا أن المجمع وافق مؤخراً على ما جاء به أساقفة الشرق، وأعلن أساقفته تخليهم عن قضية ماكسيموس الكلبي، واقتناعهم بشرعية رسامة نيكيتاريوس أسقفاً

(٦٨) تنتمي هذه الطائفة إلى أبوليناريوس Apollinarius الذي كان أسقفاً لكنيسة اللاذقية خلال النصف الأخير من القرن الرابع، وامتدحه باسل الكبير الكبادوكي لقوامة إيمانه، ولم يكن أثناسيوس السكندري أقل امتداحاً له من صديقه اللاهوتي الشهير. وقد تلقى جيروم بعض تعليمه على يديه سنة ٣٧٤، غير أنه ما لبث أن جهر بآراء حول طبيعة المسيح، تعترف باللاهوت فيه فقط، مما كان بابا ولج منه المناقزة من بعد. ولعل هذا جاء منه رداً على الأريوسيين الذين غلبوا الناسوت في المسيح. وقد أدين أبوليناريوس وحرّم على يد مجمع روما الذي عقد سنة ٣٧٧ وأرسل داماسوس رسالة تحتوي على خمس وعشرين أناثيما ضده،

إلى باولينوس أسقف أنطاكية. راجع GREG. NAZ. Epp. CI, CII

(٦٩) Chadwick, op. cit. p. 148

للقسطنطينية، ولعلمهم أرادوا مقابلة روح المودة التي جاءهم بها أساقفة مجمع القسطنطينية الثاني، خاصة وأن ماكسيموس موضوع الخلاف قد أضحي غير ذي بال، بعد أن استقر الأمر في القسطنطينية لنكتاريوس. لكن المجمع مع ذلك إذا كان قد أَرْضَى إخوة الشرق في جزء مما جاءوا به، فإن المشكلة الرئيسية التي تباعد بينهما ظلت قائمة، حيث رفض مجمع روما الاعتراف بفلافيانوس أسقف أنطاكية الجديد، بل زاد على ذلك أن أصدر ضده قرار الحرمان الكنسي، وأشرك معه في هذا الحرم ديودوروس الطرسوسي وأكاكيوس الحلبي، اللذين قاما بإتمام إجراءات سيامته^(٧٠). وهكذا ظلت المشكلة الأنطاكية، كما كانت دائماً عاملاً هاماً في ازدياد الهوة والتباعد، ضمن عوامل أخرى عديدة، بين أكليروس الشرق والغرب.

وكان مجمع روما، وفي حضرة رسل الشرق، فرصة حرص عليها الأسقف الروماني وأمبروز والأساقفة اللاتين، لإظهار غضبهم وسخطهم على القانون الثالث الصادر عن المجمع المكسوني الثاني، فأعلنوا "أن الكرسي الأول هو كرسي بطرس الرسول الذي به ترتبط الكنيسة الرومانية، لم يقارف البتة إثماً"، وأكدوا وضع أسقفيتي الإسكندرية وأنطاكية في المرتبتين التاليتين مباشرة، استناداً إلى النظم الكنسية التي استقرت وسادت. ولم يكن بمقدور رسل الشرق إلا أن يقدموا احتجاجاً واهناً، بالعودة إلى ديارهم بعد أن حصلوا على أهم أمر من أجله جاءوا، وهو ما يتعلق بنكتاريوس. وقد أبدى الأسقف الميلاني أمبروز تأييده الكامل ومؤازرته لأسقف روما والمجمع في هذا القرار^(٧١). وظل خلال أسقفيته الطويلة يبدي احترامه الكامل لروما وإعجابه، محاكياً في ذلك الآباء الأول الذين عبروا عن هذا الاحترام بقولهم: "حيثما كان بطرس.. الكنيسة تكون"^(٧٢).

(٧٠) SOZOM. Hist. Eccl. VII, 11.

(٧١) Glessner, Middle Ages in the West, pp. 20-21.

(٧٢) Barry op. cit. p. 31.

الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق

الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق

يمثل عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧) فترة فريدة فى تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، تميزت بسياسة التوازن والحلول الوسطى، والإمبراطور يسير دفة الأمور بكل الحذق والمهارة، مسيحياً فى سياسته، وثنياً فى نظريته، نيقياً مع الجموع، فإذا حزب الأمر آريوسياً، يضم بلاطه مستشارين من كل هؤلاء الأضداد ويموج بشتى الفكر. فالقادة العسكريون ورجال السياسة والإدارة والاقتصاد من الوثنيين. وهوسيوس القرطبي، رئيس أساقفة المجمع المسكونى الأول، والنيقى المتعصب، مستشار الإمبراطور للشئون الدينية. وفى الطرف الآخر نجد يوسيبوس النيقوميدي الأريوسى العنيد، صديقاً للإمبراطور. وبين هؤلاء وأولئك يقف الأسقف القيسارى يوسيبوس.. شيخ مؤرخى الكنيسة الذى لم يؤيد النيقية جهاراً، ولم يهاجم الأريوسية صراحة، مداح الإمبراطور، استخلصه قسطنطين لنفسه، فإذا هو لديه مكين أمين. وهكذا جمع الرجل فى بلاطه الأبيض والأسود، والنار والجليد.. دون أن يطغى أحدهما على الآخر.. فلما مات، اختلط الحابل بالنابل، وأذابت النار الجليد، فلم تخلف إلا الوحل!

وطوال ربع قرن (٣١٢-٣٣٧) وقسطنطين يمسك من الوسط عصا التسيار يحرك بها كل هذه الجماعات فى ذكاء وحذر، فهو يدين الدوناتيين فى ولاية أفريقية من مقامه فى ميلانو سنة ٣١٦، لأنهم أدينوا بيد مجمعين كنسيين فى روما ٣١٣، وأرل ٣١٤، ويستخدم العنف ضدهم، حتى إذا قوى ساعد الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة، عفا عن الدوناتيين وحث الكاثوليك على اتخاذ مواقف معتدلة معهم ومتسامحة. وهو يخاطب اسكندر وأريوس السكندريين فى البداية، يدعوهم إلى المصالحة، ويطلب إليهما فض هذا الخلاف اللاهوتى "التافه"، "العقيم" وترك هذا "الحمق الصبيانى". ثم ينتصر لمجمع نيقية والنيقية وينفى زعماء الأريوسية، حتى إذا أنس من جانب النيقيين تعالياً، عده غطرسة وغرورا، أعاد أريوس وصحبه من المنفى، وقبل منهم ودون الرجوع إلى الكنيسة، وثيقة إيمانهم، وقرب إليه يوسيبوس أسقف نيقوميديا، وعزل ونفى أساقفة النيقية وفى مقدمتهم يوستاتيوس

Eustathius الأنطاكي وأثناسيوس السكندري، فلما استشعر القوة من جانب الأريوسيين، اتجهت نيته إلى السماح لأسقف الإسكندرية بالعودة إلى بيعته، إلا أنه قضى نحبه، وبقي الأسقف ينتظر، ولم يطل به في المنفى مكثه فعاد بإرادة ولد الإمبراطور وسميه، قسطنطين الثاني واتفاق الأخوة الأباطرة.

إلا أن هذه السياسة وإن كانت قد حفظت السلام الظاهري بين الوثنية والمسيحية وبين الفرق المسيحية وبعضها طيلة حياة الإمبراطور، وأفاد هو منها في السيادة الكاملة على كل هذه الاتجاهات المتباعدة المتصارعة، وإن كانت قد أرهقت منه الفكر والجهد. غير أنه بموت قسطنطين، وافتقار أولاده الثلاثة لشيء من صفاته وذكائه، انفرط هذا العقد الفريد، وراحت هذه الفرق جميعها تتلاقى متلاطمة. وفي تعبير رائع يصف المؤرخ الكنسي سقراط هذه الحال قائلاً "... ومع الأيام، وعبر مدائن الشرق كلها، راحت الفتن والمهاترة تسود، وأمسى النظام إلى فوضى، وكل شأن إلى سوء سار"^(١).

وكانت أنطاكية إحدى ضحايا هذه السياسة بعد وفاة قسطنطين، وبالتالي ضحية لهذا الصراع الفكري الذي دار بين النيقيين وأنفسهم، والأريوسيين وبعضهم، وهؤلاء وأولئك جميعاً. وضاعف من حدة المواجهة، ذلك المركز الممتاز الذي تتمتع به أنطاكية باعتبارها حاضرة ولايات الشرق الرومانية، وقصبة سوريا، وصاحبة المدرسة اللاهوتية الشهيرة لتفسير الكتاب المقدس، باستاذها لوقيانوس، وتلميذها أريوس ويوسيبيوس النيقوميدي، وفيلسوفها الوثني الأشهر ليبيانيوس، وغير هؤلاء ممن بعد هذه الفترة التي نتناولها هنا، يأتون. أجمل ذلك كله هذا الفيلسوف في عبارة واحدة "مدينة لا كغيرها من المدن"^(٢).

(١) SOCRAT. Hist. Eccl. II 22.

(٢) يتغنى ليبيانيوس بجمال أنطاكية وتفوقها فيقول "هل نستطيع أن ننكر مدينة واحدة تستحق أن تقارن بهذه ؟ فإلى جانب كونها أسعد حظاً من أقدم المدن، فهي أكبر حجماً من بعض المدن الأخرى، وهي تفوق بعض المدن في نبل أصلها، ومدنا أخرى في أرضها المعطاء. قد تفوقها مدينة واحدة (القسطنطينية) بأسوارها، ولكنها أعظم من هذه في وفرة مائها، واعتدال شتائها، وتهذيب أهلها، وطلبها للعلم. وهي أجمل من المدينة التي تفوق تلك حجماً (روما) بسبب أجمل الأشياء وهي التربية والأدب الهيلينيين. انظر داووني، أنطاكية في عهد ثيودوسيوس، ترجمة دكتور ألبرت بطرس، ص ٣٧، ٩٩-١٠٠.

بدأت المشكلة الأنطاكية بخلاف عادي في الرأي شائع الحدوث في ذلك الحين، طرفاه يوستاتيوس أسقف المدينة، ويوسيبوس شيخ مؤرخي الكنيسة وأسقف قيسارية فلسطين، يصفه سقراط بأنه كان "نزاعاً في ظلام، لأن أحداً من الفريقين لم يحاول فهم موقف الآخر أو الأسس التي يعتمد عليها، سببه الرئيسي عبارة، "من نفس جوهر الآب"^(٣). Homoousius التي كانت الركيزة الأساسية التي دار من حولها قانون الإيمان النيقية، ولم يلبث يوسيبوس أن رد التهمة وأذاع في الناس أن يوستاتيوس ليس إلا سابيليا^(٤). ونتيجة لسوء الفهم المتبادل - على حد قول سقراط - كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدواً لدوداً^(٥).

انتهز الأريوسيون الفرصة، وعلى رأسهم يوسيبوس النيقوميدي الذي تزعمهم بعد عودته من المنفى، وعلى أثر الهدوء الذي آوى إليه أريوس، حتى عرفت الجماعة باسمه فدعيت باليوسابيين، وعزموا على أن يحققوا لأنفسهم كسباً يردون به اعتباراً لهم فقدوه في نيقية سنة ٣٢٥. ولما كانوا يعلمون مدى تعصب يوستاتيوس للنيقية، ومدى قرب يوسيبوس إلى قلب الإمبراطور، وأنه في عقيدته لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فقد صمموا على الإطاحة بأسقف أنطاكية لتجد فيها الأريوسية مجالها، ففيها تلقى أريوس ويوسيبوس النيقوميدي تعليمهما، وتشرب الزعيم الأريوسي فيها مبادئ دعوته، ومن ثم فهي بالأريوسية أولى.

وبموافقة الإمبراطور وفي سنة ٣٣٠ تم عقد مجمع في أنطاكية نفسها، انتهى بالانتصار ليوسيبوس، وبالإدانة ليوستاتيوس وحرمانه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه، وصدق قسطنطين على ذلك، وأضاف إليه نفى الأسقف الأنطاكي إلى تراجانوبوليس Traganopolis في تراقيا^(٦). فكسب الأريوسيون بذلك أرضاً وجولة، وأذل الإمبراطور شيئاً ما كجزياء الجماعة النيقية. ويعلق سقراط "لقد كان

(٣) SOCRAT. hist. Eccl. I 23.

(٤) السابلية نسبة إلى سابليوس Sabellius أحد مواطني طلميثة Ptolemais إحدى المدن الخمس الغربية، نادى في القرن الثالث بأن الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة، ولكنها صورة مختلفة للأقنوم الأول في الثالوث. وقد تصدى للرد عليه آنذاك أسقف الإسكندرية ديونيسيوس.

(٥) SOCRAT. loc. cit.

(٦) SOZOM. Hist. Eccl. II 19; THEOS. Hist. Eccl. I 20; HIER. Vir. Ill. 85.

هذا أمراً شائع الحدوث، يأتيه الأساقفة متى عن لهم ذلك، يسوقون الدعوى ضد الخصوم متهمين أنهم ضد ضلوا سواء السبيل، أما وقائع الدعوى، أما الأدلة فلا موجب لها، وليس إليها من سبيل^(٧).

ومنذ هذا التاريخ انتبذ النيقيون مكاناً قصياً في أنطاكية، أو بتعبير آخر نُبذوا وحدهم بعد أن سادت الأريوسية المدينة والإمبراطورية على عهدى قسطنطينوس وفالنز، ومنذ أضحت أنطاكية مقام الإمبراطورين لفترات ليست بالقصيرة من عهديهما لمجابهة التحديات الفارسية. وانقسمت أنطاكية الكنيسة والمدينة على نفسها بين الأريوسيين والنيقيين، وازدادت بمرور السنوات حدة التوتر بين الفريقين، وإن كان أحد أساقفتها الأريوسيين وهو ليونتيوس^(٨) Leontius الذى اعتلى كرسيها الأسقفى عام ٣٤٤، قد تمكن بدهائه وفطنته أن يجمع حوله كلا الخصمين ممثلين فى ديودوروس Diodorus وفلافيانوس Flavianus وهما من النيقيين العلمانيين، إلى جوار شماسه وفتاه آيتيوس Aetius الأريوسى المتطرف^(٩)، وتمكن بذكائه من أن يسترضى جميع الأطراف، حيث كان يردد دائماً عبارته الشهيرة "إذ ذاب الجليد فلن يخلف إلا الوحل"^(١٠).

وقد غرقت أنطاكية بالفعل فى هذا الوحل بعد وفاة ليونتيوس، إذ لم يلبث خلفه يودوكسيوس Eudoxius، الذى لم يمض فى أسقفية أنطاكية أكثر من عامين (٣٥٨-٣٦٠)، أن انتقل إلى كرسى القسطنطينية، وأقدم الأريوسيون سنة ٣٦١ على اختيار مليتيوس Meletius الذى كان أسقفاً لسيواس ثم حلب، وقد اعتبره الفريق الأريوسى أحد أنصاره، بعد أن وقع على مرسوم العقيدة الهوموية التى

(٧) SOCRAT. Hist. Eccl. I 24.

(٨) توالى على أسقفية أنطاكية بعد عزل يوستاتيوس عدد من الأساقفة كلهم من الأريوسيين من بينهم يولاليوس Eulalius ثم فلاكيلوس Flacillus ثم يوفرونيوس Euphronius الذى شهد مجمع التدشين سنة ٣٤١، ثم اسطفانوس Stephanus الذى حضر مجمع فيليببوليس Philippolis فى تراقيا سنة ٣٤٣. ولم يلبث أن عزل فى نفس العام ليخلفه ليونتيوس.

(٩) THEOD. hist. eccl. II 9

(١٠) SOZOM. hist. eccl. III 20.

غدت تمثل الأريوسية الحكومية ولها السيادة في أواخر عهد قسطنطيوس^(١١)، على النحو الذي قدمنا.

ويبدو أن الأسقف الجديد حاول أن ينهج سبيل سلفه الأسبق ليونتيوس، غير أن الزمن لم يكن الآن في صالحه، ففي أربعينيات القرن الرابع، كانت الإمبراطورية تتقاسمها الأريوسية في الشرق والنيقية في الغرب، الأولى يناصرها قسطنطيوس، وقنسطانز يعضد الثانية. وكان إمبراطور الشطر الشرقي يخشى أخاه، خاصة بعد ظروف الحرب السيئة التي كان يخوضها ضد فارس، والهزائم التي لقيها على أيدي القوات الفارسية، إلى الحد الذي رضخ فيه لأوامر أخيه حين سمح بإعادة أساقفة النيقية، الذين كان قد نفاهم، إلى كراسيهم الأسقفية. أما في الستينيات من ذلك القرن، فقد تبدل الحال غير الحال، حيث غدا قسطنطيوس الإمبراطور الفرد غداة انتصاره على قاتل أخيه ماجننتيوس Magnentius عام ٣٥١، وأصبحت الأريوسية هي صاحبة السيادة في شطري الإمبراطورية، حتى ولو كان ذلك من الناحية النظرية فقط في النصف الغربي.

غير أن مليتيوس لم يدرك هذه الحقيقة، حين أراد أن يكون معتدلاً. إذا أنه حاول أن ينأى بنفسه عن هذا المعترك اللاهوتي، فتحاشى بادئ ذي بدء الخوض في المسائل العقيدية وخص بالمسائل الأخلاقية عظمته. غير أن الأريوسيين فطنوا إلى ما يعتمل في نفس أسقف أنطاكية الجديد، فضيقوا عليه الخناق، خاصة جورج أسقف اللاذقية الذي كان يعتبر نفسه أحق بكرسي أنطاكية من مليتيوس، وأكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، تلميذ يوسيبوس وخلفه، والأمين الآن على الهوموية التي كانت من بنات أفكاره. فاضطر مليتيوس أمام مضايقاتهما أن يكشف عن خبيئ صدره، فراح يبشر الجموع بالنيقية، وإن كان قد أغفل مصطلح "الهوموسية". وعليه، سعى الأريوسيون بالنبا إلى قسطنطيوس، فأصدر على الفور قراره بعزله من الأسقفية، ولم يكن قد مضى على رسامته أكثر من شهر واحد، وأمر بنفيه إلى أرمينيا، وتم اختيار يوزيوس Euzius صديق آريوس ورفيق دعوته ومنفاه^(١٢).

(١١) SOCRAT. hist. eccl. II 4' THEOD. hist. eccl. II 27.

SOCRAT. hist. eccl. II 44; SOZOM. hist. eccl. IV 22.

(١٢) THEOD. hist. eccl. II 24.

هكذا دخلت أنطاكية ولفترة طويلة من الزمن، فى دوامة الشقاق العقيدى يتنازعها الأريوسيون وعلى رأسهم يوزيوس، وأتباع مليتيوس وهم يمثلون النيقيين المعتدلين، والنيقيون القدامى أو المتطرفون، الذى عرفوا باليوستاتيين نسبة إلى زعيمهم يوستاتيوس الأسقف الأنطاكي الذى عزل من قبل على يد الإمبراطور قسطنطين، وهؤلاء رفضوا الدخول فى شركة مليتيوس ودعيته، بحجة أنه رسم على يد الأريوسيين وأن أتباعه عملوا بواسطتهم، واختاروا من بينهم باولينوس Paulinus ليكون لهم أسقفاً وزعيماً.

وكان يوزيوس حريصاً على أن لا يلتقى الفريقان النيقيان حتى لا يشكلا على سلطانه الأريوسى خطورة قد تودى به، وبصفة خاصة بعد موت الإمبراطور قسطنطيوس واعتلاء جوليان العرش، والذى كشف عن عداوته وازدراءه للمسيحية وسعى خلال عهده القصر ليعث إلى الحياة عقيدة الإمبراطورية القديمة، الوثنية.. ولما كان النيقيون المعتدلون يشكلون الأكثرية النيقية فى أنطاكية فقد حاول استمالة الأقلية المتطرفة، لا إلى عقيدته، ولكن إلى صفه، ابتغاء تعميق هوة الشقاق بينهما، فسمح لهذه الأقلية اليوستاتية أن تمارس طقوسها فى إحدى الكنائس الصغيرة داخل المدينة، بينما حرم ذلك على الآخرين.

لم يطل المقام بمليتيوس فى المنفى، فعاد مع غيره من الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس، بناء على المرسوم الذى أصدره جوليان، والذى كان يهدف من ورائه أن يقتل المسيحيون وأنفسهم ليمهدوا بأيديهم تحقيق رغبته فى العودة إلى الوثنية، بعد أن تأكل المسيحية نفسها بأيدي أبنائها، ولما وجد الصورة على هذه الحال، فقد رفض الدخول فى هذه المناورة التى يتبعها يوزيوس، وآثر أن ينسحب برعيته خارج أسوار المدينة ليؤدى لهم مهام الخدمة الكنسية^(١٣).

وكان الأسقف السكندري أثناسيوس من بين من عادوا إلى بيعهم، وجذبته إلى دوامتها أحداث الشقاق الأنطاكي، فانتهاز فرصة عقد مجمع الإسكندرية، الذى التأم فى عام ٣٦٢ بناء على دعوته، وضم واحداً وعشرين أسقفاً لبحث قضية هذا

(١٣) SOCRAT. hist. eccl. III 9; SOZOM. hist. eccl. V 9.

الشقاق. ولما كان أثناسيوس صديقاً حميماً للأسقف الأنطاكي القديم يوستاتيوس، فإنه كان يميل إلى مناصرة أشياعه، إلا أنه أثر إلى حد ما جانب الاعتدال، وإن كان بما لا يضر بمصلحة الفريق الذي يؤيده، ورغبته في أن يضم المسيحيون صفوفهم لمواجهة هذا الخطر المائل في جوليان ومحاولته إعادة الوثنية، وللتصدي أيضاً للأريوسيين في أنطاكية وزعيمهم يوزيوس. ومن هنا جاءت رسالة المجمع التي كتبها أثناسيوس وبعث بها إلى الأنطاكيين Tomus ad Antiochenos دعوة صريحة إلى المصالحة بين الفريقين، وإن كانت قد طلبت من مليتيوس وأتباعه الدخول في شركة باولينوس^(١٤).

إلا أن جهود المجمع السكندري ذهبت سدى من جراء الموقف الذي وقفه لوكيفريوس Luciferius أسقف كالياري Cagliari (في سردينيا) وكان قد نفى عام ٣٥٥ إلى مصر على يد قسطنطيوس عقب معارضته لقرارات مجمع ميلانو المنعقد في نفس العام والخاصة بادانة أثناسيوس، وقد شاركه قدره زميله يوسيبيوس أسقف فرسالي^(١٥) Vercellae وقد اتفقا في طريق عودتهما من المنفى أن يتجه الأخير إلى الإسكندرية للمشاركة في مجمعها، على حين يرحل لوكيفريوس إلى أنطاكية لبحث عن حل للشقاق فيها، إلى أن يأتيه قرار المجمع السكندري. غير أن الأسقف السرديني كان نيقياً متطرفاً، شديد المقت للأريوسية، وكان من الطبيعي أن يأخذ جانب اليوستاتيين المتطرفين، ولذا فإنه لم يتوان حالة وصوله إلى أنطاكية، فقام برسم باولينوس Paulinus أسقفاً على أنطاكية^(١٦). فدعم من جانبه أسباب الشقاق بين النيقيين وأنفسهم، ولذا لم يكن أمام يوسيبيوس الفرسالي، الذي جاء من الإسكندرية إلى أنطاكية يحمل رسالة المجمع، إلا أن يحرث في البحر وهو يحاول البحث عن حل لرأب هذا الصدع، وأن يغود إلى بيعته ملتزماً الصمت احتراماً لزميله لوكيفريوس، مظهراً الأسى لما حل بالنيقية في أنطاكية.

ATHANAS. Tomus ad Antiochenos, 3-4. (١٤)

SOCRAT. hist. eccl. III 6, 9; SOZOM. hist. eccl. V 12; (١٥)

Chadwick, op. cit. pp. 140, 147.

THEOD. hist. eccl. III 2. (١٦)

وقد حاول أثناسيوس هذه المحاولة مرة ثانية على عهد الإمبراطور جوفيان، أى بعد عام فقط من انعقاد مجمع الإسكندرية، منتهزاً فرصة وجوده فى أنطاكية للقاء الإمبراطور. ويصف سوزومنوس جهود أثناسيوس هناك بأنها كانت "فى حدود الممكن"^(١٧). ولم يكن "الممكن" هذا يتعدى إطار صداقة الأسقف السكندرى لأسقف اليوستاتيين. والغريب أن كلا الأسقفين راح يوسع بيديه شقة الخلاف. فمليتيوس قبل فى شركته أكاكىوس أسقف قيسارية وأتباعه الذين تحولوا الآن على عهد جوفيان إلى النيقية بعد أن رأوا مناصرة الإمبراطور لأتباعها، فأدى هذا العمل بالتالى إلى زيادة نفور أثناسيوس منه دون سبب واضح. بينما أقدم باولينوس على رسم أسقف لكنيسة صو يدعى ديودوروس Diodorus فاعتبر مليتيوس ذلك اعتداء على حقوقه باعتباره أسقف أنطاكية الشرعى وزعيم الأغلبية النيقية، والذي له الحق القانونى فى اختيار أساقفة هذه المناطق. ومن هنا يمكننا إدراك فحوى العبارة التى ذكرها المؤرخ الكنسى سوزومنوس تعليقاً على جهود أسقف الإسكندرية فى أنطاكية، ويبين لنا أيضاً أنه لم يستطع أن يحقق أى نجاح لتضييق هذا الصدع، خاصة لموقفه الواضح المؤيد تماماً لباولينوس اليوستاتى.

إلا أن الحظ ابتسم قليلاً لليوستاتيين عندما أقدم الإمبراطور فالنز على نفى مليتيوس باعتباره يمثل الأغلبية النيقية، التى تشكل خطراً على أسقفه الأريوسى فى أنطاكية، يوزيوس، وأنزل بأتباعه الذين رفضوا الدخول فى شركة الأريوسيين، العذاب الأليم، هذا بينما سمح لباولينوس بالبقاء وإشباعه بأداء طقوسهم. الكنيسة، فلم يكن يرى فيهم خطراً يهدده إلا من ناحية تحالفهم مع أثناسيوس، وهذه كان قادراً على التخلص منها حينما قام بنفى الأسقف السكندرى.

ولم تكن خطورة الشقاق الأنطاكى تكمن فى تفريق الجماعة النيقية فى المدينة، بل فى امتداده ليشمل كنائس الشرق والغرب معاً. وهذه هى السمة الرئيسية التى صبغت النزاع النيقى فى أنطاكية، ولم تعد المشكلة ممثلة فى الخلاف العقيدى بين النيقيين والأريوسيين، بل بين النيقيين وأنفسهم، وجروا وراءهم فى ذلك أسقفيات عديدة أخرى.

فبينما وقفت الإسكندرية تؤيد باولينوس، لصداقة قديمة تربط بين أثناسيوس ويوستاتيوس، ولتقارب كبير بينهما في الفكر والعقيدة، كان آباء كبادوكيا الثلاثة باسل الكبير أسقف قيسارية، وجريجورى أسقف نازيانزا ومن بعد القسطنطينية، وسميه أسقف نيسا، يناصرون مليتيوس وجماعته النيقية المعتدلة، فهؤلاء كانوا يمثلون جيل النيقية الجديد الحريص على أن ينهل من الثقافة اليونانية، والذي يتسم بالاعتدال والفكر^(١٨). وكانت هذه النقطة بالذات من أهم نقاط الخلاف بين أثناسيوس السكندري وباسل الكبادوكي رغم الصداقة التي كانت تربط على البعد بين الرجلين، رغم عدم التقائهما. ولما كان الغرب الأوربي قد وصل منذ البداية صفوفه بأثناسيوس منذ جاءه منفياً (٣٣٥) ثم لائذاً (٣٣٩) ورأى فيه تجسيدا للنيقية التي آوى إليها منذ عام ٣٢٥ ولم يبع عنها حولاً، فقد راح أساقفة الغرب بالتالى يناصرون باولينوس وجماعة اليوستاتيين، دون إدراك حقيقى لمغزى الخلاف أو طبيعته اللاهوتية أو حتى واقعه العملى.

وتفصح الرسائل العديدة التى بعث بها باسل الكبير إلى مليتيوس الأنطاكي عن مدى التقارب بينهما فى وجهتى النظر، ومدى الألم الذى يعانى به الأسقف الكبادوكي من جراء هذا الشقاق^(١٩). على أن الرسائل التى كتبها إلى صديقه السكندري هى التى تكشف عن الجانب الرئيسى فى هذا النزاع، والأمل الذى يعلقه باسل على أثناسيوس فى حل هذا الخلاف، وإطلاع الغرب على حقيقة المشكلة، "لأنه ليس هناك من هو أقدر منه على علاج هذه الحال"^(٢٠)، بل إن باسل يغدو أكثر صراحة عندما يذكر لأثناسيوس أن خير حل لهذا الصدع أن تتحد كل هذه الفرق تحت رعاية مليتيوس، وهذا بالطبع عكس ما أراد أثناسيوس فى رسالته الجمعية إلى الانطاكيين التى ترى الاتحاد بزعامة باولينوس. ولكن باسل يمضى فى رسالته طالباً إلى أثناسيوس أن يتدخل لدى باولينوس لإقناعه بالدخول فى شركة مليتيوس، "حيث أن هذا دون شك سوف يحفز أساقفة الغرب الذين يقفون صفاً

Neander, Christian religion and church, IV pp. 7-78. (١٨)

BASIL, epp. LVII, LXVII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXVI. (١٩)

BASIL. ep LXVI. (٢٠)

واحداً وراء أثناسيوس يؤيدون باولينوس إلى أن يحذو حذوه، فإذا أقدم الأسقف السكندري على ذلك تبعه الغرب دون عناء^(٢١).

ويبدو أن المراسلات كانت دائرة بين أثناسيوس وأساقفة الغرب حول هذه المشكلة، وأن الأسقف السكندري كان يطلع صديقه الكبادوكي أولاً بأول على فحوى هذه الرسائل، وذلك نعلمه من رسالة بعث بها باسل إلى أساقفة الغرب جميعاً يطلعهم فيها على وجهة نظره حول الشقاق الأنطاكي، وعلى تبادل الآراء بينه وبين الإسكندرية^(٢٢). ولم يلبث أن كتب في صراحة تامة إلى أثناسيوس يطلب إليه أن يبعث إلى أسقف روما يخبره بهذه الأحداث التي يتعرض لها النيقيون في الشرق على يد الإمبراطور فالنز، وكذلك المشكلة الأنطاكية التي تزداد سوءاً بمرور الزمن^(٢٣). ولما لم تعد الرسائل وحدها بين الرجلين كافية، أرسل أثناسيوس أحد رجال إكليروسه ويدعى بطرس، وهو الذي أصبح أسقفاً للإسكندرية من بعد، حيث استقبله باسل بما يليق بمكانة صديقه السكندري، ورد الأسقف الكبادوكي على ذلك بإرسال شماسه الأنطاكي دوروثيوس Dorotheus ليعرض عليه حقيقة النزاع الأنطاكي بكل جوانبه، راجياً التدخل لإنهائه بما يحقق صالح النيقية بعد أن اشتدت أزمة الاضطهاد من جانب فالنز^(٢٤).

وتحدد هذه الرسائل الفترة الواقعة بين السنوات الأخيرة من ستيليات القرن الرابع والعامين الأولين من سبسينياته، وفي العالم التالي مات أثناسيوس (٣٧٣) دون أن يتحول قيد أنملة من تأييده لليوستاتيين وزعيمهم باولينوس، وأورث الغرب قبل وفاته هذا التأيد، وكان بالأحرى قد أورثه لخلفائه على كرسى الإسكندرية، ومن ثم لم يكتب للمشكلة الأنطاكية أن تنتهي على المدى القريب، وظلت الإسكندرية والغرب يقفان في جانب، وأساقفة كبادوكيا يناصروهم نفر من إكليروس الشرق في الجانب

(٢١) BASIL, ep. LXVII للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث جميعها راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، الفصل العاشر.

BASIL, ep. XCI. (٢٢)

BASIL, ep. LXIX. (٢٣)

Id. (٢٤)

الآخر إزاء الانشقاق النيقى فى أنطاكية، حتى بعد أن انتهت السيادة الأريوسية فى الإمبراطورية. وزاد من تأصيل هذا الاتجاه فى الغرب وجود بطرس السكندرى هناك فى ضيافة الأسقف الرومانى، وذلك بعد أن فر من الإسكندرية وراح يوحى إلى أسقف روما وأكليروس الغرب، متأثراً بسلفه وأستاذه، بضرورة البقاء على تأييدهم لباولينوس، واعتبار مليتيوس خارجاً عن الإيمان القويم.

وقد ظهرت آثار ذلك واضحة عندما عاد الكاهن الأنطاكى إيفاجريوس Evagrius من روما فى أوائل عام ٣٧٤، وأعلن على الفور دخوله فى شركة باولينوس ورفض الاعتراف بمليتيوس^(٢٥). ولم يلبث باسل الكبادوكى أن كتب إلى أساقفة غالة وإيطاليا يوضح لهم ما تلقاه الكنائس الشرقية من عنت على يد الأريوسيين، ويطلب إليهم النظر بعين العقل والحكمة فيما يتعلق بالمسألة الأنطاكية والموقف فى الشرق بصفة عامة، وحمل هذه الرسالة دوروثيوس الأنطاكى^(٢٦). وقد صادف هذه البعثة عقد مجمع فى روما ترأسه الأسقف الرومانى داماسوس، وقد أجاب المجمع نداء باسل وأساقفة الشرق بصفة عامة وأصدر قراره بإدانة أبوليناريوس أسقف اللاذقية^(٢٧).

وكان ذلك مشجعاً لباسل كى يكتب من جديد إلى أساقفة الغرب يشكرهم لهذا الموقف، ويصر على إعلان تأييدهم لمليتيوس الأنطاكى، وصرح جهاراً فى رسالته بإدانة باولينوس^(٢٨). وكان داماسوس قد دعا أيضاً إلى عقد مجمع محلى فى روما آنذاك (٣٧٦). وما أن قرئت رسالة باسل فى المجمع، حتى أعلن بطرس السكندرى أحد شهود المجمع، رفضه لما جاء فيها خاصة بباولينوس، وخلع الإدانة على مليتيوس، مما دفع دوروثيوس المندوب الأنطاكى الذى كان يحمل رسالة باسل، إلى أن يرد على هذه الاتهامات، فأعلن المجمع تأييده الكامل لباولينوس وإدانته لمليتيوس، وأعاد من جديد إدانة أبوليناريوس، وكذا فيتاليس Vitalis الذى

BASIL. epp. CXXXVIII; CLVI. (٢٥)

BASIL. ép. CCXXXIX (٢٦)

Hefele, op, cit. II, p. 289. (٢٧)

BASIL. ep. CCLXIII. (٢٨)

كان أحد أتباعه^(٢٩). والذي انتهز فرصة وفاة يوزيوس الآريوسي أسقف أنطاكية، ليعلن نفسه أسقفا للمدينة، رغم اختيار دوروثيوس أسقفا لها. وهكذا أصبح كرسي أنطاكية الأسقفى يحتله أربعة أساقفة، باولينوس اليوستاتي، ودوروثيوس، وفيتاليس الأبوالينارى، بالإضافة إلى مليتيوس زعيم النيقيين المعتدلين، والذي كان ما يزال فى منفاه.

وبمقتل فالنز عام ٣٧٨ وصدر مرسوم التسامح الجراتياني، عاد مليتيوس إلى أنطاكية ليجد المشكلة قد تفاقت وازداد الشقاق. ويتفق مؤرخو الكنيسة جميعهم على أن اتفاقاً جرى عقده بين مليتيوس وباولينوس بحضور الأساقفة الذين لهم حق الترشيح للأسقفية فى أنطاكية، وكان من بينهم فلافيانوس Flavianus الذى اختير أسقفاً بعد وفاة مليتيوس. وقضى هذا الاتفاق بأن لا يحاول أحد من هؤلاء المرشحين اعتلاء كرسي الأسقفية فى حياة الرجلين، مليتيوس وباولينوس. وأن لا يقدم أحد على ذلك إلا بعد وفاتهما^(٣٠). غير أن هذا الاتفاق لم يرع من جانب أحد ممن وقعوا عليه، كما ستوضح مجريات الأمور.

ويحاول بعض المؤرخين^(٣١) أن يتخذ من مرسوم ثيودوسيوس اللذين أصدرهما فى ٢٨ فبراير سنة ٣٨٠، و ١٠ يناير ٣٨١ دلالة على وقوعه تحت تأثير الغرب فى موقفه من المشكلة الأنطاكية، ولكن هذا الرأى لا يمكن قبوله على علته؛ ذلك أن المرسوم الأول صدر والإمبراطور بعد فى سالونيك، وجاء فيه أن الإيمان الحق هو ما دان به بطرس أمير الرسل وبه بشر، والذي يؤمن به الآن داموسوس أسقف روما وبطرس أسقف الإسكندرية^(٣٢). ومن الملاحظ

(٢٩) SOZOM. Hist. Eccl. VI 25; THEOD. Hist. Eccl. V. 16.

(٣٠) SOCRAT. Hist. Eccl. V 5; SOZOM. Hist. Eccl. VII 3; THEOD. Hist. Eccl. V 3.

وقارن: أسد رستم: كنيسة أنطاكية. الجزء الأول، ص ٢٥٣ حيث ينفى اعتمادا على كافاليرا فى كتابه الشقاق الانطاكى ما يذكره مؤرخو الكنيسة من أنه تم الاتفاق بين الرجلين على رئاسة مزدوجة للكنيسة طيلة حياتهما، على أن تصبح هناك رئاسة موحدة بعد وفاتهما أو وفاة أحدهما. لكن هذا الرأى لا تؤيده المصادر، ولا حتى الأحداث التى وقعت بعد ذلك فى مجمع القسطنطينية المسكونى سنة ٣٨١.

(٣١) أسد رستم: كنيسة أنطاكية. الجزء الأول، ٢٥٤.

(٣٢) Cavallerra, schisme d' Antioche.

على هذا المرسوم أنه تضمن أسقفيتي روما والإسكندرية فقط. ولمن يكن بمقدور الإمبراطور أن يضيف إليهما أية أسقفية أخرى، فالقسطنطينية تخضع لديموفيلوس، وأنطاكية لدروثيوس، وكلاهما على الأريوسية. وهما الأسقفان الشرعيان من وجهة النظر الرسمية. إذن فلم يكن هناك مجال لذكر أنطاكية أو باولينوس أو ميليتيوس. وعليه لا يمكن أن نفسر خلفية هذا المرسوم بأنه انحياز لباولينوس الذي تؤيده الإسكندرية ومن ورائها روما والغرب. ولا يمكن أيضاً أن يعد المرسوم الثاني الذي صدر بعد دخوله القسطنطينية شهرين تقريباً، تراجعاً عن هذا الموقف المؤيد لباولينوس حسب اعتقاد البعض، وانتصاراً لميليتيوس، "بعد أن تأكد لدى الإمبراطور أن نجاح سياسته الدينية يتوقف على تأييد هذه الجماعة". ذلك أن المرسوم الثاني جاء عاماً ومؤيداً للمرسوم الأول، حيث أعلن أن لقب الكنيسة الجامعة سوف يقتصر فقط على أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة النيقية، أما الخارجون عن هذه العقيدة فسوف يلقون الاحتقار والازدراء، وسوف يعرضون أنفسهم لعذاب أليم (٣٣) وكان هذا أمراً طبيعياً بعد أن أعلن الإمبراطور صراحة تأييده للنيقية، وبعد أن دعا إليه أسقف القسطنطينية الأريوسى ديموفيلوس، وعرض عليه الدخول فى شركة النيقيين أو تسليم الكنائس التى بأيدي أتباعه، مما اضطر الأسقف الأريوسى إلى الارتحال هو ورعيته إلى خارج أسوار العاصمة، ولم يلبث الإمبراطور أن وجه الدعوة إلى عموم الأساقفة فى الكنائس الواقعة فى أقاليم سيادته لعقد مجمع القسطنطينية.

ومن الواضح أن الأحداث التى سبقت انعقاد المجمع، قد تركت آثارها واضحة على المواقف المختلفة لأعضائه. فلا شك أن الإسكندرية أغضبها خيبة الأمل التى منيت بها من جراء الإطاحة بمرشحها لأسقفية العاصمة ماكسيموس الكلبي، وآلمها أن ترى أسقف مدينة صغيرة فى آسيا الصغرى يعتلى كرسي القسطنطينية الأسقفى، ومن ثم كان لابد لها أن تحقق لنفسها ما تبتغى، وأن تسعى إلى ذلك ما وسعتهما السبل. وزاد الأمر سوءاً أن ميليتيوس الأنطاكى، أسقف الاكثرية النيقية المعتدلة هو الذى حضر المجمع ممثلاً لأنطاكية، وهو الذى تولى رسامة جريجورى النازيانزى وهو الذى ترأس المجمع، لذا ما لبثت المشكلة

الأنطاكية أن سيطرت على جلسات المجمع، وانتقلت إليه عدوى الشقاق الحادث في أنطاكية، عندما مات مليتيوس أثناء انعقاد المجمع.

رأى جريجورى النازيانزى الذى تولى رئاسة المجمع بعد وفاة مليتيوس، أن يحافظ على الاتفاق الذى تم بين مليتيوس وباولينوس عقب عودة الأول من المنفى، وكان هذا يمثل الطريق الوحيد لرأب هذا الصدع، وهو يعنى أن يصبح باولينوس الآن الأسقف النيقى الوحيد الذى يتولى رعاية الجماعة النيقية فى أنطاكية.

لكن هذا الاتجاه لقي معارضة من جانب مجموعتين متباعدتين تماماً.. المجموعة الأولى يمثلها صغار أساقفة الشرق وبعض الشيوخ، بحجة أن افراد باولينوس بالأسقفية يمثل انتصاراً لأساقفة الغرب ومن قبلهم الكنيسة السكندرية، ونزولاً من الأساقفة الشرقيين عند رأى زملائهم أكليروس الغرب^(٣٤). والمجموعة الثانية يتزعمها الأسقف السكندرى، على الرغم من أن هذا الموقف من جانب جريجورى يعتبر تأييداً لوجهة النظر السكندرية، إلا أن اعتراض الوفد السكندرى كان نابعاً من أن مليتيوس وشيعته قد رسموا أو عُمِدوا على يد الأريوسيين، وأنهم سمحوا بدخول أكايوس القيسارى وأتباعه، الأريوسيين الهومويين، فى شركتهم، ومن ثم لا يمكن قبولهم ضمن دائرة الإيمان النيقى الأصيل. لكن الحقيقة التى تتراءى لنا أن الإسكندرية كانت تخشى ما سوف يحدث مستقبلاً بعد وفاة باولينوس الذى تقدم به العمر، وهو أن النيقيين المعتدلين الذين يمثلون الأغلبية، وتضيق فى وسطهم النيقية اليوستاتية، بدخول أتباع مليتيوس فى شركة باولينوس، سوف يصبح لهم الصوت الأعلى واليد الطولى بعد ذلك فى اختيار أسقف جديد واحد للبيعة الأنطاكية، وهذا ليس فى صالح الإسكندرية التى تريد دوماً وجود أنصار لها فى أنطاكية، كما هو حادث فى القسطنطينية، ولهذا فإن الإسكندرية دون شك تتحمل مسؤولية كبيرة فى امتداد أمر الشقاق الأنطاكى من بعد سنين عدداً، لأن موافقة الإسكندرية كانت تعنى موافقة روما والغرب على هذا الإجراء.

SOZOM. hist. eccl VII 4. (٣٤)

SOZOM. hist. eccl. VII 4; Hefele, op. cit. II p. 346.

SOZOM. hist. eccl V 9; SOZOM. hist. eccl VII 11;

ولا ريب أن الأنطاكيين أنفسهم يتحملون أيضاً جزءاً من مسئولية استفحال هذا الشقاق، ذلك أنهم أقدموا على الفور، عقب معرفتهم بوفاة مليتيوس، باختيار فلافيان أحد أنصاره أسقفاً للمدينة، ضاربين عرض الحائط بما تم إقراره من قبل بين باولينوس ومليتيوس^(٣٥)، رغم أن فلافيانوس نفسه الذي تم اختياره، كان أحد شهود هذا الاتفاق، ولقى الأنطاكيون، أو بتعبير أدق، النيقيون المعتدلون، في انقسام المجمع المسكوني الثاني على نفسه إزاء ذلك فرصة لتحقيق هدفهم، بالإضافة إلى التأييد الذي لقيوه من جانب عدد من أساقفة المجمع. ولا تفوت هذه الأحداث على عيني المؤرخ الكنسي الناقد سقراط دون تعليق، حيث يقول "أن هذا الشقاق لم يكن راجعاً إليّ. خلاف في المعتقد بقدر ما كان ناتجاً ببساطة عن الأهواء الشخصية"^(٣٦).

وقد علمنا أن مجمع روما الذي عقد في سنة ٣٨٢، قد رفض في حضرة رسل الشرق الاعتراف برسامة فلافيانوس، وأعلن إدانته وحرمانه وكذا ديودوروس الطرسوسي وأكاكيوس الحلبي لقيامهما بسيامته، هذا على الرغم من أن مجمع القسطنطينية المنعقد في نفس العام قد أقر شرعيته اختيار فلافيانوس. ولم يلبث الإمبراطور ثيودوسيوس أن دعا لعقد مجمع ثالث في القسطنطينية في العام التالي (٣٨٣) على التوالي، كان من بين ما ناقشه من قضايا، الشقاق الحادث في أنطاكية. غير أن المجمع لم يسفر عن شيء في النهاية إلا زيادة الانقسام بين الكنائس المختلفة في الشطر الشرقي من الإمبراطورية، ذلك أن كنيسة الإسكندرية بقيت على موقفها المؤيد لباولينوس، بناصرها كنائس قبرص والعربية Arabia بينما راحت كنائس فلسطين وفينيقيا وسوريا والجزء الأكبر من أرمينيا وكبادوكيا وغلاطية وبونطس تؤيد فلافيانوس^(٣٧).

ولم يكن موت باولينوس عام ٣٨٨ - على حد قول ثيودوريتوس^(٣٨) - كافياً للقضاء على شعور الكراهية والحقد الكامنين في نفس كل من الفريقين تجاه

THEOD. hist. eccl. V 23. (٣٥)

SOCRAT. hist. eccl. V 9. (٣٦)

SOCRAT. hist. eccl. V 10; SOZOM. hist. eccl. VII 11. (٣٧)

THEOD. hist. eccl. V 23 (٣٨)

بعضهما البعض، وساعد على ذلك موقف باولينوس نفسه، ذلك أنه عندما حضرته الوفاة أقدم على انتهاك القانون الكنسي الذي يحرم اختيار الأسقف لخليفته (٣٩). واختار أحد قسيسيه ويدعى إفاجريوس Evagrius خلفاً له فزاد هذا الإجراء الأمر تعقيداً، واستمر الشقاق قائماً، وسلك كل من الفريقين الآن سبيلاً جديداً بالتقرب إلى الإمبراطور، ومحاولة كل منهما إغيار صدر ثيودوسيوس على الفريق الآخر، وكسب تأييده وضمه إلى صفه. ولما كان الإمبراطور يقيم الآن في الغرب بعد انتصاره على ماكسيموس، فقد أوعز إليه أسقفاً روما وميلانو أن يدعو فلافيا للالتقاء بإفاجريوس في الغرب لحسم هذا النزاع، وإيماناً منهما بأن الإمبراطور لابد أن يحقق لهما بغيتهما، خاصة أمبروز بعد ما كان من موقفه من الإمبراطور عقب مذبحة سالونيك (٤٠). وقد طلب الإمبراطور بالفعل من فلافيانوس الارتحال إلى الغرب لبحث مسألة الشقاق الأنطاكي هناك، وفي سبيل ذلك جرت الاستعدادات لعقد مجمع في كابوا سنة ٣٩١، وتحمس له الأسقف الميلاني بصفة خاصة، غير أن فلافيان أبي أن يعاد النظر من جديد في أمر شرعية اختياره للأسقفية، واعتذر للإمبراطور بالشتاء القارص، ووعد بالذهاب عندما يأتي الربيع، فقبل منه ثيودوسيوس ذلك (٤١). وكان طبيعياً أن يفشل مجمع كابوا في مهمته في غياب زعمي الفريقين المتصارعين.

Id. (٣٩)

(٤٠) انظر الفصل الخامس.

(٤١) يذكر ثيودوريتوس أن الإمبراطور أعاد تحت تأثير أسقف روما تجديد أوامره إلى فلافيانوس بالارتحال إلى الغرب، وحاول إكراهه على ذلك، وأمام هذا أعلن فلافيانوس تحديه لأسقف روما، وطلب إلى الإمبراطور عقد محكمة أكليروسية لمحاكمته، إذا كان أحد يستطيع أن يتهمه في دينه أو شخصه، أما إذا كانت المسألة تتعلق فقط بحسده على بلوغه هذا المنصب، فإنه سوف يتخلى عن منصبه تاركاً للإمبراطور مهمة اختيار الشخص المناسب، فلم يكن من الإمبراطور إلا احترام شجاعة فلافيانوس، وإبقائه على اسقيته مكرماً. وأعلن أمام لجانة روما باتخاذ موقف ضد فلافيانوس، أنه يحمي الأسقف الأنطاكي الشرعي فلافيانوس، ودعا الأكليروس في الغرب أن لا يدع الخلافات الشخصية تحكم علاقاتهم الكنسية. انظر THEOD. hist. eccl. V 23;

SOCRAT. hist. eccl. V 15; SOZOM. hist. eccl. VII 15;

RVFIN. Hist. eccl. II 21-24. و

ويبدو أن الغرب قد اقتنع في النهاية أنه لا قبل له بمثل هذه الخلافات الحادثة في الشرق، والتي أرهقته من أمره عسراً، ولذا فقد اتفق أمبروز الأسقف الميلاني، مع أسقف روما على أن يكلا إلى أسقف الإسكندرية ثيوفيلوس Theophilus، الذي خلف تيموثي عام ٣٨٥، التصرف في هذا الأمر حسبما يرى. ودارت المراسلات بين أمبروز وسيريقيوس Siricius أسقف روما، وهذا والأسقف السكندري حول هذا الشأن، وسعى فلافيانوس من جانبه أيضاً لدرء هذا النزاع، فراح ي كاتب كلا من أسقف روما والأسقف السكندري، موضحاً لهما حقيقة موقفه وشرعية اختياره، وقد آتت هذه المحاولات أكلها، فالتأم عقد مجمع محلي في قيسارية فلسطين في عام ٣٩٢ لبحث هذه المشكلة، واعترف المجمع بأسقفية واحدة لأنطاكية تحت رعاية فلافيانوس. ويبدو أن الذي ساعد على ذلك هو وفاة افاجريوس اليوستاتي، مما دفع الإسكندرية للتخلي عن موقفها المؤيد لليوستاتيين، هذا بالإضافة إلى أن الإمبراطور كان أيضاً قد أبدى تعاطفه مع فلافيانوس. ورغم ذلك فإن الغرب قد ظل على ترده في الاعتراف بفلافيانوس، ولم يقبل ذلك إلا بعد سبعة عشر عاماً من اشتداد أوار الشقاق (٣٨١-٣٩٨) عندما أبدى استعداد له لاستقبال الوفد أرسله الأسقف الأنطاكي برئاسة أكايوس أسقف حلب، وترحيبه به^(٤٢). وأن كان ذلك قد تم بعد وفاة ثيودوسيوس بثلاث سنوات. لكن هذا الوفاق لم يتم بصورة حقيقية، ليس أدل على ذلك مما يذكره سقراط من أن هذه الإجراءات أدت إلى عودة الوثام الظاهري بين هذه الكنائس وإسباغ الهدوء المشوب بالقلق في أنطاكية^(٤٣).

وقد تركت أحداث الشقاق الكنسي الأنطاكي آثارها البعيدة وبصماتها الواضحة على نفوس أهالي أنطاكية، فدفعتهم إلى حالة من التوتر كانت تبحث لنفسها عن مخرج معين تصب فيه غضبها المكبوت. وواتت الأهالي الفرصة إبان احتدام الأزمة بين فلافيانوس وباولينوس، وقبل أن يموت هذا الأخير بعام واحد. ذلك أنه في عام ٣٨٧ كان الإمبراطور ثيودوسيوس قد راح يعد قواته لملاقاة مغتصب العرش في الغرب ماكسيموس، واقتضت تلك الاستعدادات لإقرار الأمور

THEOD. hist. eccl. V 23. (٤٢)

SOCRAT. hist. eccl. V 15. (٤٣)

فى النصف الغربى، أن تترشح الولايات الشرقية فى الإمبراطورية تحت عبء الضرائب الباهظة التى فرضها ثيودوسيوس لمواجهة متطلبات الحرب الأهلية الآتية^(٤٤). ومما زاد الأمر سوءاً أن الإمبراطور قد شاء وسط هذه الظروف الاحتفال بالعيد العاشر decennalia لاعتلائه العرش، وفى الوقت ذاته العيد الخامس quinquennalia لإعلان ابنه أركاديوس Arcadius أوغسطساً^(٤٥). وكان هذا أيضاً يحتم بالضرورة فرض مزيد من الضرائب لتغطية النفقات الباهظة التى تتطلبها هذه الاحتفالات، بالإضافة إلى ما يتطلبه الأمر من توزيع كميات كبيرة من الذهب على الجنود تمثل أعطيات وهبات لهم تخليداً لهاتين المناسبتين السعيدتين!!

ورغم أن أنطاكية لم تكن المدينة الوحيدة التى ابتليت بفرض هذه الضريبة الاستثنائية الباهظة، إلا أن الحالة العامة التى كان عليها الجموع فى المدينة، ولفترة طويلة من الزمن، كانت سبباً فى تهيئة مواطنى أنطاكية للتمرد حتى على أى حادث عابر أو أمر بسيط. ولما لم يكن هذا الأمر بسيطاً، فقد انقلبت الحال فى المدينة إلى ثورة غارمة كان الأهالى يعبرون بها عن غيظهم المكبوت من جراء الفوضى العقيدية الحادثة فى الكنيسة والمدينة.

استدعى الشيوخ وكبار المواطنين إلى دار المحكمة، كما جرت بذلك العادة، حيث أذيع المرسوم الإمبراطورى بفرض الضريبة الاستثنائية، وقد تملك اليأس والقنوط نفوس هذا الملأ من القوم، وفعلوا ما لم يكن بمقدورهم غيره، وهو أن يقدموا احتجاجهم إلى كلسوس Celsus الحاكم العام مطالبين إياه أن ينقل إلى الإمبراطور التماسهم بتخفيف قيمة الضريبة، غير أن هذا لم يكن أمامه بحكم منصبه إلا أن يرفض الاستجابة لملتسمهم، ومن ثم لم يكن أمام شيوخ المدينة إلا الاستسلام. غير أن الجموع الحانقة لم يكن يرضيها هذا الموقف الواهن لعلية القوم، خاصة وأن العبء كله سوف يقع على كواهل هؤلاء المواطنين، وصمموا على إعلان استيائهم العام بالصورة التى تتناسب وطبيعتهم، فتجمعوا فى مظاهرة صاخبة اتجهوا بها أولاً إلى حيث يقيم أسقف الأغلبية النيقية فلافيانوس ليتدبر الأمر

(٤٤) THEOD. hist. eccl. V 19; SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٤٥) Nicene and p. n. f. III p. 145, n. 2, c. b.

مع الإمبراطور. ولا شك أن هذا التصرف في حد ذاته يوحى للوهلة الأولى بالمكانة التي كان يحتلها الأسقف النيقى المعتدل في نفوس الجموع، أثناء صراعه مع منافسه باولينوس، الذى لم يكن قد مات بعد. إلا أن المتظاهرين لم يعثروا للأسقف على أثر، وهنا تحولت المظاهرة إلى إعصار مدمر، ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم، ولما لم تغلح في الجاق الأذى بالحاكم العام الذى أعد للأمر منذ البداية عدته. وأخذ حذره، صبت الجماهير النائرة غضبها على شخص الإمبراطور ومكانته، وتمثل ذلك في تحطيم صور ثيودوسيوس والعائلة الملكية المقامة عند دار المحكمة التى تلى فيها المرسوم الضريبي، ثم اتجهوا إلى الميدان العام وربطوا تمثال الإمبراطور وتمثالي ابنه أركاديوس وزوجه الأولى بلاكيلا Placilla وجروهم فى شوارع المدينة وهم يوسعونهم ركلاً وتحطيماً، وراحوا يخلعون على الإمبراطور ألقاباً غاية فى السخرية^(٤٦). ويضمرون النار فى المنازل المجاورة للقصر الإمبراطورى حتى يمتد إليه الحريق تلقائياً^(٤٧).

تمكنت قوات الأمن فى المدينة من استعادة السيطرة عليها وإعادة الهدوء، وأقدمت على إنزال عقاب مبدئى، وإن كان أليماً، بالأهالى حتى تعيد إليهم رشدهم، فقطعت رؤوس بعض، وأحرق بعض آخر حياً، وأدخر بعض ثالث ليلقى إلى الوحوش الضارية فى الملعب ليتسلى برؤيتهم جمهور المدينة النائرة، عبرة لمن يعتبر، بينما أرسل الحاكم العام رسله إلى الإمبراطور تحمل إليه أنباء هذه الثورة التى شهدتها أنطاكية^(٤٨). وقد أدرك الجموع بعد هذا السكون القسرى الذى أعيدوا إليه، فداحة الأمر الذى أقدموا عليه، وذهبت بهم الظنون كل مذهب فى العقوبات التى سوف ينزلها الإمبراطور بالمدينة، ولهذا عول كثيرون منهم على الهروب فى

(٤٦) كان الأنطاكيون مغرمين باستخدام هذا الأسلوب الساخر دوماً مع من يصبون عليه نقمتهم، وقد تجلى هذا واضحاً فى موقفهم من الإمبراطور الوثنى جوليان عندما قدم إلى مدينتهم فى عام ٣٦٢ فى طريقه إلى الحرب الفارسية، إذ راحوا يسخرون من جهوده لإعادة الوثنية وركزوا سخريتهم على لحيته الطويلة، مما دفع جوليان إلى الرد عليهم بعمل أدبي هجائى أسماه "كاره اللحية" Misopogon.

(٤٧) THEOD. hist. eccl. V 19; SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٤٨) THEOD. loc. cit.

جماعات إلى خارج المدينة، وبذل الفيلسوف الوثني العجوز ليبانيوس Libanius جهداً كبيراً في محاولات يائسة لوقف هذا الهروب الكبير، على حين قام تلميذه يوحنا ذهبي الفم Iohannes Chrysostomus الذي كان قد رسم منذ فترة وجيزة قسيساً بيد فلافيانوس، لما توسمه فيه من فصاحة وذكاء، قام إبان فترة الصوم الكبير بإلقاء عظاته محاولاً بها انتشال رعيته من وهدة الهلع الذي رماهم به خوف العذاب. وقد بلغت في مجموعها إحدى وعشرين عظة شكلت في جملتها كتابه "عن التماثيل"^(٤٩). هذا بينما ارتحل الأسقف فلافيانوس في شتاء قارص البرودة إلى القسطنطينية ليتشفع لأنطاكية عند الإمبراطور^(٥٠).

ولكن الإمبراطور كان قد تملكه الغضب وأخذ عليه كل سبيل، فالاعتداء على تماثله وصوره وأسرته، تعنى الإهانة الحقيقية لشخص الجالس على العرش، وأى تسامح فى هذا المجال سوف يشجع على المزيد من التمرد والهيّاج، والسكوت عن هذا الذى حدث فى أنطاكية أو التساهل فيه سوف يدفع بالتالى غيرها من المناطق لإعلان راية العصيان وتحدى الأوامر الإمبراطورية بدفع هذه الضريبة الاستثنائية، والظروف السياسية التى وقعت فيها هذه الثورة لم تكن يسيرة بالنسبة لثيودوسيوس الذى كان يتجهز لملاقاة ماكسيموس وإعادة الهدوء إلى النصف الغربى من الإمبراطورية بالتحقيق الواسع والدقيق فى كل ما جرى، واقتيد بادئ ذى بدء شيوخ المدينة إلى السجن تمهيداً لمحاكمتهم.

وأذيع فى الناس مرسوم الإمبراطور بالعقوبات الأولية التى كانت تتضمن إغلاق الحمامات العامة والمسارح وميادين السباق، ومنع توزيع القمح على العامة، وتجريد المدينة من مكانتها كعاصمة إقليمية، وإنزالها إلى مرتبة القرية وجعلها تابعة إدارياً لمنافستها القديمة اللاذقية، وكان هذا إمعاناً فى إذلال أهالى أنطاكية^(٥١). ويذكر ثيودوريتوس أن الأوامر الإمبراطورية هذه لم تنفذ استناداً لما صدر عقب مذبحة سالونيك بناء على نصائح الأسقف الميلانى، أمبروز، والتى تنص على عدم

(٤٩) C. M. H. I p. 241. وأيضاً : داوْنى ، أنطاكية، ص ٢٠٢-٢٠٤،

(٥٠) SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٥١) THEOD. hist. eccl. V 19.

تنفيذ أى عقوبة إمبراطورية إلا بعد مرور ثلاثين يوماً على إصدار القرار الخاص بها^(٥٢).. ولكن الأمور اختلطت على ثيودوريتوس، ذلك أن مذبحة سالونيك وقعت بعد فترة أنطاكية بثلاث سنوات.

ومع أن حرمان المواطنين من ارتياد المسارح وحلقات السباق كان يشكل لهم ألماً بالغاً، وتلك كانت سمة المواطنين فى معظم مدن الإمبراطورية عامة، إلا أن تحطيم كبرياء أنطاكية باعتبارها حاضرة ولايات الشرق، كان يعد صفة قوية لشيوخ المدينة وجموعها على السواء، ولعل هذا يتضح جلياً فى أن يوحنا ذهبى الفم قد خصص العظة السابعة عشرة من عظاته للحديث عن هذه الناحية، إذ راح يواسى الجموع قائلاً :

"هل تحزنون لأن عزة المدينة قد ولت؟ تعلموا معنى عزة المدينة ومن ثم توقنوا بوضوح، بأنه ما لم يخزن المدينة أهلها أنفسهم فلن تستطيع أية فئة أخرى أن تسلبها عزتها. إن عزة المدينة لا تكمن فى كونها عاصمة ولا فى أبنيتها الكبيرة الجميلة، ولا فى أعمدتها الكثيرة وأروقعتها الواسعة وممراتها، ولا فى أنها تذكر فى المراسم قبل غيرها من المدن، ولكنها تكمن فى فضيلة أهلها وورعهم، هذه هى عزة المدنية وحليتها وحصانيتها، لأنه إذا لم تكن هذه الأمور موجودة فيها فإنها تصبح من أتفه المدن فى العالم، حتى ولو كانت تتمتع بحظوة الأباطرة المطلقة"^(٥٣).

ولما كان عمال الإمبراطور جادين فى التحقيق الذى أرسلوا من أجله، فقد انتزعت الاعترافات من الناس انتزاعاً باستخدام أقسى وسائل التعذيب، إلى الحد الذى دفع أحد الرهبان ويدعى ماكيدونيوس أن يجهر بامتعاضه واشمئزاز لهذا الأسلوب العنيف الذى يتبعه المحققون الإمبراطوريون، مخاطباً إياهم "أبلغوا الإمبراطور أنه ليس إمبراطوراً فحسب، بل إنساناً أيضاً، ولما كان الله قد خلق الإنسان على صورته، فإن الإمبراطور بهذه الفعال سوف ينتهك صورة الله ويغضب الصانع، وإذا كان هذا كله يجرى لأجل تمثال من البرونز يمكن أن يصنع منه المئات، فإن

(٥٢) انظر Id وراجع الفصل الخامس.

(٥٣) دوانى: أنطاكية، ص ٢٠٩.

الإمبراطور لا يستطيع أن يثبت شعره واحدة في رأس إنسان^(٥٤). غير أن هذا ما كان ليوقف لجنة التحقيق عن مباشرة عملها، لترفع تقريرها إلى ثيودوسيوس حتى يمكنه بناء على ما توفر لديه من أدلة، إصدار أحكامه ضد المواطنين.

وكان فلافيانوس قد جاء الآن إلى القسطنطينية، وتمكن من لقاء الإمبراطور الذي يبدو أنه كان ما يزال على سخطه لهذا الذي حدث، ولكن الأسقف الأنطاكي ظلاً يتوسل إلى ثيودوسيوس ليذهب عنه الروح ويجادله في قوم أنطاكية. ولما كان الإمبراطور يبدي - كما يظهر من سيرته - احترامه وتقديره لرجال الدين، فقد قدر لفلافيانوس ارتحاله وهو يحمل على كتفيه هذا العمز الطويل من أنطاكية إلى القسطنطينية، فأظهر لين جانب، ثم ما لبث أن أصدر عفوه العام عن المدينة استجابة لتوسلات فلافيانوس^(٥٥). ولعل الإمبراطور قد اكتفى بما أنزله الحاكم العام بالمدينة من إعدام واحراق وسجن عدد من المواطنين، وكذا ما فعله رسله الذين بعث بهم لمباشرة التحقيق، بحيث رأى في هذه الإجراءات الصارمة ما يكفي لردع الأنطاكيين، وهذا واضح مما يذكره المؤرخ الكنسي ثيودوريتوس في هذا الصدد^(٥٦).

ولا ريب أن هذه الأحداث، وسفارة فلافيانوس إلى ثيودوسيوس، كانت من بين أسباب التقارب الذي حدث بين الإمبراطور والأسقف الأنطاكي، والذي ظهر خلال الأعوام الثلاثة التالية، عندما وقف الإمبراطور إلى جوار فلافيانوس ولم يكرهه على الارتحال إلى الغرب للمثول أمام المجمع الذي كان مزماً عقده في كابوا - كما قدمنا - حسبما كان يبتغى أسقفاً روما وميلانو. كما أن هذه الأحداث قد كشفت لثيودوسيوس عن الاتجاه العام للأنطاكيين إزاء الشقاق الكنسي الواقع بينهم، واعترفهم بشرعية فلافيانوس واختياره ممثلاً لهم لدى السلطات الإمبراطورية.

(٥٤) THEOD. hist. eccl. V 19.

(٥٥) يقول سوزومونوس إن الأسقف فلافيانوس عندما وصل إلى القسطنطينية، وجد أن الإمبراطور ما زال ثائراً يتميز من الغيظ لما حدث في أنطاكية، فلجأ إلى وسيلة معينة هي الاستعانة بعدد من المنشدين الذين اعتادوا الانشاد على مائدة الإمبراطور، كي يقدموا ترانيم الأنطاكيين وصلواتهم وتوسلاتهم أمام الإمبراطور، فما أن سمع ثيودوسيوس ذلك حتى انهمرت الدموع من مآقيه وأصدر عفوه عن المدينة!! انظر: SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٥٦) THEOD. hist. eccl. V, 19.



الفَصِيحُ الرَّابِعُ

المسيحية النيقية

الدين الرسمي للإمبراطورية

البَطْرِيَكُ الْبَرْتَايُجْ

المسيحية النيقية

الدين الرسمي للإمبراطورية

لم يكن بمقدور جراتيان، وعمه فالنز في الشرق يحكم، أن يعلن صراحة عن اتجاهاته العقيدية، فالإمبراطور العم يدين بالآريوسية التي وجد أقاليم سيادته تؤمن بها، وجراتيان اعتلى العرش في الغرب بعد موت أبيه، وهو غض العمر غريز، وولاياته لا تعاني شأن ولايات عمه من النزاع العقيدى بين الآريوسية والنيقية. ولذا لم يجد خيراً من السير على هدى السياسة التي رسمها أبوه من قبل، والتي تقضى بعدم التدخل في المسائل العقيدية والمشاكل الكنسية قدر الاستطاعة، وساعده على ذلك انشغاله منذ بداية عهده بصدد الجماعات الجرمانية على الراين وعند أعلى الدانوب، ومن ثم فقد حظيت المسيحية والوثنية على السواء خلال السنوات الأولى من عهده، بخيرية وسماحة الحاكم الشاب.

ولقد أدرك جراتيان عقب مقتل عمه فالنز عام ٣٧٨ وقيامه بحكم الإمبراطورية فرداً، أنه ليس من حماقة أن يقدم على التخلي عن سياسة التسامح التي اتبعها طيلة ثلاث سنوات سوياً، ومن قبل أبوه، في وقت يعلم أن جل كنائس الشرق تخضع للآريوسيين، وهو ليس على استعداد لأن يثير ثائرة هذه الولايات الشرقية بينما يخلو عرش القسطنطينية من إمبراطور، ولهذا أصدر على الفور من سيرميوم مرسوماً عاماً يقضى بالتسامح، وأن تمارس كل الفرق المختلفة طقوسها في كنائسها دون تمييز^(١). ولكنه في الوقت ذاته أرسل إلى أمبروز أسقف ميلانو يطلب إليه أن يعد له رسالة عن الإيمان تهديه سواء السبيل^(٢)، وعلى الفور عكف أمبروز على إعداد هذا العمل، والأمل يحده أن يضم إلى قضية النيقية الإمبراطور الشاب الذي يسيطر الآن على الإمبراطورية بشطريها، إذا استثنينا تلك المشاركة الواهنة لأخيه الطفل فالنتينيان الثاني، خاصة وأن أسقف ميلانو كان

(١) SOcart. hist. eccl. V 2.

(٢) AMB. de fide I 3.

يحمل في نفسه الكراهية والمقت الشديدين للآريوسية وإمبراطورها الراحل فالنز. ولم يلبث جراتيان أن استدعى إليه في العام التالي، وهو في طريق عودته من تراقيا، أمبروز ليتسلم منه رسالة الإيمان. ولما كان قد أصدر في يناير من هذا العام مرسومه بتعيين ثيودوسيوس إمبراطوراً في النصف الشرقي من الإمبراطورية، ولما كان الأسقف الميلاني قد ترك تأثيره واضحاً في نفس جراتيان، فقد أقدم هذا دون توان على إلغاء مرسوم التسامح السابق الذي أقره في العام الماضي، وأصدر مرسوماً جديداً يقضى بعودة جميع الأساقفة الذين نفاهم فالنز من قبل إلى بيعهم ثانية، وحرّم كل الفرق المسيحية غير النيقية ممارسة طقوسها، وخص منهم بالذات اليونومويين Eunomians أو الأنومويين، أتباع يونوميوس الذين يمثلون الآريوسية المتطرفة، والمانويين Manichean وأنصار فوطين Photinians وأرسل على الفور رسله لطرده الآريوسيين من الكنائس^(٣).

وكان أول تطبيق عملي لهذه القرارات في روما نفسها، على الرغم من أن الخلاف الذي كان قائماً فيها لم يتعد شقاً كنسياً وليس خلافاً عقائدياً، ذلك أن الأكليروس هناك انقسم على نفسه عقب وفاة ليبيريوس أسقف روما سنة ٣٦٦، فأعلن داماسوس الأول أسقفاً خلفاً، إلا أن فريقاً من المعارضين اختاروا للأسقفية أورسنيوس Ursenius وظل الصراع بين الرجلين قائماً لفترة طويلة. وقد تشجع داماسوس وأنصاره بمرسوم جراتيان، وكانت لهم الأغلبية، وإن لم يكن منافسهم قلة، فعقدوا المجمع الروماني الرابع تحت رئاسة داماسوس، حضره، أمبروز، وطلبوا إلى الإمبراطور أن يكلف النائب الإمبراطوري وموظفيه بالقبض على خصومهم وعزلهم عن كنائسهم. ورغم أن جراتيان قد أظهر تردداً في بادئ الأمر

(٣) SOCRAT. Hist eccl. V 2; SOZOM. Hist eccl. VII 1;

RVFIN. Hist. Ecc; II 13; THEOD. Hist. Eccl. V 1, 2.

وكان فوطين شماساً لماركلوس أسقف أنقرة، واعتنق آراء أستاذه وتطرف بها وأصبح أسقفاً لسيرميوم (٣٤٠-٣٥١) وجهر بالقول بأن الابن استمد وجوده من مريم العذراء، وأنه محض إنسان، وأنكر وجوده قبل كل الدهور حسب قاعدة الإيمان النيقية. وقد أدين في مجمع سيرميوم الأول سنة ٣٤٧ وسيرميوم الثاني سنة ٣٥١ حيث عزل من أسقفية. راجع للمؤلف: الدولة والكنيسة: الجزء الثالث ص ١٩١-١٩٢، ٢٥٤، ٢٥٥.

خشية إحداث الاضطرابات والفوضى في روما، إلا أنه لم يلبث أن أقدم على إجابة ملتمس داماسوس وحزبه، وأمر بأن يدخل الجميع هناك في شركة داماسوس^(٤). وأعاد المجمع من جديد التأكيد على حرمان الفرق التي شملها مرسوم جراتيان من ممارسة طقوسهم الكنسية وتجريدهم من وظائفهم الكهنوتية، وأضاف إليهم الماكيدونيين والأبوللينارين^(٥).

وعلى امتداد الأعوام الثلاثة الأخيرة (٣٨١-٣٨٣) من حياة جراتيان، حرص الإمبراطور على أن يتردد بانتظام على ميلانو ويقيم فيها بعض الوقت، حيث كان أمبروز قد انتهى من وضع الكتب الثلاثة الباقية من رسالته عن الإيمان De Fide، وراحت حماسة جراتيان الدينية وتعلقه بالنيقية تزداد بصفة مستمرة وذلك بتأثير الأسقف الميلاني، وفي الوقت ذاته كان ثيودوسيوس قد أقدم على اتباع السياسة نفسها في أقاليمه الشرقية، فأصدر مرسوميه المتتاليين في فبراير ٣٨٠ ويناير ٣٨١ باعتبار النيقية العقيدة الرسمية، وجاء الإعلان عن ذلك بصفة جماعية في الشرق والغرب في مجمع القسطنطينية المسكوني في ربيع ذلك العام، ومجمع أكويلا المنعقد في صيف العام نفسه. بل إن أمبروز وقد اطمأن إلى أن نجم النيقية أخذ الآن في الصعود، لم يتوان عن رسم أحد خالصائه وهو أنيميوس Anemius أسقفاً لمدينة سيرميوم، والتي كانت تعد مركزاً رئيسياً للأريوسيين ممثلين في الفوطيينيين.

والحقيقة أن شخصية أمبروز قد فرضت نفسها تماماً على هذه الفترة من أخريات القرن الرابع الميلادي. وساعده على ذلك عاملان، أولهما يختص بالأسقف نفسه، والثاني. هيأته له الظروف السياسية والكنسية القائمة آنذاك، حتى قال عنه أحد المؤرخين "إنه يمثل في كثير من الجوانب وبكثير من المفاهيم نموذجاً حياً يجمع في شخصيته الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة في الربع الأخير من القرن الرابع^(٦). ولما كان حاكماً مدنياً قبل اعتلائه كرسي الأسقفية، نفقد امتزجت عنده بشكل كبير الوظيفة الرعوية بشقيها الزماني والديني، وإذا كان قد عكف على

(٤) THEOD. hist. eccl. V 2.

(٥) Ibid. 11.

(٦) Chadwick, op. cit. p. 167.

الدراسات القانونية أثناء مراحلها التعليمية حتى حقق في ذلك نجاحاً كبيراً وذاع صيته، وقاده ذلك إلى أن يصبح حاكماً على ليجوريا وإيميليا، فإنه صرف همه وجهده بعد ترسيمه أسقفاً إلى دراسة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة خاصة الآباء اليونان. والواقع أن الآباء اللاتين باستثناء أوغسطين، لم يكونوا دارسين متعمقين أو مفكرين ميتافيزيقيين، ولهذا كانوا تلاميذ اليونان في المسائل اللاهوتية، واقتصر نشاطهم على جعل التراث الفكري الذي أنتجه الشرق المسيحي في متناول العالم اللاتيني، ومع هذا فإنهم كانوا أيضاً في الوقت ذاته ورثة التراث الغربي، فربطوا بين معارفهم الجديدة والقوة الخلقية وروح النظام، وهي النواحي التي ميزت الكنيسة اللاتينية واكسبتها طابعها الخاص. من ثم كان اهتمامهم بالمسائل اللاهوتية ثانوياً دائماً بالقياس إلى إخلاصهم للتقاليد الكنسية وحرصهم على الوحدة الكاثوليكية^(٧). ويتمثل هذا أيضاً بصورة واضحة في أمبروز فقد شغلته مشاكل رعاية أسقفية إلى الحد الذي لم يتح له أن يترك عملاً ضخماً في المسائل اللاهوتية، إذا استثنينا رسالته عن الإيمان المسيحي، على الرغم من أنه على قدر كبير من الثقافة والمعرفة^(٨). بينما حرص على أن يضع مؤلفاً "عن وظائف الأكليروس"^(٩). De officiis ministrorum يقول في مقدمته: "عندما تركت منصة الحكم لأتسلم رداء الكهانة، فقد رحت أتعلم ما لم أتعلمه من قبل، وكانت النتيجة أنه يجب على الآن أن أتعلم وأعلم في آن واحد^(١٠)."

ولقد شارك أمبروز بهذا الكتاب في الاتجاه الروماني إزاء الفلسفة، بمعنى الاهتمام بالنواحي الخلقية والعملية، وتأثر إلى حد كبير جداً في هذا المؤلف بما وضعه من قبل المفكر الروماني الأشهر شيشرون Cicero تحت نفس العنوان^(١١).

(٧) دوسن : تكوين أوروبا.. ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور سعيد عاشور، ص ٤٩.

(٨) Rand, op, cit. p. 77.

(٩) AMB. de off. minis. I—III.

(١٠) AMB. Ibid. I 3.

(١١) AMB. Ibid. I 73, 83, 126, 132, 135, 138, 141, 142, 145, 175, 176, 202, 202, 219, 226, 228, 231, 231, 240, 263-264; II 22, 28, 38, 40, 43, 49, 50, 56, 60, 66, 69, 71, 73, 78, 80, 81, 88, 93, 96, 97, 102-103, 107, 109, 112, 117, 126' III 2, 9, 24, 27, 29-30, 45, 58, 59, 66, 70-71, 73, 76, 78, 80, 87, 91, 97, 124, 125, 127, 132-134.

"De officiis" ولقد وجه أمبروز عمله هذا إلى اكليروس ميلانو بصفة خاصة وتابع فيه شيشرون في تقسيمه لكتابه ومعالجته للفضائل، وإن كانت المعالجة كلها تسودها الروح المسيحية^(١٢). وإذا كان أمبروز قد حرص في مؤلفه على أن يبين سمو الأخلاق المسيحية على المثالية الرواقية لدى شيشرون، فإنه لم يستطع شأن جيروم، أن يهرب من التأثير الكلاسيكي، لينتهي به الأمر إلى تبني النموذج الرواقى لشيشرون باعتباره جوهر الأخلاق المسيحية^(١٣). ومن ثم فإن أمبروز بهذا المؤلف - كما يقول كوبلستون - لم يضيف شيئاً جديداً خاصاً بالأخلاقيات المسيحية، ولكن أهمية أعماله تكمن حقيقة في تأثيرها على الفكر الذى جاء بعده وما كتبه خلفاؤه عن الأخلاقيات، حيث ظل هذا الكتاب لعدة قرون أحد المصادر الرئيسية فى هذا المجال، وعد المنبع الأساسى لدخول الأخلاقيات الرواقية فى المسيحية^(١٤). وكان أوغسطين من أول وأكثر من تأثروا بالأسقف الميلانى فى كثير من كتاباته وتفسيراته^(١٥).

وفى الوقت ذاته نرى فى كتابات أمبروز اقتباسات كثيرة من الفلاسفة الإغريق سقراط وأفلاطون وأرسطو واكسنوفون والرواقيين، بل وحتى الأبيقوريين^(١٦)، ومن الجدير بالملاحظة أنه كان متضلعا من اليونانية أكثر من البلاغى الإفريقى الشهير لاكتانتيوس Lactantius وحتى معاصره الأشهر أوغسطين، ولذا فقد كان أمبروز قارئاً متطوراً ممتاز، فقرأ لأباء الكنيسة اليونان، ليس فقط كلمنت وأوريجن السكندريين، بل أيضاً ديديموس Didymus السكندرى الضرير، ورئيس مدرسة اللاهوت السكندرى فى أواخر القرن الرابع، وباسل

(١٢) Copleston, A history of philosophy, II part, I p. 15;

Rand, op. cit. pp. 79-83; Laistner, op. cit. p. 52.

(١٣) Thompson, & Johnson, op. cit. p. 60.

(١٤) Copleston, op. cit. p. 51. وراجع أيضاً . Thompson & Johnson, op. cit. p. 60

(١٥) عن تأثير أمبروز الواضح على أوغسطين راجع:

Dawson, religion and the rise of western culture, pp. 39-41; Shiel, Greek thought and the rise of Christianity, p. 48; Hughes, A history of the church, II p. 10; Bainton, history of christianity, I pp. 149-150; Stephenson, Mediaeval history, p. 81.

(١٦) AMB. de off. minis. I 31, 50, 132' de fide, IV.

الكبادوكي وجريجورى النيساوى وجريجورى النازيانزى، وحتى فيلون اليهودى^(١٧). ولا شك أن هذه الثقافة الواسعة والإطلاع العريض، قد أهلاه لأن يمتلك ناصية الخطابة، حتى أن أناشيده التى نظمها كانت تترك تأثيراً قويا فى نفوس الجموع المسيحية، وكان عليه من جزاء ذلك أن يواجه تهمة رماء بها الأريوسيون، من أن هذه الأناشيد بها أسرار السحر^(١٨). ومنع أن أمبروز كان شديد المقت للفرق المسيحية غير النيقية، والوثنيين، وسعى جاهداً طيلة عمره الأسقفى لإعلاء شأن النيقية والقضاء على هؤلاء وأولئك، إلا أنه كان من بين الذين عرف عنهم عدم ميلهم إلى استخدام العنف ضد المخالفين، وهو فى ذلك يتبع شأن ترتوليان ولاكتانتىوس وهيلاريوس وأوغسطين، خطى آباء الكنيسة اليونان ترتوليان ولاكتانتىوس وهيلاريوس وأوغسطين، خطى آباء الكنيسة اليونان الذين يرفضون تماماً فكرة اللجوء إلى القسوة ضد الخارجين عن العقيدة^(١٩).

هذه هى شخصية أمبروز فيما يتعلق بتكوينه العلمى وثقافته ورعايته لشئون الكنيسة واهتمامه بأمور إكليروسه، غير أن هذه السمات لم تكن لتصلق لو لم تجد المناخ الملائم لها متوفراً فى الظروف التى كانت تعيشها الكنيسة والدولة آنذاك، فعندما اعتلى أمبروز كرسى الأسقفية فى ميلانو كانت الساحة الكنسية قد خلت من الشخصيات القوية التى لعبت دوراً كبيراً حتى سبعينيات القرن الرابع، إما بالوفاة أو بأرذل العمر، أو بالعزل، سواء فى ذلك رجال النيقية أو الأريوسية، فائثاسيوس السكندرى كان قد مات فى العام السابق على رسامة أمبروز، بعد أن ظل قرابة نصف قرن من الزمان (٣٢٨-٣٧٣) يشغل فكر الأباطرة والأكليروس والرهبان والجموع، وأجهزة الدولة، المدنية وأحياناً العسكرية، فى شطرى الإمبراطورية،

(١٧) انظر HIER. Epp. XLIII 1; LXXXIV 9; Shiel, op. cit. p. 53; Rand, op. cit pp. 78-79; Romestin, Nicene and p.n.f. vol. X p. XV.

(١٨) Jenkins, some aspects of Medieval Latin literature (in legacy of Middle Ages), p. 155.

(١٩) Heer, The Medieval world, p. 146. ويصفه يوحنا القاشيانى بأنه "رجل الله الأشهر الذى لم يترك أبداً يد الرب، دائماً يسطح ويبرق كحجر كريم علق بأصبع الله". IOH. CASS. De incarnatione Verbi, V 25.

ولم يكن لخليفه بطرس وتيموثى أو حتى ثيوفيلوس أى حظ أو قدر من ذكائه ودهائه وجرأته وعناده. أما الكبادوكيون الثلاثة، فقد شغلوا عن هذه الصراعات بالانغماس فى الدراسات اللاهوتية، ولم يحاولوا أن يوقعوا أنفسهم فى حلبة الصراع، إلا عندما أقحم عليهم، كما حدث لباسل الكبير أسقف قيسارية على عهدى الإمبراطورين جوليان وفالنتز. وفى الغرب لم يعد هناك شخصيات تعدل هوسىوس القرطبى، الملقب بأبى المجامع، والنيقى المتحمس، أو هلاوريوس أسقف بواتييه. بل إن روما نفسها افتقدت بعد وفاة أسقفها يوليوس، الشخصية القوية التى يمكن أن تشارك أمبروز الدور الرئيسى على مسرح الأحداث، ولم يكن ليبريوس أو داماسوس بالذى يمكن أن يعدل كفة الأسقف الميلانى. يضاف إلى هذا أن الشقاق الذى كانت تعاني منه أسقفية روما بين داماسوس وأورسينوس لسنوات طويلة قد فت فى عضد قوة الكرسي الرومانى.

وإذا كان هذا هو حال زعماء النيقية فى الشرق والغرب، فإن الأريوسية هى الأخرى لم يعد لها من زعمائها وآبائها الأقوياء من يستطع أن ينافح أمبروز الحجة ويحاوره. فقد مات يوسيبوس النيقوميدي منذ زمن بعيد (٣٤١) ثم لحق به على التوالى يودوكسيوس وأوكسنتيوس ويوزيوس، ولم يكن خلفاء هؤلاء بمن يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركوه. كما أن الأريوسية فقدت آخر حمايتها من الأباطرة، أعنى فالنتز، فجأة على يد الجرمان، ولم تقم لها بعد ذلك فى الشرق قائمة. وهذا هو الفارق الكبير بين أمبروز وأثناسيوس، فهذا الأخير أمضى سنة وأربعين عاماً متواصلة يتصدى للأريوسيين إكليروساً وأباطرة، ويتحدى سلطان الأريوسية ممثلة فى قسطنطيوس وفالنتز، بينما وجد أمبروز الأمور أمامه ميسرة، فالأباطرة فى شطرى الإمبراطورية على النيقية، إذا استثنينا هذا الظل الباهت للأريوسية الممثل فى فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا، والأكليروس كله مال إلى الإيمان النيقى إن طوعاً أو كرهاً، والجدال اللاهوتى من حول مكانة المسيح خفت حدته بعد أن شهدت الفترة الواقعة ما بين إنتهاء جلسات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ووفاة أثناسيوس عام ٣٧٣، وهى تمتد إلى نصف القرن، أربعة وثلاثين مجعاً كنسياً عقدت فى الشرق

عدا ثمانية فقط شهدها الشطر الغربى من الإمبراطورية، كلها تدور حول العقيدة الآريوسية^(٢٠).

وإذا كانت هذه هى حال الكنيسة فى الربع الأخير من القرن الرابع، فإن الظروف السياسية التى عاشتها الدولة آنذاك، كانت عاملاً هاماً ساعد على أن ينجح أمبروز فى إدراك المكانة التى حققها وإحراز الشهرة التى حازها؛ فالإمبراطورية لم تخضع طيلة أسقفيته لسيادة امبراطور واحد إلا على فترتين قصيرتين جداً خلال ثلاثة وعشرين عاماً (من ٩ أغسطس ٣٧٨ إلى ١٩ يناير ٣٧٩) أى منذ قتل فالنز إلى أن أعلن ثيودوسيوس إمبراطوراً شريكاً، مع إدخال وجود إمبراطور آخر يحبو فى عمر الصبا هو فالنتينيان الثانى، وإن لم يكن له نفوذ فى الحسبان، أما الفترة الثانية فهى التى أصبح فيها ثيودوسيوس إمبراطوراً فرداً، ولم تزد عن شهور أربعة وأحد عشر يوماً (من ٦ سبتمبر ٣٩٤ إلى ٧ يناير ٣٩٥) وهى الواقعة بين انتصار ثيودوسيوس على مغتصب العرش فى الغرب يوجنيوس، ووفاة ثيودوسيوس نفسه^(٢١).

ووجود إمبراطورين على العرش فرصة أفاد منها أمبروز، والشواهد والأدلة على ذلك قائمة وسابقة. فالإمبراطور قسطنطين حكم الإمبراطورية منفرداً طوال أربعة عشر عاماً (٣٢٣-٣٣٧) فرض فيها سيطرته الكاملة وسيادته على الدولة والكنيسة، فلما مات وخلفه أبناؤه الثلاثة، كان ذلك باباً فتح على مصراعيه ليلج منه الجدل اللاهوتى بين النيقية والآريوسية، وتمكن أثناسيوس من الإفادة من ذلك الوضع إلى حد كبير جداً، إلى الحد الذى هدد إمبراطور النصف الغربى قنسطانز أخاه قسطنطيوس إمبراطور النصف الشرقى بالحرب، من أجل الأسقف السكندرى وبولس أسقف القسطنطينية! حتى إذا أصبح قسطنطيوس الآريوسى حاكماً منفرداً (٣٥١-٣٦١) نجح إلى حد ليس بالقليل فى فرض سيادة الدولة والعقيدة الآريوسية على الكنيسة كلها فى الإمبراطورية عامة. فلما عادت

(٢٠) للوقوف على هذه المجامع كلها وما دار فيها والنتائج التى ترتبت عليها، راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، ملحق رقم ٣.

(٢١) انظر الفصل الخامس.

الإمبراطورية يعتلى عرشها رجلان، فالنتينيان الأول وفالترز، أفاد النيقيون والآريوسيون من هذا الوضع بقدر سواء، وليس أمبروز والإمبراطورية على عرشها عاهلان، بل ثلاثة عواهل فى بعض الأحيان^(٢٢)، استثناء من هذه القاعدة.

ولا يخفى علينا، أن أباطرة الغرب لم تكن لأحدهم قوة الشخصية التى يتمتع بها الأسقف الميلائى، فجراتيان رغم شجاعته العسكرية وانتصاراته المتتالية على الجماعات الجرمانية، إلا أنه كان ما يزال شاباً فى مقتبل العمر، صرف وقتاً كبيراً فى إشباع هواياته الخاصة، كما أنه كان واقعاً تحت تأثير أمبروز مفتوناً بشخصيته لا يعصى له أمراً. أما أخوه فالنتينيان الثانى فقد أريد له أن يظل طفلاً لفترة طويلة، حيث خضع لوصاية أمه جوستينا ونفوذها فذابت شخصيته، فلما ماتت كان هو قد استمرأ حياة الدعة والنعيم ولم يلبث أن قتل. ولذا فإن عدااء جوستينا وبالتالي ابنها فالنتينيان لأمبروز، كانت نتيجتها الحاسمة ازدياد نفوذ الأسقف الميلائى لدى الجموع، خاصة أن الإمبراطور الطفل وأمه كانا يبديان ميلهما إلى الآريوسية.

وإلى جوار هذا كله فإن الاضطرابات السياسية والحروب الأهلية التى شهدتها النصف الغربى، كانت من بين الأسباب الرئيسة التى أدت إلى إضعاف سلطان الحكومة هناك والتقليل من هيبتها. فقد قتل جراتيان عام ٣٨٣ على يد ماكسيموس، ولم ينقض على ذلك خمسة أعوام حتى كان هذا قد لقي حتفه صريعاً. وإن هى إلا سنوات أربع (٣٩٢) حتى شهد هذا الشطر من الإمبراطورين مقتل فالنتينيان الثانى، ولم ينعم المتآمرون الذين رفعوا إلى العرش يوجنيوس بفعلتهم هذه إلا سنتين فقط، حيث لحق بمن سبقوه كرهاً سنة ٣٩٤ ولم يمكث ثيودوسيوس بعد ذلك إلا قليلاً حتى ودع دنياه، تاركاً على العرش إمبراطورين، أحدهما فى الشرق صبى، أركاديوس، وفى الغرب طفل هو هونوريوس. هذه الأحداث فى مجموعها تدل دلالة صادقة على افتقاد الشطر الغربى من الإمبراطورية للحكومة المركزية القوية التى تستطيع أن تفرض على الجميع سلطانها دون منازع، كما أنها استنفدت

(٢٢) شهدت الإمبراطورية خلال الربع الأخير من القرن الرابع فترات كان عرشها يحتله أباطرة ثلاثة، ونعنى بذلك الفترة التى حكمها ثيودوسيوس فى الشرق، وجراتيان وفالنتينيان الثانى فى الغرب، ثم بالاشتراك مع ماكسيموس بعد مقتل جراتيان.

أيضاً جهد ومال وفكر ووقت حكومة الشطر الشرقي، بقيامها بإعداد حملات متتابعة لإقرار الأمور المتردية هناك.

وفي غيبة الحكومة المركزية القوية في الغرب، وانشغال حكومة الشرق بما جرى في الغرب، وبمشاكلها الخاصة على الجبهة الفارسية، والتي كان محورها هذه الجولة في أرمينيا، والتي لم يستطع ثيودوسيوس أن يفرغ منها إلا بعد ثمان سنوات من حكمه (٣٨٧) بالتوصل إلى اتفاق مع سابور الثالث الملك الفارسي، لينطلق بعدها إلى الغرب لحرب ماكسيموس، واستنفاد الجerman لجزء كبير من فكره وجهده، ومحاولة إعادة بناء الجيش الإمبراطوري الذي تمزق عند إدرنه، وجهوده المتواصلة للتخلص من الأريوسية والقضاء على الوثنية. كل هذه الظروف مجتمعة، بالإضافة إلى تكوين أمبروز الفكري والثقافي، قادت إلى أن يعتبر الشخصية البارزة الحق في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي على نفس القدر مع الإمبراطور ثيودوسيوس.

وإذا كان أمبروز قد أفاد إلى أقصى حد من الظروف الكنسية والزمنية التي أحاطت به وتهيأت له على امتداد أسقفية الطويلة، وساعده على ذلك خبرته كحاكم مدني قبل سيامته، ودراساته القانونية وقراءاته اللاهوتية، وشخصيته وثقافته. فإن ثيودوسيوس قد استحق لقب العظيم الذي اقترن باسمه لأعماله العسكرية والدبلوماسية لاحتواء موجة المد الجرمانى الأول داخل الإمبراطورية، ولما أنفقه من جهد في سبيل الاعتراف بالمسيحية النيقية دينا رسمياً للإمبراطورية. وقد سار هذا الطريق منذ العام الأول لاعتلائه العرش بخطوات قدمناها، تمثلت في مرسوميه الشهرين في فبراير ٣٨٠ ويناير ٣٨١، ثم الإقدام على طرد ديموفيلوس أسقف العاصمة الأريوسى وجماعته من المدينة وتجريدهم من الكنائس التي كانت بأيديهم وتسليمها إلى النيقيين، فإدانتهم للماكيذونية وغيرها من الفرق المسيحية الأخرى التي تعتبرها الكنيسة الجامعة خارجة عن دائرة إيمانها، وتأكيد لقانون الإيمان النيقى في المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، وإعادة هذا التأكيد من جديد على الهوموسية في مجمع القسطنطينية الثانى الذى عقد فى العام التالى:

غير أن الآريوسيين بفرقهم العديدة لم يستسلموا طواعية لما أَرَادَهُ ثيودوسيوس، ووقعت كثير من حوادث الشغب والفوضى في عدد من مدن الإمبراطورية عند تسلم النيقيين للكنائس من خصومهم^(٢٣). ويبدو أن الإمبراطور صمم على أن يخطو الخطوة الأخيرة بالحسنى في تعامله مع الآريوسيين، فوجه الدعوة إلى مؤتمر عام يعقد في القسطنطينية يضم النيقيين والآريوسيين على اختلاف فرقهم، لإجراء حوار جدلي لاهوتي بينهم جميعاً، عليهم ينتهون إلى وفاق في أمر العقيدة، وتمثل هذا المؤتمر في المجمع الذي التأم عقده في القسطنطينية سنة ٣٨٣، وهو المجمع الثالث على التوالي الذي شهدته العاصمة خلال سنوات ثلاث. وكان على رأس الحضور نكتاريوس أسقف العاصمة، وأجليوس Agelius أسقف جماعة النوفاتيين^(٢٤). وهما يمثلان النيقية، لأن النوفاتيين كانوا يدينون أيضاً بالهوموسية. أما الآريوسيون فكان يتزعمهم ديموفيلوس، أسقف العاصمة الأسبق، والماكيديونيون يقود خطوهم اليوزيوس Eleuxius أسقف كيزيكوس Cyzicus، على حين يتقدم يونوميوس فريق الأنومويين^(٢٥).

وفي يونية تقاطر على القسطنطينية هؤلاء جميعاً والصفوة من أنصارهم، التي تجيد فن الجدل، وكانت خطة الإمبراطور تقضى بالسماح لكل فريق بشرح إيمانه على الحاضرين، ومناقشته من جانب الفرق الأخرى، حتى يبين للجميع صدقه أو زيفه، فلما عرض ثيودوسيوس هذا الرأي على أسقفه نكتاريوس أصابه الفزع^(٢٦). ورغم أن مؤرخي الكنيسة لم يقدموا أى تبرير لهذا الهلع الذي تملك نكتاريوس، إلا أن الحقيقة التي لا مراء فيها، هي أن أسقف العاصمة النيقى كان يعرف تماماً قدر نفسه ومقدرته، فهو لم يكن بأى حال من الأحوال يستطيع أن يتصدى جذالاً، أو أن يدخل في أى حوار لاهوتي مع رجال الآريوسية الذين

(٢٣) SOCRAT. Hist. Eccl. V 10; SOZOM. Hist. Eccl. VII 12.

(٢٤) اشتقت هذه الطائفة اسمها من نوفاتيان Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين في روما، والذي ناصب كورنيليوس Cornelius أسقف روما في خمسينيات القرن الثالث العداء، للخلاف الذي نشب بينهما حول قبول المارقين عن الدين زمن الاضطهاد ثانية في الكنيسة. وهم يطلقون على أنفسهم المتطهرين شأن الدوناتيين في أفريقيا والمليثيين في مصر.

(٢٥) SOCRAT. hist. eccl. V 10 ; SOZOM. hist. eccl. VII 12.

(٢٦) SOCRAT. Loc. Cit.

تمرسوا فكرياً على هذه الأمور، وقضوا في متاهاتها العقيدية جل أعمارهم خاصة يونوميوس، الذي يتفق مؤرخو الكنيسة على ذكائه وسحر بيانه رغم عدائهم له^(٢٧). ونكتاريوس لم تكن له باللاهوت معرفة كافية، ولا بالجدال خيرة، ومن ثم اختلط عليه الأمر ولم يدر ماذا يفعل إلا أن يلجأ إلى أجليوس النوفاتي، الذي أشار عليه بدوره أن يلجأ إلى شماسه سيسينيوس Sisinius الذي كان متضلعاً من اللاهوت، بلاغياً ومجادلاً^(٢٨).

وقد اقترح سيسينيوس على نكتاريوس أن يقدم إلى المؤتمرين اعترافات آباء الكنيسة الأول عن الإبن، ويطلب إلى رؤساء الفرق المختلفة الإدلاء بأرائهم حول هذه الاعترافات. وقد سر أسقف العاصمة لهذا الاقتراح الذي لا يحمل في جوهره أى فرصة للنقاش أو الجدل، وهو ما كان يتمنى الخلاص منه. وقد فعل. وطرح على الحضور سؤاله الأول: هل تحترمون الآباء الذين عاشوا قبل أن ينجى أريوس بدعوته؟ فأجابه الجميع بالإيجاب. ثم كان سؤال الثانى: هل تعترفون بأنهم آباء الإيمان المسيحى القويم؟ وهما دبت الفوضى في المجمع، وأنقسم الحاضرون كل يرى في الآباء رأي، بل إن هذا قد أدى أيضاً إلى انقسام الواحد على نفسه^(٢٩).

(٢٧) يذكر سوزوموس أن يونوميوس كان يقيم في هذه الفترة في بيثينيا Bithynia على الساحل الآسيوى القريب والمواجه للقسطنطينية، حيث تجمع حوله الكثيرون ممن أعجبوا بحديثه وسحرتهم لباقتهم، حتى وصلت سمعته مسامع الإمبراطور، فأبدى رغبته في عقد مناظرة معه وحوار، غير أن الإمبراطورة فلاكيلا Flacilla وهى الزوجة الأولى لثيودوسيوس وأم ولديه أركاديوس وهونوريوس، حالت دون عقد هذا اللقاء، مخافة أن يتأثر زوجها بسحر بيان يونوميوس وقوة اقناعه في الجدل. راجع: SOZOM. Hist. Eccl. III 15, VI 26, VII 6; SOCRAT. Hist. Eccl. II 35

(٢٨) SOCRAT. hist. eccl. V 10; SOZOM. hist. eccl VII 12.

(٢٩) ظهرت هذه الانقسامات بصورة واضحة فيما بعد، حيث اختلف دورثيوس الذي كان أسقفاً أريوسياً في أنطاكية وأصبح الآن أسقفاً للأريوسيين خلفاً لديموفيلوس خارج أسوار القسطنطينية، اختلف مع مارينوس Marinus الذي استدعاه الأريوسيون بعد وفاة ديموفيلوس وقبل قدوم دورثيوس، وقد عرف أتباع مارينوس بالكعكيين Psathyrians حيث كان أحد المتحمسين لآراء مارينوس وهو سورى المولد يدعى ثيوكتستوس Theoctistus بائعاً للكعك Psathyropla ولم يلبث مارينوس أن اختلف مع أجابيوس Agapius الذي كان هو نفسه قد رقاها إلى مرتبة أسقف إفسوس، ولم يعد الأريوسيون إلى الوفاق الظاهري فقط إلا عام ٤١٩ =

ورأى الإمبراطور أن المجمع يسير إلى نهاية مفزعة غير التي كان في البدء يؤملها، إذ زاد الانقسام انقساماً، ومن ثم لجأ إلى نفس الأسلوب الذي اتبعه من قبل سلفه قسطنطين^(٣٠). بقهر هؤلاء جميعاً على أن يسلكوا الدرب الذي يخطه لهم، فأمرهم بأن يتقدم زعيم كل فريق على حدة بوثيقة إيمانه الذي به يدين، وسوف يبحث هو بنفسه عن أيها أقوم!! ولم يتمخض قرار الإمبراطور إلا عن النتيجة المعروفة والمرادة سلفاً، وهي الاعتراف بقانون الإيمان النيقى ورفض كل ما عداه. وقد جاء ذلك في صيغة مرسوم عام صدر عن الإمبراطور في سبتمبر ٣٨٣ باعتبار النيقية هي المسيحية الحقّة، وكل ما خرج عنها زيف وضلال، وقرر حرمان كل الفرق المسيحية الأخرى الخارجة - عدا النوفاتية - من مباشرة طقوسهم أو نشر عقائدهم، أو رسم أحد منهم لوظائف الأكليروس، وتجريدتهم من كنائسهم، وتهديد المخالفين بأقسى أنواع العقاب^(٣١).

=على عهد ثيودوسيوس الثاني. ولم يكن أتباع يونوميوس أقل من ذلك إنقساماً، فقد خرج ثيوفرونوس Theophronius الكبادوكى على بعض آراء أستاذه يونوميوس وعرف أتباعه باسم "اليونوميوثيوفرونيون" Eunomiotheophronians ولم يلبث أحد رجال الأكليروس في القسطنطينية ويدعى يوطيخا Eutyichius أن انشق هو الآخر عن يونوميوس وجماعته، وتولد عن ذلك فرقة أخرى هم اليونوميوطيخيون Eunomieutyichians ويقول سقراط إن هذه الانقسامات حدثت في القسطنطينية وحدها وضواحيها، وإنه رأى أن يقصر حديثه عليها فقط لقربه منهم، ولأنها التي ولد فيها، ويضيف إنه لن يتحدث عن الفرق الأخرى في مدن عديدة لأن هذا سوف يخرج به عن الهدف الأساسى لكتابه. راجع:

SOCRAT. Hist. eccl. V 23, 24; SOZOM. Hist. Eccl. VII 17.

(٣٠) في المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى نيقية سنة ٣٢٥، "أقنيد" الأساقفة حسب تعبير شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبوس، إلى التوقيع على صيغة الإيمان بعد أن أضاف إليها الإمبراطور قسطنطين بنفسه، بوحى من هوسيوس القرطبي، عبارة "من نفس جوهر الأب Homousius أو الهوموسية التى كانت فاتحة الجدل اللاهوتى طيلة القرن الرابع، كما أن قسطنطين طلب من أريوس بعد إعادته من المنفى عام ٣٢٨ أن يقدم وثيقة إيمانه، وقد قبلها قسطنطين واعترف بها دون أن يعرض الأمر على الكنيسة أو أحد رجالها، رغم خلو هذه الوثيقة من "الهوموسية".

(٣١) SOCRAT. Hist. Eccl. V 10; SOZOM. Hist. Eccl. VII 12.

وهكذا حققت النيقية بُعد لأي انتصارها على الأريوسية، وأصبحت تمثل الصيغة الرسمية للمسيحية، بعد أن ظلت تتصارع والأريوسية على امتداد خمسة وستين عاماً (٣١٨-٣٨٣)، ولم يكن نصرها الذي حققته على الأريوسية عام ٣٢٥ في المجمع النيقى إلا بريقاً خاطفاً لم يدم أكثر من ثلاث سنوات، ولم يكن خالصاً. أما الآن فقد سادت الكنيسة بمقتضى مرسوم إمبراطورى عام كان الأول من نوعه منذ اعتبرت الإمبراطورية فى شخص قسطنطين وليكينىوس المسيحية ديانة شرعية *religio licita* فى اجتماع ميلانو عام ٣١٣. ورغم أن الأريوسية قد كسبت جولات كثيرة قبل ذلك على عهود قسطنطين وقسطنطيوس وفالترز، إلا أن أحداً من هؤلاء الأباطرة، أو حتى الإمبراطورين الآخرين وهما أقطاب الأريوسية، لم يصدرا مرسوماً عاماً باضطهاد الفرق المسيحية المخالفة. حقيقة وقعت بعض حوادث العزل والنفى للأساقفة، وكان ذلك يتم عن طريق المجامع الكنسية المكانية ويصدق عليها الإمبراطور، لكن مرسوماً إمبراطورياً عاماً بإنزال الاضطهاد باتباع الفرق الأخرى، وملاحقتهم ومحاولة القضاء عليهم كلية، لم يصدر خلال فترة السيادة الأريوسية. وهكذا كان ثيودوسيوس أول إمبراطور يقدم على ذلك، ويتعداه إلى الحقوق المدنية حيث أخذت بالتدريج تسحب منهم بشكل واضح، خاصة تلك التى تتعلق بالأرث والوصية. لقد كان ثيودوسيوس أحد الأباطرة الذين يعتقدون أن سلطتهم لابد أن تظل الكنيسة والحياة العقائدية لرعاياهم، وكان هدفه الأساسى أن يرسى دعائم كنيسة نيقية واحدة^(٣٢). غير أنه على الرغم من كل هذه الجهود التى بذلها إلا أنه لم يكتب له النجاح فى هدفه هذا، حيث شهد القرن الخامس صراعاً من حول "طبيعة" المسيح أشد ضراوة مما اكتوى به القرن الرابع الذى دار الصراع خلاله حول "مكانة" المسيح فى الثالوث.

وكان الأريوسيون يبحثون عن الفرصة المواتية لاستعادة سيادة يعتبرونها حقاً لهم، وتحقق لهم ذلك عندما ارتحل الإمبراطور ثيودوسيوس قاصداً الغرب فى عام ٣٨٨ لحرب ماكسيموس، فأعلنوا الثورة فى القسطنطينية، وزاد من حماسهم، ما أشيع عن هزيمة الإمبراطور أمام عدوه، وانصب غضبهم على نكتاريوس

(٣٢) Vasiliev, op. cit. I pp. 80-83.

أسقف العاصمة، فأشعلوا النار في بيته، وتحددت أهدافهم في استرداد الكنائس التي كانوا قد طردوا منها قبل ذلك بسبع سنوات (٣٨١)، وقد نجحوا فعلاً في ذلك. غير أن نجاحهم لم يدم طويلاً حيث أتت الأنباء تعلن انتصار جيش ثيودوسيوس على خصمه، ولم يلبث الإمبراطور أن أرسل أوامره وقواته لإخماد ثورة الأريوسيين، وعاد النيقيون للظهور مرة ثانية (٣٣).

وإذا كانت الأحداث تجري على النحو هذا في الشرق، فإن النصف الغربي كان يشهد الأمور بصورة مغايرة بعد مقتل جراتيان، ذلك أن جوستينا اتخذت من اغتياله فرصة لمباشرة السلطة بنفسها في إيطاليا باسم ابنها فالنتينيان الثاني، حيث كان ماكسيموس يمارس سيادته في غالة. وكانت جوستينا تؤمن بالأريوسية، ولكنها لم تجرؤ لتفصح عن ذلك من قبل (٣٤).

وكان طبيعياً والإمبراطورة الأم وابنها يقيمان في ميلانو أن يقع الصدام بينها وبين الأسقف أمبروز، خاصة وأن بلاطها في ميلانو كان يستعين بخدمة أسقف أريوسى يسمى أوكسنتيوس، وهى سُمى الأسقف الميلانى الأريوسى الراحل، وقد طرده ثيودوسيوس من كرسيه الأسقفى في دوروستا Durostorum في مونيذيا، فالتحق ببلاط جوستينا وفالنتينيان الثانى. وقد أوعزت الإمبراطورة إلى أوكسنتيوس أن يطلب من أمبروز السماح بتخصيص إحدى الكنائس في ميلانو (٣٥). فوجه فالنتينيان الدعوة إلى أمبروز لحضور مجلس كنسى يعقد فى القصر الإمبراطورى لبحث هذا الخلاف، ولكن الأسقف رفض أيضاً الاستجابة. لدعوة الإمبراطور، وكتب إليه رسالة مطولة حول هذا المعنى (٣٦). يوضح فيها أن المسائل الكنسية يجب أن تبحث داخل الكنيسة لا وراء أستار القصر الإمبراطورى (٣٧).

(٣٣) SOCRAT. Hist. eccl. V 13; SOZOM. Hist. Eccl VII 14; AMB. Ep. XL. 13.

(٣٤) SOCRAT. Hist. Eccl V 11; THEOD. Hist. Eccl. V 12-13.

(٣٥) AMB. Sermo con. Aux. 33, 35; ep. XX 2, 3.

(٣٦) AMB. Ep. XXI وقد أوردنا نص هذه الرسالة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

(٣٧) AMB. Ep. XXI 2, 17.

وكانت جوستينا قد أوجت إلى أحد مستشاريها القانونيين ويدعى منيوفولوس^(٣٨). Meniopolus أن يدبج قانوناً يؤكد فيه الاعتراف من جديد بصحة ما جاء في قانون الإيمان الذي صدر من قبل عن مجمع ريميني Ariminum سنة ٣٥٩ على عهد الإمبراطور قسطنطيوس. غير أنه رفض ذلك، ولكنها تمكنت عن طريق غيره من إعداد قانون بهذا الخصوص، سرعان ما أصدره ابنها فالنتينيان سنة ٣٨٠ يقضى بمنح الحرية الدينية للأريوسيين شأن النيقيين^(٣٩). واتخذت الإجراءات الكفيلة بتنفيذ هذا القانون بالقوة. ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا بقهر أمبروز، فحوصرت الكنيسة التي اعتاد الأسقف أن يعظ فيها رعيته، واستخدم العنف ضد المعلمين، في محاولة للقبض على أمبروز وإكراهه على الرضوخ للقانون الإمبراطوري^(٤٠). وفرضت غرامة مالية كبيرة على أهالي ميلانو خاصة التجار، واجبة السداد خلال ثلاثة أيام^(٤١). ولكن ذلك زاد أمبروز إصراراً على موقفه، وازدادت الجموع تعلقاً بأسقفها خاصة عندما رآته يواجه الأوامر الإمبراطورية بشجاعة، ليس من حق أن أسلمها، وليس من صالحك أيها الإمبراطور تسلمها. إنك لا تستطيع دون حق انتهاك حرمة بيت أى إنسان. فهل تظن أن بيت الله يمكن استلابه؟^(٤٢). ولما لم يكن لفالنتينيان الإمبراطور الصبى، من الشخصية ما يمكنه من التصدى لأمبروز، ولما كانت جوستينا تخشى اندلاع الفتنة في المدينة، فقد تم سحب القوات المحاصرة للكنيسة^(٤٣). خاصة وأن الأنباء كانت قد أخذت تتسرب إلى البلاط في ميلانو عن اعتزام ماكسيموس غزو إيطاليا، بحجة الحفاظ على أمور العقيدة النيقية^(٤٤). وكانت هذه المحاولة من جانب

(٣٨) ويدعوه روفينوس: "بنفولوس" Benevolus انظر RVFIN. Hist. Eccl. II 16

(٣٩) AMB. ep. XXI 9; SOZOM. hist. Eccl. VII 13.

(٤٠) AMB. ep. XX 11, 16.

(٤١) Ibid. 6.

(٤٢) Ibid. 19.

(٤٣) Ibid. 26.

(٤٤) SOZOM. Hist. VII 13. ويذكر ثيودوريتوس أن الإمبراطور ثيودوسيوس عندما علم بما كان من أمر النزاع بين أمبروز وجوستينا وفالنتينيان، واعتزام ماكسيموس غزو إيطاليا، كتب إلى فالنتينيان رسالة توبيخ جاء فيها "لا تدع الدهشة تتملك عليك كل سبيل إذا ما وجبت نفسك"

جوستيننا وفالنتينيان هي المرة الأخيرة التي وقفت فيها السلطة الإمبراطورية إلى جانب الآريوسية في الغرب. وبموت جوستينا عام ٣٨٣، نجح ثيودوسيوس في التأثير على فالنتينيان وتحويله إلى النيقية، لتصبح هذه هي المسيحية الرسمية في شطرى الإمبراطورية.

ويشير مجرى الأحداث إلى أن ثيودوسيوس كان قد قر في ذهنه منذ البداية أن يقيم كنيسة واحدة، شاعت له نشأته في الغرب، أن تكون النيقية عقيدتها، بحيث يمكنه بعد ذلك أن يقدم على تحقيق هدفه الثاني والأهم. وكان القضاء على الوثنية هو هذا الهدف الثاني أمام ثيودوسيوس^(٤٥). ولم يقدم على ذلك دفعة واحدة، بل راح يجهز عليها خطوة خطوة على امتداد عهده، وكلما ازدادت ثقته في رسوخ النيقية اشتد في قسوته على الوثنية. وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه مع الفرق المسيحية غير النيقية، وإن كانت الفترة التي قضاها في مواجهة هذه الفرق لم تستغرق سوى الأعوام الخمسة الأولى من عهده، بينما ظل حتى نهاية عهده يصدر المراسيم ضد الوثنية. ولا شك أن هذا يعد شيئاً طبيعياً يتفق ومجريات الأمور. فالوثنية كانت ما تزال حتى الآن هي الدين الرسمي للإمبراطورية، ذلك أن قسطنطين عندما التقى بحليفه اللدود ليكنيوس في ميلانو عام ٣١٣، لبحثا ضمن مفاوضاتهما الأخرى موضوع العقيدة، لم يقدم للمسيحية - كما يعتقد كثير - شيئاً سوى مكاناً إلى جوار الوثنية دين الإمبراطورية. فسمح لأتباعها بممارسة عبادتهم، وردت عليهم كنائسهم وأموالهم المصادرة، ورفع عنهم الاضطهاد. وإذا كان قسطنطين قد حرص بعد ذلك طوال عهده على أن يمالئ الكنيسة، فإن ذلك يعود لأسباب سياسية بحتة، ولكنه لم يكن في يوم ما في عقيدته مسيحياً. حقيقة، أصلح ما تهدم من كنائس وأقام كنائس جديدة، وأغدق على المسيحيين، وسمح لهم بإنشاء محاكم خاصة، ولكنه في الوقت نفسه لم يضطهد الوثنيين ولم يرسل بكهنتهم إلى المنفى، ولم يحرق كتبهم ولم يخلق معابدهم،

«وقد أصابك الهلع، وعدوك في حل النصر يرفل، ذلك أنك رحمت تتحدى التقوى، بينما هو بها يتحلى. لقد خلعت عنك رداءها ورحمت تعدو عارياً. إن الذي منحنا قانون الإيمان الحق ليقف دائماً إلى جانبها».

(٤٥) انظر. Downey, op. cit. p. 64; Bury, The later Roman Empire, I p. 368.

وإذا كان قد أغلق بعض المعابد في بعلبك وكيلىكيا، فقد كان ذلك لدوافع خلقية وليست دينية، حيث أمست مباءة للفجور بعد أن هجرها الأرباب وتخلّى عنها العباد^(٤٦). والمؤرخ الكنسى ثيودوريتوس يعترف بهذه الحقيقة ويقول ما نصه "إن قسطنطين الكبير الذى يستحق كل التمجيد والإطراء، أصدر مرسوماً بتحريم التقريب للأرباب، لكنه لم يصدر مرسوماً بهدم المعابد وإنما اكتفى بإبقاء بعضها مغلقاً"^(٤٧)، ومن المعروف أن قسطنطين كان يقرب للأرباب بنفسه فى قصره.

هكذا يمكن القول إن المسيحية فى عهد قسطنطين خطت فقط أولى خطواتها إلى دائرة الضوء، حيث اعترف بها ديانة "شرعية" أى لأتباعها حق ممارسة طقوسها شأن الوثنيين، وليست "رسمية". وعلى هذا النحو ظلت المسيحية ظيلة عهود أبناء قسطنطين الثلاثة رغم أنهم كانوا فعلاً على المسيحية. وكانت الخطوة الوحيدة الجريئة ضد الوثنية هى تلك التى أقدم عليها الإمبراطور قسطنطيوس عندما أمر بإزالة مذبح النصر من مبنى السناتو فى روما فى خمسينيات القرن الرابع، حتى إذا جاء الإمبراطور جوليان، الذى كان يحمل للمسيحيين كراهية عميقة، ويعتبر يوم عماده أسوأ أيام عمره، قام بالمحاولة الرسمية الأخيرة من جانب الدولة لإعادة الوثنية إلى سابق مكانتها المتميزة عن العقائد الأخرى، وأعاد مذبح النصر إلى مكانه. غير أن جهوده ذهبت مع الرياح بموته السريع المفاجئ بعد عهد قصير (٣٦١-٣٦٣) ولم يمتد العمر بخلفه جوفيان أكثر من ثمانية أشهر، حتى يمكن التعرف على ملامح عقيدية معينة لسياسته، رغم ما يضيفه عليه مؤرخو الكنيسة من صفات التقوى والورع^(٤٨). أما فالنتينيان الأول فكان إمبراطوراً متسامحاً، لا مع كل الفرق المسيحية فحسب، بل تجاه العقائد الدينية على اختلاف أربابها^(٤٩)، فأغض الطرف عن وجود مذبح النصر فى مجلس الشيوخ الرومانى^(٥٠)، بل وسمح بمزاولة العبادات الأليوزية Eleusis الغامضة، فقد أوحى

(٤٦) ناقشت هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب الدولة والكنيسة، الجزء الثانى الفصل الثالث.

(٤٧) THEOD. hist. Eccl. V 20.

(٤٨) ATHANAS. Narr ad. Ammon; ep. ad imp. Iov. 1; GREG. NAZ. Orat. XXI 33;

SOCRAT. hist. eccl. III 22; SOZOM. hist. eccl. VI 3.

(٤٩) AMM. MARC. res gest XXX 9.

(٥٠) SYMM. MEM. 3

الدولة والكنيسة

إليه فنصل أخيراً أنه إذا قهرت هذه العبادة ، فإن اليونان سوف يجدون أن الحياة قد أصبحت عبثاً^(٥١)، ولم يكن فالنتينيان بحاجة حتى لمثل هذا الإيحاء، فقد أعلن منذ الشهور الأولى لاعتلائه العرش ابتعاده الكامل عن المشاركة في المسائل العقيدية.

هكذا وجد ثيودوسيوس نفسه مسئولاً إلى حد كبير عن القضاء على الوثنية القضاء الأخير، حتى تحتل المسيحية التي طال انتظارها، المكانة الرسمية كدين للإمبراطورية بدلاً من الوثنية، خاصة بعد أن غفا الزمن على القوانين التي كان قسطنطين وأبناؤه قد أصدروها بتحريم الأضحيات للأوثان^(٥٢). ولم تكن العبادات الخاصة للأرباب هي التي ما زالت تلقى رواجاً فحسب، بل أيضاً التنجيم والسحر والعبادات الشرقية. وكان كل من هذه المعتقدات على حدة يشكل خطراً جسيماً على المسيحية. ولا شك أن مسألة العرافة كانت دافعاً قوياً لثيودوسيوس على إصدار مرسومه الأول ضد الوثنية في ديسمبر ٣٨١، الذي يخرم إجراء الطقوس الوثنية الخاصة بالتنبؤ، وارتداد المعابد من أجل استلهاهم وحى الأرباب. وهذا القانون في حد ذاته يعد دليلاً على مدى تغلغل التنجيم والسحر والعرافة في نفوس معظم الطبقات المختلفة مهما بلغت درجة ثقافتها، حيث كان المنجمون والعرافون يدعون لممارسة طقوسهم في بيوتات كبار النبلاء.

لقد كانت الطبقة المثقفة، ورجال السناتو والنبلاء والعائلات الثرية والعريقة من الحكام في الأقاليم والمدن، من أشد طبقات المجتمع الروماني تمسكاً بهذه العبادات التقليدية، التي كانت لا تمثل مجرد ارتباط تقليدي، أو اعتقاد روحي ولكن تراثاً ثقافياً كلاسيكياً، وتعبيراً عن الشعور بالارتباط بالوطن، ذلك أن عبادة الأرباب ارتبطت تماماً بالتقليد التاريخي بعقيدة روما حول تمجيد الآلهة الخاصة بها^(٥٣). من أجل هذا كان طبيعياً أن يحدث هذا المرسوم رد فعل عنيفاً خاصة في مجلس السناتو الروماني، الذي كان يعتبر نفسه حفيظاً على هذه الديانة، حيث كانت

(٥١) AMM. MARC. Res gest. XXX 9.

(٥٢) SOZOM. hist. Eccl VII 20. حيث يذكر "أن الوثنية أفادت كثيراً من التسهيلات الموجودة

من جانب الدولة، وزاد عدد المترددين على المعابد".

(٥٣) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

الشخصيات القيادية فيه تمثل النبالة الرومانية المتقفة. وبينما لم يكن بمقدور السناتو في القسطنطينية أن يفعل أكثر من إصدار تشريع يقضى بعدم إغلاق المعابد التي اعتاد السناتو زيارتها، لا من أجل العبادة بل إعجاباً بروائع آيات الفن فيها^(٥٤)، فإن السناتو في روما لم يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التحول الذي يراه خطيراً في تراث روما.

وقد زاد من مخاوفهم أن الإمبراطور الشاب جراتيان، الذي كان واقفاً تماماً تحت تأثير أمبروز، أقدم منذ أوائل سني حكمه على التخلي عن لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maimus الذي كان يحمله الأباطرة الرومان الوثنيون، رغم كونه يمثل لقباً شرفياً لهم، وحرص قسطنطين وخلفاؤه على عدم التخلي عنه، حتى خلعه جراتيان الذي لم يقف عند هذا الحد، بل أصغى لما أوحى به إليه كل من داماسوس الأسقف الروماني وأمبروز أسقف ميلانو، فأعاد من جديد إزالة مذبح النصر، وأضاف إلى ذلك مصادرة دخول عذارى الألهة فستا Vesta التي كانت عبادتها تعد واحدة من أعظم الرموز التقليدية الرومانية، وظل الرومان من رجال السناتو وزوجاتهم يقيمون طقوس هذه العبادة، كما بقيت عبادة الربة روما تلقى احتراماً كبيراً من الرومان الذين كانوا يعتقدون أن الخيرات التي ينعمون بها تعود إلى معبوداتهم هذه، وأن أمن الإمبراطورية وأمانها يعتمد إلى حد كبير جداً على هذه الأرباب التي يقدسونها^(٥٥).

وكانت إزالة مذبح النصر من مبنى السناتو هذه المرة، هي المحور الذي دار من حوله الصراع بين زعماء الوثنية وآباء الكنيسة يعضدهم الأباطرة، وخلف تراثاً فكرياً لا يمكن تغافله، تمثل فيما كتبه الأديب الوثني المفوه فتيوس أجوريوس برايتكستاتوس Vettius Agorius Praetextatus والشاعر الذائع الصيت كلوديانوس Claudianus عضو السناتو، الذي كان شديد التحمس لهذا الرمز الذي يمثل التراث الكلاسيكي الروماني وتتجسد فيه عظمة روما ومجدها، ومن هذا المنطلق نظم قصيداً رائعاً أشاد فيها بما كانت عليه روما، التي لا يمكن

(٥٤) Downey. Op. cit. p. 65.

(٥٥) AMB. Ep. XVII 12; ep XVIII 11 b; SYMM. Mem 3, 10, 11, 13.

للقسطنطينية، وهي تدعو نفسها روما الجديدة، أن تحل محلها^(٥٦). ويفوق هذا وذاك ما كتبه محافظ المدينة والمتحدث باسم السناتو وخطيبه الأشهر أورليوس سيماخوس Aurelius Symmachus الذي قدم باسم السناتو ملتمساً إلى الإمبراطور فالنتينيان الثاني بعد مقتل جراتيان يطلب إليه فيه إعادة المذبح ورد أموال عذارى فستا ثانية. ويعد هذا الملتمس قطعة أدبية رائعة في التغنى بمجد روما وعظمتها وتراثها^(٥٧). وفي الناحية الأخرى يقف أمبروز برسالتيه الشهيرتين إلى الإمبراطور نفسه حول هذا الأمر، وهما لا تقلان، خاصة أولاهما، جودة واتقاناً عما كتبه سيماخوس^(٥٨).

والحقيقة أن مرسوم جراتيان هذا قد ترك أثره السيء الواضح في نفوس أعضاء السناتو الوثنيين، والطبقة الأرستقراطية والنبلاء في روما، فشكّلوا وفداً ترأسه سيماخوس لمقابلة الإمبراطور للعدول عن قراره. غير أن داماسوس قاد هو الآخر مظاهرة معادية من رجال السناتو المسيحيين، وعلى ذلك فشلت مهمة سيماخوس حيث أمره الإمبراطور أن يعود أدراجه ثانية وهو على بعد مائة ميل فقط من روما مرتحلاً لملاقاة جراتيان^(٥٩). وقد عبر سيماخوس عن ذلك بكل الحسرة في السطور الأولى من ملتمسه إلى فالنتينيان الثاني من بعد حين قال "ما أن علم مجلس السناتو الموقر الذي يكن لكم كل التقدير، أن عديداً من الجرائم يرتكب، وأن الأمور في الآونة الأخيرة تتناولها يد الإصلاح من جانب الأمراء الصالحين، فقد انتهز هذه الفرصة المواتية ليفتح بعد الصمت المطبق الأليم فاه، وليأمرني مرة ثانية أن أعبر عما يعتمل في جوارحه من أحزان، بعد أن رفض الإمبراطور الممجد، استقبالي بناء على مشورة نفر انطوت على الخبث نفوسهم. ولكننا الآن لن نفتقر إلى العدالة في ظل سادتي وأباطرتي العظام".

ويبدو أن هذا المرسوم قد أعقبه نوع من الاعتداء من جانب المسيحيين على المعابد وبصفة خاصة تلك التي تتعلق بعبادة فستا وروما. وهو ما يشير إليه سيماخوس "الجرائم التي ارتكبت". ويقول بيوري Bury معلقاً على ذلك "إن ما تم

(٥٦) Downey, op. cit. pp. 66-67.

(٥٧) سوف نورد في المتن بعد قليل نص هذه الرسالة.

(٥٨) انظر بعده.

(٥٩) SYMM. Mem 1.

من تدمير لعدد من الأبنية الرائعة على يد الجماعات الجرمانية إبان زحفهم، لا يعدل مطلقاً ما تم تدميره وتخريبه على عهود هؤلاء الأباطرة المسيحيين، والحقيقة أن ذلك إنما يعزى دون شك إلى التعصب الأعمى لدى رجال الأكليروس وجماعات الرهبان^(٦٠). ويضيف فازيلييف "لقد ذهبت إلى الفناء هذه الثروات الفنية الرائعة في المعابد بأيدي المتعصبين المسيحيين"^(٦١). ولما كان شيوخ السناتو الوثنيون ينظرون إلى هذا العمل على أنه يعد المسمار الأخير في هدم عظمة روما ومجدها، فقد انتهزوا فرصة مقتل جراتيان، والعداء القائم بين فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا من ناحية، وأمبروز من الناحية الأخرى، ليحاولوا من جديد مع الإمبراطور الصبى، عليهم يفلحون. فعُهد إلى سيماخوس بكتابة ملتمس إلى فالنتينيان حول هذا المطلب، نورد هنا نصه بالكامل لنقف على مدى ما كان يعتمل فى نفوس الوثنيين المبتقين آنذاك.

"ما أن علم مجلس السناتو الموقر، الذى يكن لكم كل التقدير، أن عديدا من الجرائم قد وقعت، وأن الأمور فى الآونة الأخيرة وقد تناولتها يد الإصلاح من جانب الأمراء الصالحين، فإنه قد انتهر هذه الفرصة المواتية ليفتح فاه بعد صمت مطبق أليم، وأمرنى مرة ثانية أن أعبر عما يعتمل فى داخله من أحزان، ذلك أنه بناء على مشورة بعض اللثام رفض الإمبراطور الممجد استقبالي^(٦٢). ولكن الآن لن نفتقر إلى العدالة فى ظل سادتى وأباطرتى العظام، فالنتينيان وثيودوسيوس وأركاديوس. عز سلطانهم على الدوام ونصرهم".

والديباجة على هذا النحو، بتضمنها للأباطرة الثلاثة، ترمز فى إيضاح إلى النظرية السياسية الرومانية القائمة على وحدة الإمبراطورية حتى وإن تعدد الأباطرة؛ ذلك أن هذه النظرية ترفض تاما فكرة التقسيم أو وجود إمبراطوريتين منفصلتين، وظل ذلك قائماً حتى بعد ضياع النصف الغربى باستيلاء الجرمان عليه

(٦٠) Bury, later Roman Empire, I pp. 368-369.

(٦١) Vasiliev, op. cit. I p. 82; Laistner, op. cit. 26.

(٦٢) المرة الأولى التى يشير إليها كانت على عهد جراتيان. وقد أمر سيماخوس وهو على بعد مائة ميل من روما أن يعود لأرجاه ثانية.

خلال النصف الأول من القرن الخامس، ولهذا كانت القوانين تصدر باسم الأباطرة الموجودين في شطرى الإمبراطورية، وكان ملتصق السناتو على هذا النحو تعبيراً عن الخطوط العامة لهذا النظرية.

ويمضى سيماخوس قائلاً: "ولذلك فإننى فى الواقع، وأنا أحمل مسئولية مزدوجة، باعتبارى نائباً عنكم، أبشر بإخلاص مهام سلطاتى، وبصفتى مبعوثاً، أنقل إليكم الأعباء التى حملنى إياها المواطنون. وبادئ ذى بدء ليس هناك خلاف فى رأى، ذلك أن الناس باتوا يعتقدون أنهم لن يمثلوا الكلمة العليا إذا ما تفرقت كلمتهم ولا ريب؛ فإن تكون محبوباً محترماً، مقدراً، فذلك شئ يفوق بكثير السلطان الإمبراطورى. ومن ذا الذى يستطيع أن يحتمل هذا الشقاق دون أن يهدد أمن الدولة؟ وخيراً يفعل السناتو عندما يؤدب أولاء الذين يفضلون مجدهم على سمعة الأمير.

"إن واجبنا الأول الآن أن نعمل من أجل رحماكم، فأى شئ أفضل من أن نحمل تراث الأسلاف، وحقوق وقد بلدنا، الذى يعد فوق الجميع، وذلك عندما تدركون أنك لن تقدم على شئ يتناقض وما أقره أسلافكم من قبل. وعليه نرجو أن تعود أمور العقيدة إلى ما كانت عليه من قبل مما كان سبباً فى رقى الدولة وازدهارها، وأن تترك لمبادئ كل طائفة وآرائها حريتها. لقد سار واحد ممن سبقوك^(٦٣) على سنة أسلافه، بينما سمح لها آخر^(٦٤) بالبقاء. وإذا كانت عقيدة الأزمات الغابرة لا تمثل سابقة فلتغض الطرف عنها كما فعل آخران^(٦٥).

"من ذا الذى يكون على مثل هذه الصداقة مع البرابرة، وليس من حقه أن يطالب بمذبح للنصر؟

"إننا من الآن فصاعداً سوف نلزم الحذر ونبتعد عن التظاهر بمثل هذه الأشياء، ولكن على الأقل فلندع تلك الكرامة تخلع على الاسم الذى يلفظ الآن

(٦٣) جوليان.

(٦٤) فالنتينيان الأول.

(٦٥) فالنتينيان الأول وفالنتز.

بالنسبة للمعبود، وشهرتك الباقية على مر السنين، مدينة وستظل مدينة دوماً لهذا النصر، أما أولاء الذين يرفضون هذه القوة فإنهم لم يفيدوا منها أبداً. أترك ترفض التخلي عن هذه الحماية التي تقترن بها انتصاراتك؟ إن شهوة السلطان لها عند الجميع رغبة جامحة، ومن ثم فليس لأحد أن ينكر ما يعترف بأنها فعلاً رغبته وأنها سوف تجلب له الفخار.

"وحتى لو افترضنا أن نتجنب مثل هذا الفأل^(٦٦). ليس كافياً، فإنه من اللائق على أقل تقدير الامتناع عن الأضرار بما يعد فخاراً لمجلس السناتو. إنا نتوسل إليك أن تسمح لنا وقد بلغنا أرذل العمر، أن نترك للأجيال ما فتحنا عليه عيوننا صبية، فلكم هو عظيم حب التراث. حقيقة إن ما فعله قسطنطيوس الممجد قد بقي ولكن لزمان قصير. إن كل السوابق يجب أن تهجر من جانبك. إنا حريصون كل الحرص على سمو اسمك ومجدك حتى يأتي زمان لا يوجد فيه ما يحتاج إلى إصلاح".

ويتساءل سيماخوس والأمل يحده في رحمة الإمبراطور:

"على أى شيء إذن سوف نقسم على إطاعة أوامرك واحترام القانون؟ وبأى رضا ديني سوف ترتدع العقول الضالة؟ حقيقة أن الله يكمن في كل شيء، ومع ذلك فليس هناك مكان يخلو من الزور والبهتان، ومن ثم فإنه من أجل إقرار صيغ دينية معينة، فلا بد من تمثيل سلطان قوى يؤدي بالتالي إلى الخوف من إتيان المعاصي. ولا شك أن هذا المذبح يحفظ الوثام بين الجميع، ويستدل به الكل على صدق الإيمان، ولا شيء مثله يعطى لقراراتنا قوة التنفيذ، ذلك أن أى مرسوم يصدر ومنه نظامنا هذا، يجيء كما لو كان قد صدق عليه بالقسم. من أجل هذا فإن مكاناً ما قد يصبح عرضة للإيمان، الخائبة، ولكنه سوف يصحح على يد سادتي العظام الذين يعلو مجدهم بقسم عام.

"ولقد قيل إن قسطنطيوس الممجد قد فعل نفس الشيء، فلا ضرورة في أن نحاكي بقية أعمال ذلك الأمير الذي لم تكن الرحمة تعرف إلى شغاف قلبه سبيلاً، إذا ما أقدم أحد على أن يرتكب أنام، أيد حماقة. وكان يقوط هذا سبيلاً في أن

(٦٦) الفأل السيء نتيجة تحطيم مذبح النصر.

يصلح خلفه (٦٧) المسار وأن يقومَ أموراً نتجت عن سبقه. ومن الممكن أن نلتمس العذر لسلفكم فى أمر جديد على مثل هذه الشاكلة، بحيث لم يستطع أن ينجو من اللوم. إذن.. هل من الممكن أن نقدم نحن أيضاً نفس هذه الحجة إذا رحنا نحاكى ما نعرف جيداً أنه أصبح أمراً نكراً؟!

"وهل يسمح عظمتكم بأن يقف على أعمال أخرى لنفس هذا الأمير الذى أنت جدير حقاً بأن تسير على هداه؟ أنه لم يقدم على المساس بامتيازات العذارى المقدسات، وملأ المناصب الكهنوتية بالنبلاء، ولم يرفض تقديم نفقات المراسم (الطقوس) الرومانية واقتفى أثر السناتو المبتهج عبر شوارع المدينة الخالدة، وراح يشاهد باقتناع كامل الأحرام.. واستفسر عن نظام المعابد، وأبدى إعجابه بمن شيدوها. وعلى الرغم من أنه هو نفسه مال إلى عقيدة أخرى، إلا أنه مع ذلك سمح ببقائها عقيدة للإمبراطورية، فقد كان يؤمن أن لكل إنسان تقاليده، ولكل طقوسه، ذلك أن العقل الإلهى قد جعل لكل مدينة حراسها وعباداتها، وكما أن الأرواح توهب للأطفال بالميلاد منفصلة، كذلك العبقورية تمنح للأناس حسب أقدارهم . وهنا يأتى هذا كبرهان للإنسان ودليل على الأرباب. ومن ثم فإنه مادامت عقولنا قاصرة، فمن أى شىء إذن نستقى معلوماتنا الصحيحة عن الأرباب إذا لم نأخذها من الذاكرة ودلائل السراء؟ وعليه.. فإذا كانت القرون قد أعطت للتقاليد الدينية سلطاناً مكيناً، فمن واجبنا أن نحفظ الإيمان على مر العصور، وأن نترسم خطى أسلافنا، كما اتبعوا هم سعداء سنن الأجداد.

"ولنفترض الآن أن روما جاءتك تسعى وراحت تحاورك قائلة: "أيها الأمير العظيم.. إن آباءك قد حفظوا على دهرى وقدموا إلى طقوس التقوى، فلتدعنى أحيا بشعائر الآباء حتى لا أشعر بالندم عليهم والأسى. دعنى أحيا حسب سننى.. فهذه إرادتى، إن هذه العقيدة قد أخضعت العالم لنظمى، وهذى المقدسات قد ردت هانيبال عن أسوارى، والسينونيين عن الكابيتول محرابى، أترانى كنت أذكر هذا لألام من أجله فى خريف عمرى؟ لسوف أضع فى اعتبارى أى فكر أو قصد يراد به إقرار النظام وإن كنت أعلم أن الرتبة والمهانة هما رفيقا شيخوخة العمر".

وهذه العبارات تمثل قمة الذكاء واللباقة من جانب سيماخوس، الذي لابد وأنه يشير من طرف خفى إلى ما تعانيه الآن الإمبراطورية من مهانة فى عهدى المسيحى، بما نالته على يد الجرمان الذين أذلوا كبرياءها فى إدنة ومازالوا يعيشون فى ولاياتها فساداً، بينما كانت روما فى عصرها الوثنى تسيطر على مساحات واسعة وحضارات متباينة، من بريطانيا إلى الفرات ومن الدانوب إلى النوبة. ولنواصل سيرنا مع محدثنا لنراه يقول:

"وبعد فنحن نسعى من أجل سلام أرباب آبائنا والوطن، ومن العدالة أن ينظر إلى كل العبادات نظرة سواء، ولم لا، فنحن نهتدى بنفس النجوم، والقبة الزرقاء من فوقنا واحدة. وواحد العالم الذى يحتوينا، وأى خلاف إلا بسبب العناء ما دام الكل ينشد الحق. إننا لا نستطيع أن ندرك السر الأعظم عبر طريق واحد، وإذا كان الجدل بين الأفراد يسيراً بصورة ما، فأنا مع ذلك لا نقدم الآن صراعاً، بل صلوات وضراعة.

"أى كسب عاد على خزانة نتيجة تجريد عذارى فستا مما كن به يتمتعن؟ وهل يعقل أن ترفض هذه الهبات على عهد أكثر الأباطرة كرمًا وسخاء بينما منحت بيد أشدهم بخلاً وتقثيراً؟ إن كرامتهن الفردية تكمن فى هذه الامتيازات، حتى ولو دعوتها أجر بتولتهن. وكما أن العصاة التى يضعنها على رءوسهن هى التاج الذى يزين مفارقهن، فإن تميزهن يعود أساساً إلى تفرغهن الكامل لأداء الطقوس المقدسة. إنهن يسعين فقط من أجل الحصول على ذلك الاسم الأجوف للإعفاء، ذلك أن فاقتهن أعفتهن من دفع الضرائب. ولعل من ينتقص شيئاً مما هو مخصص لهن، يزيد من قدرهن، ومادامت العذرية (البتولية) قد كرست أصلاً لخير بنى البشر، فإن قدرها يسمو إذا ما كانت دون عوض.

"لا تدع أى كسب من هذا النوع يندس قدس خزانة، لا تدع الأمراء الاتقياء يزدون من دخولهم على حساب ما يفقده رجال الكهنوت، بل من غنائم الأعداء والأسلاب. ترى.. هل جوزى أحد خير جزاء على عار ارتكب؟ ولأن خلقك لا يعرف البخل فإن أشد الناس شقاء أولاً الذين تتضاءل مصادر دخلهم القديم. ذلك أن الأباطرة الذين يعاقبون التذنى كغيرهم ويبغضون البخل، لا ينالهم الضرر الذى يصيب من تحركه الرغبة فى إتيانه.

"كما أن الخزانة تحفظت على الأراضي التي أوصى بها للعداري بمقتضى وصايا من أدركهم الموت، وأنى لأضرع إليك أن تعيد الحقوق المسلوقة لأصحابها المقدسين وللأماكن المطهرة فى مدينتك. دع الناس يكتبون وصاياهم دون قلق أو خوف، ولتكن على يقين أن ما كتب لا يمكن أن ينقض على يد حكام، الجود شيمتهم والكرم. دع سعادة الناس جميعاً بهذا الأمر تجلب البهجة إلى قلبك، لأن الأسلاف قد أفلقوا الموتى باجترائهم على الوصايا. ألا ترتبط عقيدة روما بالقانون الرومانى؟ وماذا يمكن أن نسمى ضياع هذه الممتلكات بصورة لم يسبق لها مثيل فى القانون أو الأحداث؟ لقد ذهب الأحرار بالأرث، ولم ينكر على العبيد حق الوصية، أما العداري الأطهار وخدام الأرباب فقد حرّموا حق الملكية حتى عن طريق الأرث. أى شىء إذن أكثر نفعاً للصالح العام من نذر النفس للعدرية، وبقاء الإمبراطورية تحظى برعاية السماء، وضم القوى الصديقة إلى جيشك ونسورك، والتعهد بالسهر على راحة الجميع؟ ومن ثم أنعم بالعبودية إذا كانت خدمة تهدى إلى الرجال، وإلا فنحن نسيء إذن للدولة التى لا يمكن أن يكون اهتمامها محل نكران أو حقوق.

"وأرجو أن لا يظن أنى أدافع فقط عن قضية العقيدة خاصة، ذلك أن أعمالاً من هذا النوع قد تؤدى إلى كوارث لا نهاية لها للرومان. لقد كانت قوانين أجدادنا تقدر وتمجد عداري فستا وخدام الأرباب بشىء من الاعتدال والتمييز العادل. وقد ظل هذه التفوق قائماً حتى جاء زمان الصيارفة الأتنياء، الذين حولوا الأموال المخصصة للطهارة المقدسة، إلى أجور لنفر من الحمالين والحراس، وكان نتيجة ذلك أن عمت المجاعة وحدث القحط الشديد الذى أصاب الولايات كلها بخيبة أمل بالغة، ولم يكن ذلك ذنب الأرض ولا خطيئتها، فنحن لا ننسب إلى النجوم أى تأثير أو تدخل شرير. ولم يصب المحصول بالتعفن، ولم يؤد نزق الشباب وطيشهم إلى انعدام الغلال، ولكن العام نفسه كان عاماً تعيساً من جراء تدنيس المقدسات، لأنه كان من الضرورى أن ينكر على مختلف الأمور ما أنكر على أمور العقيدة.

"ولا ريب، فإنه إذا كان هناك أى مثال على هذا الشر، فقد نعزو مثل هذه المجاعة التى تأثير الفصل ذاته، فإن رياحاً عاصفة تحمل الموت فى هزيمها كانت

السبب في هذا الجذب، ولكن الحياة يمكن أن تحتل بالأشجار والشجيرات، كما أن عوز المواطنين أنصب أصلاً على بلوط دودونا^(٦٨). Dodona وما هو الشر المماثل الذي عانت منه الولايات ما دامت التكاليف العامة تثقل كراهية خدام الدين؟ ومتى كانت ثمار البلوط التي تعصف بها الرياح معدة ليستخدمها الأناسي؟ ومتى اقتلعت جذور النباتات، ومتى فقدت مختلف البقاع ثروتها وخيراتها في كل النواحي؟ ومتى كان الزاد مشاعاً بين الناس والعذارى المقدسات؟ لقد كان رضى الكهان خيراً وبركة لحصاد الأرض، بل كان أكثر تأمناً من أية عطية. ترى هل هناك أدنى شك الآن في أن ما كان يعطى حقاً لخير الجميع؟

"وقد يقول قائل إن الإعانات العامة مرفوضة فقط فيما يتعلق بالإنفاق على الديانات الأجنبية، ولكن مما لا يتفق وخلق الأمراء ذوى الصلاح افتراض أن ما يمنح من الملكية العامة لأفراد معينين يؤدي إلى ازدياد طاقة الخزانة وبالتالي تسلطها، فكما أن الدولة تتكون أصلاً من مواطنين، فإن ما يصدر عنها يعود إليها ثانية ممثلاً في ملكية الأفراد. إن سلطانك ولا شك فوق الجميع، ولكنه أيضاً من أجل الجميع، والعدالة عندك أعظم قدراً من إرادة متعسفة، فلتعد إذن إلى نفسك الحرة ولتشاروها في الأمر، إن كان ما تنعم به على الآخرين يجب أن يوضع في عداد الملكية العامة. إن الأموال التي أوقفت ذات مرة على مجد المدينة لم تعد ملكاً لأولاء الذين قدموها. كما أن الذى كان في البداية عند منحه يعد هبة، أضحي الآن بمقتضى العرف والزمن ديناً. ومن ثم فإن من يسعى الآن جاهداً ليضع في صدرك خوفاً زائفاً، يؤكد أنك تشارك المنعمين مسئوليتهم، إلا إذا جلبت على نفسك عار الاقدام على سحب هذه الهبات.

"إن أولاء الحراس غير المرئيين لابد وأنهم ممتنون لرحمتك، ولا بد أنهم وقد قدموا يد العون للأسلاف من قبل، سوف يدفعون عنك بوجه خاص، ومن ثم فمن حقهم علينا العبادة. من أجل هذا فنحن نرجو أن يعود الوضع الذى كانت عليه العقيدة من قبل، تلك التى حفظت الإمبراطورية لأبيكم الممجّد^(٦٩). وأنعمت على

(٦٨) يقصد ثمار البلوط من أجل الطعام.

(٦٩) فالنتينيان الأول، وقد قال عنه سيماخوس أنه لم يقض على عبادة الأرباب وإن كان لم يشارك في أداء طقوسها أو عبادتها.

ذلكم الأمير المبارك بارث شرعى. وها هو ذا أبوك، الموقر، يشهد من عليائه عند النجوم دموع الكهان، ناظراً إلى نفسه كما لو كان محل نقد نتيجة انتهاك تلك التقاليد التى رعاها لكل إرادته.

"ولتحاول أيضاً إصلاح ما أقدم عليه أخوك الممجد تحت تأثير آخرين لإرضاء السناتو، بعد أن أصبح معروفاً أن تلك السفارة قد حيل بينها وبنيه، حتى لا تتمكن من إطلاعه على ما يبتغيه رأى العام، ألا من أجل فخار الماضى نناشدك أن لا تتردد فى التخلّى عما ثبت بالقطع أنه لا يتفق وخلق الأمير".

والملمس فى جملة قطعة أدبية رائعة تدور حول تراث الأسلاف وعظمة روما ومجدها الذى يتمثل بصورة مباشرة فى احترام الأرباب والحفاظ على مقدساتها، وهو يوعز إلى فالنتينيان أن يسير على سنة أبيه وعمه، فى إغضائهما الطرف عن وجود مذبح النصر هذا، "فكم هو عظيم حب التراث"، وكان طبيعياً أن يثنى سيماخوس على الإمبراطور جوليان الذى قدس هذه الأحرام المقدسة، ورد عليها اعتبارها بعد ما فعله سلفه قسطنطيوس، وبفكر الفيلسوف، يعيد سيماخوس على ذهن الإمبراطور المسلمات والبدهييات الأولى المتمثلة فى وحدة الوجود.

ويشير سيماخوس فى صراحة غير مفرطة إلى ما أصبح معتقداً لدى الوثنيين المعاصرين من الأدباء والمفكرين وحتى بعض المؤرخين اللاحقين، من أن تحول الإمبراطورية إلى المسيحية كان السبب المباشر فيما حل بالإمبراطورية من الهزائم والكوارث التى لحقت بها، وكان هذا هو الدافع الرئيسى لأن يترك القديس أوغسطين من بعد دفاعه الشهير عن المسيحية فى كتابه الرائع "مدينة الله".

والذى يدعو للانتباه أن أمبروز الأسقف الميلانى أسرع على الفور حالة سماعه بأن الخطيب الرومانى سيماخوس قد أرسل ملتمساً إلى الإمبراطور حول موضوع مذبح النصر ودخول عذارى الربة فستا، وشحذ قلمه على الفور، وكتب إلى الإمبراطور فالنتينيان رسالة عنيفة أوضح فيها أن حماية العقيدة المسيحية وليس انتهاكها هى أهم واجبات الإمبراطور^(٧٠)، وأن هذا الالتماس من جانب

AMB, ep. XVII 3. (٧٠)

سيماخوس لا يمثل السناتو كله، ولم يأت نتيجة إجماع الآراء فيه، لأن أعضاءه المسيحيين لم يوفقوا على ذلك، ولم يشتركوا في المطالبة بما جاء فيه، ويدلل على ذلك بأن هؤلاء قد بعثوا باحتجاجهم إلى داماسوس البابا، الذي قام بدوره بإرسال احتجاجاتهم هذه إلى أمبروز ليعرضها على الإمبراطور^(٧١)، كما أكد على أن استجابته لمثل هذا الرجاء سوف تُلطخ سمعة أبيه وأخيه^(٧٢)، ثم وضع فالنتينيان أمام الأمر الواقع وحذره صراحة بأنه في حالة الموافقة على ما طلبه الشيوخ الوثنيون فسوف يصدر ضده قرار الحرم الكنسي^(٧٣).

وليس أقدر على وصف ما تملك مشاعر أمبروز من الفرع مخافة أن يعيد الإمبراطور فالنتينيان مذبح النصر إلى سابق عهده ثانية، وأن يرد إلى عذارى فستا ما كان لهم، نقول ليس أقدر على وصف تلك المشاعر عند أمبروز.. إلا أمبروز نفسه.. فلندع له القلم هنا ليخط به في رسالة بلاغية رائعة إلى الإمبراطور كل ما تحتويه نفسه.. قال أمبروز:

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير المبارك والإمبراطور الورع فالنتينيان.. من منا الآن ليس جندياً لهذا الإله الحق، ومن عبده بمجامع روحه وقده، ليس من حقه أن يحمل إلى قدس خدمته رياء ولا نفاقاً.. بل عبادة خالصة وإيماناً هو الإيمان، فإذا لم يكن على هذا بقادر، فلا أقل من أن يحجم عن إظهار أى رضاء عن عبادة الأوثان وطقوسها، ذلك أن أحدا لا يمكن أن يخادع الله الذي يعلم السر وأخفى.

"وبعد.. أيها الإمبراطور الورع.. فإن عليك واجبا تجاه الإله.. إيماناً وتحمساً، ألا فلتزع العقيدة وتحمى المعتقد.. وإنه لما يثير دهشتي أن أناساً داعبهم الأمل أن يكون من بين واجباتك إعادة المذابح إلى أرباب الوثن، وتوفير الأموال اللازمة لتقديم القرابين، وما ذاك إلا لما شاع طويلاً من أنك تميل - فيما يبدو - إلى أن تقدم لهم من أموالك الخاصة، فضلاً عن الخزائنة الإمبراطورية وخزانة المدينة، بدلاً من أن تسترد ما بأيديهم.

Ibid. 10-11. (٧١)

Ibid. 16 a, b. (٧٢)

Ibid. 13, 17. (٧٣)

"وإنهم الآن يشكون الضياع، وهم الذين من قبل أراقوا دماءنا، والكنائس دمروا، ثم هاهموا ثانية يطلبون إليكم أن ترفع قدرهم، وهم الذين أنكروا من قبل علينا بمقتضى قانون جوليان^(٧٤) الحق فى التعلم والتعليم. هذه الامتيازات التى يطالبونها، طالما خدعوا المسيحيين بها وأوقعوا البعض من جرائها فى حبال شركهم، إما بالغفلة، وإما بالتخلص من عبء الخدمة العامة. والنتيجة أن عدداً كبيراً منا حتى على عهد الحكام المسيحيين، قد زلت أقدامهم.

"وإذا كانت هذا الأمور ما زالت قائمة، فإنى أكاد أجزم أنها بفضل سلطانك لابد وأن تنقشع. خاصة وأنها قد حرمت من قبل بفضل كثير من الحكام فى كل أنحاء الإمبراطورية تقريباً، وكذا فعل طيب الذكر جراتيان، أخ رحمتكم، من أجل الإيمان الحق. فأزالوا بمراسيمهم فئة الضلال. وإنى لأضرع إليك.. أن لا تحدث فى أمر الإيمان ما استقر أمره، وأن لا تنقض ناموس أخيك. وهل يعقل أن أمور الدولة التى رتب شئونها لا يجرؤ أحد على أن يسمها من بعيد، بينما تطأ النعال ما أرساه فى شأن العقيدة!

"لا تدع أحد يستغل صباك، فإذا ما كان هذا وثئياً، فليس من الصواب أن يصادر عقلك بحبال مكره، بل بالحرى يجب أن تدفعك حماسته إلى أن تتعلم كيف تكون غيوراً على الإيمان الحق، مادام هو يدافع عن الباطل بكل ما أوتى من قوة، وأنى لناضحك بأن تصغى لمن أوتى الحكمة من الرجال، وإن كان الله لا ريب فوق الجميع.

"ولنفرض مثلاً أنا رحنا نتشاور حول أمور عسكرية، فإن رأى رجل الحرب لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار، ولا بد أن تطاع آراؤه. فإذا كانت المسألة تتعلق بالدين.. كان حتماً مقضياً أن ينصرف إلى الله فكرنا. لا أحد يضار لأن الله أمامه. إنه حافظ عقله. إنك لا يمكن أن تسوق إنساناً إلى أن يعبد ما يكره قلبه. أيها

(٧٤) هذا القانون الذى يشير إليه أمبروز هنا كان يعنى فى الدرجة الأولى الإبقاء على الأطفال المسيحيين جهالاً دون تعليم، ذلك أن جوليان أصدر مرسوماً يقضى بمنع المسيحيين من القيام بالتدريس، وعهد بذلك إلى المدرسين الوثنيين الذين كان عليهم تدريس فلاسفة الوثنية، ومن ثم أمتنع المسيحيون عن إرسال أبنائهم إلى المدارس.

الإمبراطور فلتدع نفس الحرية توهب لك، ولتدع أنت كل إنسان يعايشها بكل الاحتمال، حيث لا يستطيع أن يبتز من الإمبراطور ما يجب أن يحصل عليه فى يسر، إذا كان الإمبراطور نفسه تحدوه الرغبة فى أن يسلبه إياها. إن أى روح خادعة لا يمكن أن يسر بها الوثنيون أنفسهم، ذلك أن كل إنسان لابد وأن تعطى له حرية التمسك والدفاع عن إيمانه وهدفه اللذين يهديه إليهما عقله.

"ولكن إذا ما ساورت أى إنسان - والمسيحيين بصفة خاصة - الظنون فى أن هناك مرسوماً ما على وشك الصدور، فلا تسمح لكلمات جوفاء أن تضل عقلك، ولا لعبارات معسولة أن تخدعك. وإن كان الكل هنا - الناصح والمستمع - ضحايا، ولكن أن يضحى بواحد فقط، لهو أفضل بكثير من أن يهوى الجميع!! إن المسيحيين من شيوخ السناتو - أيها الأمير - لفى خطر.

"ولنفرض ثانية أن إمبراطوراً وثنياً أقدم اليوم على بناء مذبح للأوثان، رغم أن الله يحرم ذلك، وأنه ساق المسيحيين قسراً إلى هناك، لينتظموا فى صفوف أولئك الذين يقربون، فإن الرائحة المنبعثة من على المذبح، وتدنيس الحرمات المقدسة، ودخان المحرقات المتصاعد، لسوف يزكم أنوف المخلصين ويسد منهم الحلق، ولسوف يدان ذلك، حيث أن عدداً من الأعضاء قد أكره على التصويت بعد أن أقسم أمام مذبح لأحد الأوثان. (لأنهم سوف يعلنون ذلك بأن مذبحاً قد أقيم لهذا الغرض، وأن كل اجتماع سوف ينعقد فى ظل رضائه كما يفترضون، رغم أن السناتو الآن يضم أغلبية مسيحية). غير أن المسيحي الذى اضطر إلى مثل هذا الاختيار، سوف يعتبر ذلك نوعاً من الاضطهاد غالباً ما يحدث لأنهم اقتيدوا قهراً إلى السناتو. أيها الإمبراطور.. هل كان هؤلاء المسيحيون عند اختيارك إمبراطوراً قد أكرهوا على القسم أمام مذبح وثنى؟ وما القسم إلا أن يكون اعترافاً بسلطان الإله الذى تبتهل إليه، وهو على إيمانك رقيب. ولكن ما أن غدوت إمبراطوراً حتى أصبح هدفاً لدى البعض منشوداً أن تأمر ببناء مذبح، وأن تقدم نفقات القرابين.

"غير أن هذا لا يمكن أن يحدث دون انتهاك للحرمات المقدسة، ومن ثم فإنى أضرع إليك أن لا تصدر مرسوماً بهذا أو تأمر به، أو أن توقع على أى مرسوم بهذا الخصوص. وأنا باعتبارى كاهناً للمسيح، أستجير بإيمانك، بل إن كل الأساقفة سوف يتضافر جمعهم عائدين بك، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر مفاجئاً أو غير

الدولة والكنيسة

صديق، لأن مسألة كهذه لا بد وأن تطرح للمناقشة في حضرتك، أو أن يقدم بها إليك السناتو ملتصقا. ولكنى أستبعد أن يكون السناتو قد أقدم على مثل هذا، ولا يعدو الأمر أن جماعة الوثنيين به استغلوا في ذلك اسمه، ذلك أنه منذ حوالى عامين مضيا، عندما جرت مثل هذه المحاولة، بعث إلى المقدس داماسوس أسقف الكنيسة الرومانية المختار بأنهم يشجبون هذا المطلب من جانب الوثنيين، ويعلنون صراحة وفي شجاعة أنهم لن يحضروا اجتماعات المجلس إذا ما صدر مثل هذا القرار. إذن هل يليق بك كمسيحي، أن يجرد الشيوخ المسيحيون من كرامتهم، من أجل إضفاء نفوذ على تلك الإرادة الدنسة للوثنيين؟ وقد أرسلت بهذه المذكرة إلى أخيكم وكان واضحا منها، أن السناتو لم يصدر أية أوامر حول تكاليف هذه الخزعات.

"ولقد يقال أين كانوا عندما نوقشت هذه الالتماسات في السناتو؟ وكيفما كان الأمر ففيما قالوه للإمبراطور الكفاية. وإنى لأعجب، إذ استطاع أولئك الأفراد تجريد غيرهم في روما من حق الاعتراض، من تراه لا يرغب في أن تكون لك الحرية كي لا تأمر بما تراه حسنا أو أن تستمسك بالذى عليه فكرك؟

"ومن ثم فإنه لا يسعنى، وما زالت ذاكرتى تعى تلك المهمة التى عهد بها إلى مؤخرأ^(٧٥). إلا أن ألوذ بإيمانك مرة أخرى، وأناشد فيك مشاعرك ألا تستجيب لرغبة الوثنيين هذه، أو تركز إلى أى نوع من انتهاك المقدسات بتوقيعك على هذه الملتمس، وليكن رائدكم في ذلك، أب رحمتكم، الإمبراطور ثيودوسيوس الذى اعتدت أن تسأله النصيح فى كل الأمور ذات الأهمية الخاصة. ولا شئ أهم من العقيدة، ولا شئ أعظم من الإيمان.

"وهب أن هذا الأمر كان قضية مدنية، فمما لا شك فيه أن حق الاعتراض سوف يكون مكفولا للخصوم، فما بالك وهذه قضية الدين. وها أنذا أسقف (ميلانو) أرفع الدعوى. فلتسمح لى بالحصول على نسخة من الالتماس المقدم من الوثنيين حتى أستطيع أن أعد ردى عليه. ولتسمح لأب رحمتك (ثيودوسيوس) أن يقف على هذه القضية بكل تفاصيلها، وأن يتعطف بالرأى فيها. وليكن معلوماً، أنه إذا ما

(٧٥) يشير بذلك إلى الرسالة التى بعث بها إليه داماسوس طالبا أن يقدم الالتماس الذى وضعه رجال السناتو المسيحيون إلى جراتيان.

صدر أى قرار آخر، فإننا معشر الأساقفة لا يمكننا أن نحتمله باقتناع دون أن نبدى فيه رأينا. وقد تأتى إلى الكنيسة، ولكنك لن تلقى فيها كاهناً، ولا أحداً حتى يعترض سبيلك.

"وبم ستجيب الكاهن إذا راح يحاورك: "أن الكنيسة ليست فى حاجة إلى عطايك، ما دمت قد زينت معابد الوثن بمثل هذه العطايا. إن مذبح المسيح يرفض قربانك يا من أقمت للأوثان مذبحاً، لأن الصوت صوتك. وهذى يداك، وهذه بصماتك.. وتلك فعالك. الرب يسوع يعرض عن قداسك يا من تقوم على خدمة الأصنام، وهو الذى يخاطبك قائلاً: "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين^(٧٦)". أن العذارى اللاتى نذرن لله أنفسهن لم يحصلن على امتيازات، بينما عذارى فستا بها يتتعمن، فلماذا إذن تبحث عن كاهن للرب الذى عليه أثرت دعوى الوثنيين الزائفة؟ إنا إذن لا نشارك الآخرين آثامهم.

"كيف إذن ستجيب على ما تقدم؟ من تراه مثلك يسقط إلا أن يكون صبياً؟ إن كل عمر فى المسيح تام.. وكل أجل عند الله مكتمل. ليس فى الإيمان طفولة، لأنه حتى الأطفال، اعترفوا بالمسيح فى وجه مضطهديهم بفم غير مرتعش.

"وبم ستجيب أخاك.. ألن يقول لك: "لم أشعر أنى قد توليت، لأنى تركتك إمبراطوراً، لم أحزن عندما حان حينى، فقد رأيت فيك إرثى. لم أنتحب عندما خلعت عنى عباءتى الإمبراطورية، وكيف وقد أيقنت أن كل ما أقررت، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة، سوف يبقى ما بقيت الحياة. لقد أقمت نصب الرحمة والفضيلة وطرحت كل ما غنمت ممن هو للجميع عدو. وفيها يكمن النصر الأبدى. ترى أى شىء إذن أكثر من هذا يمكن أن يسلبه عدوى منى؟ لقد ألغيت مراسيمى، وفعلت ما لم يفعله ذلك الذى رفع راية العصيان فى وجهى^(٧٧). ألا ترى معى الآن أنى قد تلقيت طعنة نافذة بيد أخى عندما انتهك قراراتى؟! وإذا كان جسدى قد واره التراب، لأنك تلتطخ الآن أفضل ما بقى لى.. سمعتى. حقيقة لقد ضاع سلطانى،

(٧٦) متى ٢٤/٦.

(٧٧) ماكسيموس.

ولكن الذى يشق على نفسى أنه يضيع بيد أسرتى، وهذا الذى يضيع شهد به من قبل أعدائى. إنك إن أطعت هواك، انتهكت الإيمان الذى كان معتقدى، وإذا استسلمت دون إرادة، كنت لنفسك خواناً. إن أشد ويلاتى التى أكابدها، إن مصيبتى فيك هى المصيبة.

"بل كيف ستواجه أباك وهو يسألك والحزن يعتصر منه الفؤاد: "ولدى.. لقد أعيتتني عندما ظننت أنى عن الوثنية تغافلت. إن أحدا لم يخبرنى أن هناك مذبحاً مقاماً فى مجلس السناتو ولم يدر بخلدى مطلقاً مثل هذه الخبائث. أعنى تقريب الأضحيات للأوثان، والمسيحيون والوثنيون فى اجتماع مشترك، أو أن يقال إن الوثنيين تعمّدوا إهانة المسيحيين الحاضرين، وأن المسيحيين الآخرين أكرهوا على المشاركة فى ذلك. لقد وقع كثير من الجرائم فى عهدى. وقد قضيت فى كل بما تكشف. فإذا كان أحد قد أفلت، أمن الواجب أن يقال إنى استحسننت أن أحداً لم يخبرنى. مرة أخرى إنك تسيء إلى إذا ما سمحت لخرف الخزعات أن تسود الإمبراطورية ولم تحفظ عليها إيمانى.

"وبعد أيها الإمبراطور .. فقد رأيت أنك إذا أقدمت على شيء من هذا، فإن ضراراً لا حصر لها لا محالة واقعة.. أولها بالله يلحق.. ومن بعد بأبيك وأخيك. وإنى لأضرع إليك أن تفعل ما تعرف أنه سوف يكون سبباً فى خلاصك أمام الله".

ومن استعراض هذه الرسالة يتضح لنا أنها تشتمل على نقاط ثلاث، الأولى يخاطب فيها جانب الإيمان المسيحى فى الإمبراطور فالننتينيان، مبيناً أن الملوك جميعهم يستمدون سلطانهم وقوتهم من الله وحده، الذى يمكنه فى الوقت نفسه أن يسلبهم كل ما بأيديهم، وهذه وإن كانت لا تشير إلى الإمبراطور صراحة، إلا أنها تومئ إلى أن الله قادر عن طريق رجاله - نعى كما يعنى أمبروز - رجال الكنيسة، التصدى لمن يخرج عن تعاليمه.

وأمبروز فى رسالته يخلع على الإمبراطور صفات التقوى والورع والجلال، ويخاطبه بـ "الأمير المبارك"، و"الإمبراطور الورع"، ويحدد فى الوقت ذاته مهام

الحاكم وواجبه الأساسى الذى يتركز فى حماية العقيدة والحفاظ عليها ضد من يحاولون انتهاكها من عبدة الأرباب هؤلاء.

ويضرب له مثل الرجلين، أباه وسميه فالنتينيان الأول وأخاه جراتيان، اللذين نذرا نفسيهما - فى رأيه - للدفاع عن المسيحية، رغم أن أمبروز يذكر فى رسالته أن الأب - فالنتينيان - الأول ترك المذبح فى مكانه "لأنه لم يعلم بوجوده ولم يخبره أحد بذلك!!" كما جاء على لسان فالنتينيان فى الرسالة هذه، وهذا لا يتفق بطبيعة الحال مع ما ذكرناه آنفاً عن شخصية فالنتينيان الأول وسياسته تجاه المشكلات الكنسية والعقيدية عامة.

أما النقطة الثانية التى تضمنتها الرسالة فتتمثل فى أن أمبروز يطلب إلى فالنتينيان الثانى عرض القضية على الإمبراطور ثيودوسيوس، باعتباره - حسب تعبيره - ناصحه الأمين، حتى "يتعطف بالرأى فيها". وهنا تنتقل الرسالة تدريجياً إلى مرحلة أخرى فى مخاطبة الإمبراطور، فبعد الحديث عن الإيمان وسلطان الله، يقحم أمبروز ثيودوسيوس على القضية حتى يصبح حكماً فيها، وذلك لما يعلمه عن هذا الأخير من تعلق بالمسيحية النيقية وقوة الشخصية، ولكن الأهم من هذا كله أنه يعلم يقيناً مدى الحرج السياسى الذى يعانى به فالنتينيان الثانى من جراء مقتل أخيه وتهديد المغتصب ماكسيموس بغزو إيطاليا، والاحتياج الكامل من جانبه للعون العسكرى والتأييد المادى والمعنوى من ناحية إمبراطور الشرق لإنقاذه من مخططات ماكسيموس، ومن ثم فإن الإمبراطور الصبى لابد وأن يخضع طوعاً أو كرهاً لما يقرره ثيودوسيوس، والذى سوف يأتى بالطبع موافقاً لكل ما يريده الأسقف الميلانى، وأمبروز يعبر عن ذلك صراحة بقوله: "وليكن معلوماً أنه إذا ما صدر أى قرار آخر، فإننا معشر الأساقفة لا يمكننا أن نحتمله باقتناع دون أن نبدى فيه رأينا، وهذا القول يأتى مباشرة بعد طلب تدخل ثيودوسيوس، ومن ثم فالمقصود بـ "الرأى الآخر" هنا هو أى قرار يصدر مخالفاً لرأى الإمبراطور فى الشرق، وهذا فى حد ذاته يمثل تهديداً مستتراً لفالنتينيان.

وهنا ينتقل أمبروز تلقائياً ومباشرة إلى النقطة الثالثة وهى التهديد المباشر للإمبراطور الصبى باللعنة والحرمة الكنسية إذا ما أجاب الوثنيين إلى مطلبهم،

وعلى هذا النحو أقفل أمبروز كل المنافذ أمام الإمبراطور، بحيث لا يسعه في النهاية إلا أن يرفض ما جاءه الوثنيون من أجله.

ويشير أمبروز في رسالته هذه إلى أن سيماخوس لا يمثل الأغلبية في مجلس الشيوخ الروماني، لأن الأغلبية الآن - حسب تعبيره - مسيحية، وهذه مغالطة تاريخية، فحتى هذا التاريخ كان المسيحيون في الإمبراطورية كلها يمثلون الأقلية، وإذا كان الشرق نفسه مهد المسيحية على هذا النحو أو هو أقرب، فالأحرى أن يكون الغرب وثنياً في معظمه، وكانت الأرستقراطية الرومانية والنبالة وأعضاء مجلس السناتو، لا يزال كثيرون جداً منهم أو غالبيتهم بتعبير أدق، يتمسكون بالوثنية باعتبارها تراثاً رومانياً صادقاً وأصيلاً في نفوسهم، وأن التخلي عنها يعني الخروج من العبادة الرومانية.. ومن ثم فإن ما يذهب إليه أمبروز هنا لا يمثل الحقيقة في شيء، حيث كان سيماخوس الخطيب الروماني، ومحافظ العاصمة القديمة، يمثل بحق زعيم الأغلبية الوثنية في مجلس السناتو.

وقد طلب أمبروز إلى الإمبراطور أن يمهده بصورة من ملتمس سيماخوس حتى يمكنه الرد عليه جملة وتفصيلاً، وقد أجابه الإمبراطور إلى طلبه. ولم يلبث أمبروز عندما حصل على صورة من هذا الملمس^(٧٨) أن كتب رسالته الثانية إلى فالنتينيان حول هذا الأمر، يرد فيها على كل ما أورده سيماخوس، ويفند مطالبه وما ذكره حول عظمة روما الوثنية والفخر الذي نالته، ويدلل على ذلك ببعض الأحداث التاريخية التي تتمثل في الحروب الأهلية بين الفيالق العسكرية الرومانية، أو وقوع بعض الأباطرة أسرى في يد أعداء الإمبراطور^(٧٩)، ويقول على لسان روما رداً على ما قاله خطيب السناتو: "لم تلطخون جبهتي دوماً بتلك الدماء المراقبة عبثاً لهذه القطعان الأليفة؟ إن أقواس النصر لا تقام فقط على أحشاء القطعان، بل على شجاعة المحاربين.. لماذا تضعون دائماً في المقدمة مقدسات أسلافى؟ ما أبغض طقوس نيرون إلى قلبي.. إن أضحياتكم لا تعدو طقساً ارتبطت ببارقة دماء البهائم، لماذا. إذن تبحثون عن وحى الله في الحيوانات المائتة؟ اذهبوا

AMB. Ep. XVIII 1. (٧٨)

AMB. Ep. XVIII 7. (٧٩)

وعلموا الأمم كيف يكون جهاد السماء.. نحن هنا نحيا.. وهناك الجهاد. دعوا الله وحده الذى خلقنى، يعلمنى أسرار السماء، وليس الإنسان الذى لا يعرف هو نفسه كنه نفسه^(٨٠).

وقد جاءت رسالة أمبروز هذه مطولة، ولكنها تكشف فى كل فقرة من فقراتها عن مدى الغيظ والغضب الذى تملك الأسقف من مطالب السناتو فى روما ومخافة أن يستجيب فالنتينيان لالتماسهم، وهو يعبر عن ذلك صراحة فى الفقرة الأخيرة من الرسالة حين يقول "لقد كتبت ردودى على ما أثار حنقى، على الرغم من أننى لا أستثار، فهدفى الأساسى ليس إلا شجب هذا الالتماس"^(٨١). ولذا جاءت الرسالة عنيفة وصارمة، بحيث لم تدع للإمبراطور فالنتينيان أى فرصة للتردد فى رفض هذا النداء والرضوخ لتوجيهات الأسقف الميلانى أمبروز. ولم يكن رفض الإمبراطور لملتمس السناتو صادراً عن عقيدة دينية خالصة، ولكن خوفاً من تهديدات أمبروز بالحرمان الكسنى، وهو القرار الذى كان سيفاً مصلتاً على رقاب الأباطرة فى الغرب طيلة العصور الوسطى، وما يستتبع ذلك القرار من إحلال الرعية من ولائها لإمبراطورها وعزله. يضاف إلى هذا سبب آخر كان الدافع المباشر فى اعتقادنا وراء موقف فالنتينيان. فهذا الملتمس قدم فى عام ٣٨٤، وفى هذا العام كان الإمبراطور وأمه يسعيان بكل الرجاء لدى أمبروز ليقوم بسفارته إلى ماكسيموس فى غالة، موفداً من قبلهما، ليطلب إليه عدم التقدم بقواته نحو إيطاليا، وليتركها لفالنتينيان وأمه، لقاء الاعتراف به إمبراطوراً شريكاً، خاصة وأن ثيودوسيوس كما علمنا، كان مشغولاً بمشاكل أقاليمه فى الشرق والتي لم يفق منها إلا فى نهاية ٣٨٧. وقد استجاب الأسقف لنداء جوستينا وفالنتينيان، وارتحل للقاء ماكسيموس، وقد حققت هذه السفارة الأولى للأسقف إلى غالة نجاحاً جزئياً، إذ أخرجت لسنوات ثلاث قادمة مهاجمة ماكسيموس لإيطاليا. وعلى أية حال، فإن الإمبراطور كان على استعداد تام، وسط هذه الظروف السيئة التى تحيط به فى الغرب، وانشغال القسطنطينية عن مساعدته ولو إلى حين، أن ينفذ بدقة كل ما يأمره به الأسقف أمبروز.

Id. (٨٠)

Ibid. 39. (٨١)

ولعله من الأهمية بمكان هنا أن نعود أدراجنا إلى حضرة الأسقف الميلاني أمبروز، ونصغى إليه بكل الاهتمام، وهو يتناول كل كلمة وردت في ملتمس سيماخوس ليرد عليها، وسوف ندرك للوهلة الأولى أن رد أمبروز يعد لوحة بلاغية راقية أراد بها صاحبها أن تقف منظره للوحة سيماخوس في ملتمسه، ومن ثم أثرت أن أورد هذه الرسالة كاملة - رغم طولها - لنرى صورة من أخريات صور الأدب في العصر الروماني الأخير، من خلال رسالتي سيماخوس وأمبروز، رغم ما يقوله هذا الأخير من أنه لن يلجأ مطلقاً إلى الصنعة اللفظية، ولكن رسالته جاءت بإرادته عكس ما ذكره.

كتب الأسقف الميلاني يقول :

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير المبارك، والإمبراطور الرحيم فالنتينيان أوغسطس".

"مذ علمت أن المبجل سيماخوس، محافظ المدينة، قد بعث إلى رحمتكم ملتمساً إعادة المذبح الذي كان قد أزيل من مبنى السناتو في روما، وأنت أيها الإمبراطور وإن كنت ما تزال في مقتبل العمر والخبرة، ولم تتمرس بعد في أمور العقيدة، ومع ذلك رفضت ضراعة ذلك الوثني، أقول إنني منذ علمت ذلك تقدمت على التو أطلب نسخة من هذا الملمس، رغم أني كنت قد حددت عدة نقاط كان لابد منها في هذا الخصوص.

"ومن ثم فإن الشك لا يساورني في صدق إيمانك، وإن كان القلق يملكني حول مدى خطورة هذا الأمر، ولذا فإنني أقدم في هذه الرسالة ردى على ما جاء في ذلك الملمس، مبتعداً عن التصنع في الأسلوب الذي لست أنت الآن في حاجة إليه بقدر ما تبغيه من معرفة الحقيقة، مقتنياً في ذلك ما علم به الكتاب المقدس من أن لسان ذوى الحكمة أشبه شيء بالذهب، يتألق بكلمات براءة، ويفوه بعبارات ساحرة، يأخذ بالألباب ويبهر العيون. هذا الذهب إذا قدرته حق قدره، فإن قيمته تظل بادية للعيان داخل دائرة المعادن. أتوسل إليك أن تمعن الفكر جيداً وأن تفحص بدقة كل ما يتعلق بالوثنيين، أحاديثهم، هماساتهم، أقدارهم، ولتقف إلى جانب ما تعتقد - دون مشقة - أنه الحق. إنهم يتحدثون عن الله ويعبدون الأوثان.

"لقد حدد محافظ المدينة المبجل في التماسه ثلاثة افتراضات يعتبرها من الأهمية بمكان، وهى أن روما - كما قال - تنادى بعودة مقدساتها ثانية، واستمرار إجراء الهبات على كهنتها وعذارى فستا، ووقوع المجاعة عقب رفض دفع مخصصات الكهنة.

"فى افتراضه الأول تبدو روما حزينة تخنق كلماتها العبرات وهى تشكو طالبة عودة مقدساتها التى تتعلق بطقوسها القديمة، ويضيف أن هذه المقدسات هى التى ردت عن الأسوار هانيبال وأبعدت السينونيين^(٨٢). عن الكابيتول. بينما اتضح للعيان فى الوقت ذاته مدى ما عليه هذه المقدسات من ضعف وخذلان، ذلك أن هانيبال طالما أهان هذه الآثار الرومانية المقدسة، وتمكن من الوصول إلى أسوار المدينة، بينما الأرباب كلها تدفع عنها، فلماذا إذن يكلفون أنفسهم مشقة معاناة الحصار إذا كانت أربابهم تتولى حمايتهم؟

"ولماذا أحدث عن السينونيين، وهم الذين تمكنوا من الوصول إلى قلب الكابيتول؟ آخر ما كان قد بقى للرومان دون أن يتعرض لهم أحد. فلتتظر إذن بأى نوع من الأرباب كانت معابد الرومان تحتوى ؟ أين كان جوبتر آنذاك؟

"ولكن لماذا أنكر على الرومان أن آثارهم المقدسة كانت تحارب من أجلهم؟ فلقد كان كانيبال هو الآخر يعبد نفس الأرباب. دعهم إذن يختارون ما تهوى أنفسهم، فإذا ما وقفت هذه الأرباب إلى جانب الرومان فإنها بالتالى تكون قد قلبت للقرطاجنيين ظهر المجن، أما إذا حالف النصر القرطاجنيين، فلا بد أن تكون الآلهة قد تخلت عن الرومان.

"ولنفرض أن شكاية الرومان المغرضة هذه قد وصلت إلى غايتها، فإن روما نفسها لا يمكن أن تقدم على مثل ذلك، لأنها لا بد وأن تتحدث بأسلوب آخر. إنها سوف تقول: "لم تلطخون جبهتى دوماً بتلك الدماء المراقبة عبثاً لهذى القطعان الأليفة؟ إن أقواس النصر لا تقام فقط على أحشاء القطعان، بل على شجاعة

(٨٢) اسم يطلق على قبيلتين غاليتين قديمتين، الأولى فى غالة والثانية فى إيطاليا حارب الأولى يوليوس قيصر بين عامى ٥٣-٥١ ق.م. فى غالة أما الثانية فقد هاجمت روما واحتلتها سنة ٣٩٠ وظلت فيها حتى تم طردها سنة ٢٨٣ ق.م. على يد كورنيليوس دولا بللا.

الدولة .. والكنيسة

المحاربين. لقد أخضعت العالم بأسلوب مغاير تماماً. لقد كان كاميللوس^(٨٣). Camillus هو قائد الذي نبح أولئك الذين استولوا على صخرة طاريبيا^(٨٤). Tarpeia وأعاد ثانية تلك المقدسات التي سلبت من الكابيتول. إن الشجاعة هي التي دفعت بأولاء الأعداء إلى الحضيض حيث لم ينفعهم دينهم. وماذا أقول عن أتيلوس^(٨٥). Regulus Attilius الذي أسلم الروح شهادة؟ ولم يجد الأفريقي^(٨٦) نصره على مذبح الكابيتول، بل حققه على صفوف هانيبال. لماذا تضعون دائماً في المقدمة مقدسات أسلاف؟ ما أبغض طقوس نيرون إلى قلبي. ولماذا أكلف نفسي عناء الحديث عن أباطرة لم يدم حكمهم أكثر من شهرين^(٨٧). أباطرة ترتبط نهاية عهودهم ببدايتها؟ وهل يعد من قبل المصادفة عبور البرابرة لحدودي؟ وهل كان هؤلاء الذين جرت على أيديهم أحداث لم يسبق لها مثيل، مسيحيين مخلصين؟ لقد وقع أحد الأباطرة في أيديهم أسيراً^(٨٨)، بينما ظهر للعالم على عهد آخر أن مقدساتهم التي وعدتهم النصر محض زيف وضلال. ألم يكن هناك ساعتها مذبح النصر؟ إنني لأبكي الآن على هذا السقوط الذي آل إليه مصيري. إن عمري المديد قد ارتبط بهذه الدماء المراقبة عاراً. وليس يخلجني أني تحولت إلى المسيحية مع

(٨٣) دكتاتور روما عام ٣٩٦ ق.م هزم الاتروسكيين، وحقق انتصاراً ثانياً على الغال عندما هاجموا روما سنة ٣٩٠. توفي سنة ٣٦٥ ق.م.

(٨٤) على الطرف الجنوبي الغربي لقل الكابيتول، اختيرت ليلقى الخونة عليها الإعدام.

(٨٥) هو قائد وقنصل روماني في عامي ٢٦٧ ق.م، ٢٥٦ ق.م. هزم الأسطول البوني إبان الحرب البونية الأولى، وكانت شروطه للصالح قاسية دفعت القرطاجيين إلى الاستمرار في الحرب، وقد هزم في عام ٢٥٥ ووقع في الأسر وظل أسيراً، ثم أرسل إلى روما للتفاوض حول السلام أو تبادل الأسرى عام ٢٥٠، ويقال أنه أوحى للسناتو برفض الاقتراحين، ثم عاد إلى قرطاجة وعذب حتى مات.

(٨٦) سكيبيو.

(٨٧) لعله يشير هنا على سبيل المبالغة البيانية إلى جالبا Galpa وأوتو Otho وفيتليوس Vitellius الذين لم يدم حكمهم فيما بينهم أكثر من ثلاث سنوات، أو ربما إلى برتيناكس Pertinax وخليفته جوليان اللذين قتل كل منهما خلال ثلاثة شهور من حكمه.

(٨٨) يشير هنا إلى الإمبراطور فاليريان Valerianus الذي وقع أسيراً في يد الفرس عام ٢٦٠ وعومل معاملة غير كريمة. أما الآخر فهو جالينوس الذي أعلن عدد من قواده التمرد عليه وعرفوا باسم "الطغاة الثلاثة" وراحوا يمارسون سلطة مستقلة، وقد بذل جالينوس محاولات كثيرة للقضاء عليهم ولكن دون جدوى.

العالم كله فى هذا العمر. وليس هناك فى الحقيقة عمر يعد متأخراً على التعلم، فليبق إذن هذا العمر المتقدم مصدر خجل لمن لا يرغب فى إصلاح أمره، وليس امتداد العمر شيئاً يستحق المديح بقدر ما تستحقه الأخلاق، وليس هناك عار فى التحول إلى الأفضل. لقد كان هذا فقط هو الذى يربطنى بالبرابرة فى ماضى الزمان، ذلك أنى لم أكن أعرف الله. إن أضحياتكم لا تعدو طقساً ارتبط باراقه دماء البهائم، لماذا تبحثون عن وحى إله فى الحيوانات المائتة. اذهبوا وعلّموا الأمم كيف يكون جهاد السماء، نحن هنا نحيا، وهناك الجهاد. دعوا الله وحده الذى خلقنى يعلمنى أسرار السماء وليس الإنسان الذى لا يعرف هو نفسه كنه نفسه. من أحق من الله أن يصدق فيما به هو يتعلق ؟ وكيف أصدقكم يا من تعترفون أنكم لا تعلمون شيئاً عن إياه تعبدون؟

"ولقد قال أيضاً، إن طريقاً واحداً لا يمكن أن يقود إلى معرفة السر الأعظم، ولكن الذى لا يعرفه، نعرفه نحن بوحى الله. وما تبحث عنه بالوهم والخيال نجده نحن فى حكمة الله والحق. إن طرائقك من ثم لا تتفق وطرائقنا، إنك تسعى لسلام أربابك من خلال الأباطرة، أما نحن فننشد سلام الأباطرة أنفسهم من خلال المسيح. إنك تعبد ما صنعه يداك ولكننا نؤمن أنه من الكبائر أن نقارن شيئاً ما مهماً كان بالله. لقد شأئت إرادة الله أن لا يعبد فى حجر. وباختصار فإن فلاسفتكم أنفسهم قد سخروا مما تفعلون.

"فإذا ما أنكرت كون المسيح إلهاً، لأنك لا تعقل أنه مات (حيث تجهل أن الموت كان للجسد وليس للألوهية) أى نزق أكثر من أن تمجد كل مهين، وتحقر ما يجب أن توقر، ذلك أنك تجد فى قطعة من الخشب إلها لك. يالمهانة هذه العبادة!! إنك لا تؤمن أن المسيح يمكن أن يموت، أى ضلالة تلك؟!

"إنه يقول: ألا فلتعد المذابح إلى بهائها، وإلى أحرامها المقدسة، الزخرف. ألا فلتترك ذلك لإنسان يشاركهم خرف خزعبلاتهم، أما أنت كإمبراطور مسيحي فقد تعلمت أن تقدر مذبح المسيح وحده. لماذا تراهم يصرون بأيدٍ نقية وشفاه نقية على الاحتفاظ بالكهان لمعابدهم؟ ألا فليردد إمبراطورنا اسم المسيح وحده، وليتحدث عنه دون غيره، الذى هو به أعلم، لأن "قلب الملك فى يد الرب"^(٨٩). ترى

الدولة .. والكنيسة

هل أقام أى إمبراطور وثنى للمسيح مذبحاً؟ بينما هم يطالبون بعودة أشياء يريدون أن يثبتوا لنا بها أى تقدير واحترام يجب أن يقدمه أباطرة مسيحيون لما هم يعبدون، ما دام غيرهم من أباطرة الوثن قد قدموا لخزعبلاتهم كل ما هم عليه قادرون.

"لقد سرنا الطريق منذ زمان، وها هم الآن يقتفون أثر من من قبل لفظوهم. إننا لنباهى بأننا قدمنا دماءنا بينما هم يسعون من أجل النفقات، نحن نعتبر ذلك نصراً لنا على حين يضعونها هم فى موقف الخسران. إنهم لم يقدموا لنا شيئاً أكثر نفعاً من إقدامهم على جلد المسيحيين ونفيهم وذبحهم، إن الإيمان يقدم جزاء الحسنى لمن لا يتطرق إليه الظن أنه يعانى عقاباً. أنظر إلى عظمة أرواحهم!! إننا نزداد من خلال ما نفقد، من خلال ما يعوزنا، من خلال إنزال الاضطهاد بنا، فى الوقت الذى يعتقدون فيه أن طقوسهم لا يمكن أن تدوم دون هبات.

"وإنه ليقول : ألا فلتعد إلى عذارى فستا امتيازاتهن، دعهم يقولون هذا فإنهم لا يستطيعون إدراك أن العذرية يمكن أن تبقى دون مكافأة. دع أولئك الذين لا يتقون فى الفضيلة، يبحثون عنها فيما يسكبون. ولكن كم من العذارى قد حصلوا فعلاً على ما وعدوا به من جزاء؟ إنهم بالكاد لا يجاوزون سبعاً. ولكن انظر من بعد إلى ذلك العدد الكبير ممن زينت رؤوسهن بالصفائر والأكاليل. وإلى صباغ أرديتهن الأرجوانى، وإلى أبهة المحفة وقد أحيطت بزمرة التابعين، وإلى عظمة الامتيازات، وسعة العائد. ما ذا لو جمع هذا كله مع الزمن المقرر للعذرية.

"ألا فليرفعوا عيون الروح والجسد، ألا فليرقبوا أولئك المتضعين الأنقياء وجماعة العذارى. إن الصفائر والأكاليل ليست هى التى تزين رؤوسهن، ولكنه خمار مشترك تزينه العفة، وغواية الجمال لا تتشد لذاتها بل تطرح جانباً، لا شيء من هذه الأشعة الأرجوانية، لا أبهة ولا رفاة، ولكن تعبد وصيام. لا امتيازات، لا منفعة، كل شيء على هذه الشاكلة قد يظن الإنسان أنه كامن فى المتعة والهناء لا تجده عند هؤلاء إلا فى أدائهن لواجباتهن. وهذا الأداء هو الذى يجلب السعادة والهناء. والعفة ترسخ والطهارة بالتضحية. والعذرية لا يمكن ابتياعها بثمن، ولا تحفظ إلا من خلال حب للفضيلة أو تعلق بها، ذلك أنه لا تعد طهارة تلك التى تشتري فى مزاد من أجل النقود. أو هذه التى تقبم لبعض زمن. إن أول نصر

تجنيه العفة التغلب على شهوة المال، وذلك أن السعى من أجل الكسب هو السبيل إلى الدنو. ومع كل هذا، دعنا نقدم تلك الأعطيات للعداري بسخاء، فأى مبلغ إذن سوف يفاض به على المسيحيين؟ وأى خزانة سوف تكفى لسداد ذلك؟ وإذا ما ظنوا أن تلك الهبات سوف تقدم فقط لعداري فستاء، ألا يغشاهم الخجل من أنهم ادعوا لأنفسهم كل شيء على عهود الأباطرة الوثنيين، بينما يظنون أنه ليس من حقنا أن نشاركهم فى شيء على عهود الأباطرة المسيحيين؟

"إنهم يشكون كذلك من أن الدعم العام لا يمتد إلى كهنتهم وخدام أربابهم. وأى عاصفة من الاحتجاج ثارت حول هذا الأمر بالذات، بينما أنكر علينا من ناحية أخرى حتى ميراث الملكية الخاصة بمقتضى عدد من القوانين صدرت مؤخراً^(٩٠). ومع ذلك لم يشك منا أحد، لأننا لا نعد ذلك ضراراً ألم بناء، والحزن لا يملكنا على شيء فقدناه. وإذا ما سعى أسقف إلى التخلص من الأعباء المدنية^(٩١)، فإن عليه فى الوقت ذاته أن يتخلى عن كل ما كان يمتلك. وإذا كان الوثنيون يعانون مثل هذا، فكيف إذن يبررون شكائهم، ذلك أن الكاهن عليه أن يبتاع الوقت اللازم لممارسة وظيفته لقاء فقدان كل ما فى حوزته، وعليه أن يشتري سلطان وظيفته العامة هذه على حساب أملاكه الخاصة، وعليه أن يجد العزاء لنفسه فى رضا رعيته عوضاً عن قيامه بصلاة الليل من أجل خلاص الجموع، ذلك أنه لا يبيع الخدمة بل يحصل على الكرامة.

"قارن إذن بين هذه الأوضاع، إنك تجد فى نفسك الرغبة لالتماس العذر لقائد عشرة بينما لا يسمح للكنيسة أن تبرىء ساحة أحد قساوستها. لقد كتبت الوصايا من أجل كهنة المعابد، لم يستثن أحد من أولاء الكافرين، ولا من أولئك الأدياء. أو أى

(٩٠) وهو القانون الذى صدر عن فالنتينيان فيما يتعلق بالأساقفة، والذى قال عنه جيروم. HIER. Ep. LII ad Nepotianum "لا أشكو من القانون، ولكن ما أحزننى أننا قد أهلنا بذلك لوضع لا نحسد عليه، بينما عمليات النهب والسلب تجرى بلا رادع". وكانت الإمبراطورية منذ بدأت تتحول للمسيحية غداً الأساقفة شخصيات لها حسابها ووزنها، وتضاعفت بمرور الزمن ثرواتهم وفضائحهم حتى ثار المسيحيون أنفسهم ضد الكنيسة خاصة فى الغرب.

(٩١) صدرت قرارات الإعفاء من الأعباء المدنية هذه على عهد قسطنطين، فلما أسىء استخدامها من بعد تقرر الاستغناء أو إلغاء هذه الامتيازات الخاصة بالإعفاءات.

الدولة .. والكنيسة

من الصنفين قليلي الحياء، أما رجال الأكليروس فإنهم وحدهم الذين حرّموا من المشاركة في هذا الحق، بينما هم وحدهم القادرون على إقامة القداس العام من أجل الجميع، ومع ذلك لا يسمح لأى وصية حتى من الأرامل المحزونين ولا هبات. وحيث لا هنات تسيء إلى أى خلاق، فإن العقوبة مع ذلك توقع على المنصب ذاته، وعليه يمكن القول إن أية أرملة مسيحية تعد وصيتها شرعية إذا ما أوصت بها لكهنة المعبد، وغير شرعية إذا ما أوقفتها على رجال الله! وأنا لا أقص هذا بقصد الشكوى أو التبرم، ولكن ليكون معلوماً فقط لديهم ما لا أشكو منه، ذلك أننا نفضل أن نكون فقراء ما لا على أن نفتقر إلى الرحمة.

"ولكنهم يقولون أيضاً إن ما أعطى للكنيسة أو ترك لم يمس، دعوهم يقررون كذلك من ذا الذى حرم على المعابد هباتها التى جعلت للمسيحيين. فإذا ما تم ذلك للوثنيين، فإن الخطأ سوف يكون ثواباً أكثر منه عقاباً. الآن فقط أصبح على الأقل ادعاء العدالة أمراً محتملاً. وأين كان هذا الشعور عندما أقدموا، بعد سلب كل ما يمتلك المسيحيون، على إضمار الحقد على حقهم حتى فى الحياة، وحرموهم استخدام حتى الحد الأدنى من حق دفن موتاهم، وهو ما لا ينكره أحد على ميت أبداً. ولقد أعاد البحر ثانية أولاء الذين ألقوا بهم إليه. هذا حقاً هو نصر الإيمان، أفلا تراه الآن يلومون أسلافهم الذين أقدموا على هذه الفعال التى تدينهم؟ أى سبب هناك يدعو إلى السعى من أجل أولئك الذين يدينون هم الآن أعمالهم؟

"ومع ذلك، فلا أحد ينكر الهبات على الأحرار المقدسة، ولا الوصايا على العرافين، لقد أخذت منهم فقط أراضيهم لأنهم لم يستخدموا بمقتضى العقيدة ما ادعوا أنه حق للعقيدة. لماذا لا يمارسون ما نمارسه نحن إذا كانوا يدعون أنهم ينهجون فى الحياة نفس نهجنا؟ إن الكنيسة لا تملك شيئاً فى هذا العالم ملكاً خاصاً لها إلا الإيمان، ومن ثم هنا يكمن الجزاء.. هنا يوجد الفيض. إن ملكية الكنيسة هى رعاية الفقراء. دعوهم يقدرون كم من أسارى المعابد تم اقتداؤهم، وأى خبز لذوى المتربة قدموا، ولأى من المنفيين أعطوا ما يقيم أودهم. من أجل هذا كله أخذت منهم أراضيهم وليست حقوقهم.

"أنظر ماذا ترى.. لقد جاءت المجاعة انتقاماً - كما يقولون - لأن ما كان من قبل قصراً على الكهان، أصبح مصدر نفع للجميع، ولهذا السبب - كما يقولون - راحت أفواه الرجال الذين أغمى عليهم يرتشفون عصارة النباتات التي لا طعم لها، ولنفس السبب أيضاً استبدلت الحنطة بثمار البلوط الخثوني Chaonian وعاد الزمن ثانية بالناس إلى غذاء الماشية وأسوأ أنواع الأطعمة، وراحوا يهزون إليهم بجدوع البلوط عليهم يجدون في أخشابها ما يسد رمقهم، وهذه الظواهر بكل تأكيد تمثل معجزات جديدة على الأرض لم يسبق أن وقعت من قبل عندما كانت الخزعبلات الوثنية تسود العالم كله! ولكن للحقيقة وحدها.. متى حدث من قبل أن سخرت الغلال من صلوات المزارعين الأشحاء فأعطتهم قشا دون سنابله؟ ومتى خبيث أوراق القمح في خطوطها آمال الفلاحين؟

"ومم استلهم الإغريق وحى بلوطهم هذا إلا أن يكون من خلال اعتقادهم بأن هذا العون من طعام الغابات كان هبة من عند السماء، لأنهم يعتقدون دوماً في مثل هذه الأمور أنها نعمة من أربابهم. من تراه غير الوثنيين يعبد أشجار دودونا Dodona خاصة عندما يمجدون هذا الصنف الدنيء من طعام الغابات؟ ولعله ليس من قبيل الاحتمال أن تكون أربابهم في سورة غضبها قد ابتلتهم بهذا عقاباً لهم، فرضته الأرباب تهدئة لهم وتسكيناً، وأى عدالة يمكن أن تتحقق، وهم الذين تملكهم الحزن لمنع استمرار تقديم العون لقلة من الكهنة، بينما ينكرونها على الجميع؟ أقول أى عدالة تلك إذا لم تكن العقوبة أشد وأبقى من الاثم نفسه؟ وعلى أية حال فإن السبب ليس كافياً لمثل هذه المعاناة لعالم يتهاوى، إذا كان هذا الأمل الكبير لتلك السنة سوف يتحطم والمحصول لم ينضج بعد.

"ومما لا شك فيه أنه لسنوات طويلة مضت فإن أنوار المعابد كانت قد خبت على امتداد الإمبراطورية كلها، أترى ذلك قد قفز الآن مؤخراً إلى عقول أرباب الوثنيين لتقدم على هذا الانتقام الكبير؟ وهل لم يحقق النيل فيضانه كما جرت عادته كل عام لينتقم لما فقدته كهنة المدينة؟ على حين لم يحدث مثل هذا الانتقام لأهل اقليمه.

"وليكن ما يقولونه من انتقام الأرباب في العام الماضي لما وقع بها من ضرار صحيحاً، فلماذا لم يحدث مثل هذا في عامنا هذا؟ والآن فإن المواطنين لا

يقتاتون باقتلاع الجذور، ولا يبحثون عن السعادة فى لحاء الأشجار، ولا يقطفون طعامهم من أشواك النباتات، ولكنك تراهم وقد غمرهم السرور فى أعمالهم الناجحة، بينما يغشاهم العجب لمحاصيلهم التى يعدونها من أجل صيامهم الذى يقدمون عليه بملء إرادتهم ورغبتهم الصادقة، ولم لا والأرض أخرجت لهم غلتها بكل ما فى باطنها.

"من ذا الذى لم يعتد على أمور البشر فتراه يقف مشدوها أمام تصاريف السنين؟ بل إنا نعلم جيداً أن ولايات عديدة قد شهدت فى العام الماضى وفرة إنتاج أرضها. إني لا أجد الكلمات التى أعبر بها عما أنتجه الغال بصورة لم تحدث من قبل، والبانونياويون باعوا غلالا تفوق ما زرعوه، أما باثيتيا الثانية Phaetia secunda فقد عانت الضرر من جراء ثرائها، ذلك أنها وقد اعتادت الأمان فى فاققتها، قد أثارت الآن الأعداء طمعاً فى خيراتها. وأطعمت ثمار الخريف ليجوريا وفينيسيا. وهكذا نجد أن العام الماضى لم يصبه القحط بسبب انتهاك الأحرام المقدسة، كما أن هذه قد ازدانت بغرس الإيمان. أترام يستطيعون إنكار أن مزارع الكروم هى الأخرى قد زاد إنتاجها بشكل واضح ولهذا فأنا قد جنينا كسباً مزدوجاً.. هذه الغلال بكل ما فيها من فائدة ونفع، وتملكننا قطاف الكروم بكل ما لها من عائد.

"بقيت نقطة أخيرة وهامة أيها الإمبراطور يجب أن تضعها فى اعتبارك بما يحقق لك كل الخير، ذلك أنه يقول: "دعهم (الأرباب) يحمونك.. أما نحن فسوف نكون لهم عباداً". تلك هى إذن - أيها الأمير الورع - ما لا نقدر على حمله، فلسوف يعيروننا بأنهم سوف يبتهلون إلى أربابهم من خلال أسمائك، وأنهم سيقدمون - دون إذنك - على انتهاك الحرمات المقدسة، معتبرين سكوتك على ذلك موافقة، ألا فليحتفظوا بأربابهم لأنفسهم، وليحفظ هؤلاء - إن استطاعوا - عبادهم، ذلك أنهم إذا لم يكونوا قادرين على عون من يعبدونهم، فكيف إذن يستطيعون حمايتك وأنت لهم عدو؟

"وهو يقول أيضاً إن طقوس الأسلاف يجب أن تعود، ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن كل ما تم سلفاً كان نجاحاً محققاً، فما الذى تراه الأفضل.. إن العالم نفسه الذى تألف فى البداية من خلايا العناصر المختلفة المكونة خلال الفراغ

(الخلاء - العدم - الفضاء) فى كرة لدنة (مرنة)، أو كان ظلاماً فى فوضى لا نهاية لها، ألم يتلق من بعد ذلك التشكيل الذى به اكتمل بهاؤه (هذا التمايز بين السماء والبحار والأرض وقد استقر كل شيء منها وفيها) لقد نرعت الأرض عن نفسها ذلك الظلام الدامس وراحت تبتهج بالشمس فى عل، ولم يحظ النهار بالضوء فى البدء، بل راح بمرور الزمن يكسب الضياء ويزيده، ويشع دفناً كلما اشتدت الحرارة.

"والقمر.. ذلك الذى تمثلت فيه نبوءات الوحي عن الكنيسة، عندما ارتفع فى البدء، وراحت هى تحبو فى أشهر عمرها الأولى ليختفى منا فى الظلام ثانية، وليملاً جنبه حتى اكتملت استدارته فى مواجهة الشمس، وراح يتلأأ بضياء لامع صاف.

"والأرض فى سالف الأزمان لم تكن تملك أية تجربة فى العمل أو الاثمار. فلما بدأ الفلاح الماهر يتسلط عليها ويخضعها ويخط فيها الحقول، ويغضى التربة الجرداء بعرائش الكروم، خلعت عن نفسها فطرتها القفر، وتحلت بأزاهير ما تثبت.

"والزمن نفسه فى عمره الباكر، والذى صبغنا على شاكلته كما ينمو كل شيء، كلما تقدمت به السنون، غدا ربيعاً بهذه الأزهار التى ما تلبث أن تذبل، ثم تثمر حتى يكتمل نضجها ثم تصير إلى النهاية.

"ونحن أيضاً، وليست لدينا فى البدء عن أى شيء خبرة، كل ما لدينا طفولة فى إدراكنا، ولكننا سرعان ما نتغير، كلما مرت بنا السنون، ونتخلى رويداً عن المبادئ الأولى لقدراتنا.

"فليقولوا إذن إن كل شيء يجب أن يعود إلى ما كان عليه فى البدء، ومن ثم فالعالم الذى يغشاه الظلام يبدو الآن وقد افتقد المسرة لأنه استنار بضياء الشمس، وأى شيء أعظم بشراً من أن نمحو ظلام العقل بأكثر مما نزيل أثقال الجسد، وسوف يبدو قبس الإيمان أشد وهجاً من أشعة الشمس. ولما كانت الحالة الأولى التى كان عليها العالم قد مضت، شأن كل شيء، فلا غرو أن ينسحب ذلك أيضاً على العقائد القديمة. ولندع أولاء الذين يتحسسون الخطأ فى نقص الإنتاج، يبحثون عن العيب فى قطاف الكروم، لأنها تحين فى نهاية العام، ويشيرون إليه أيضاً فى ثمار الزيتون، لأنها آخر ما ينضج من الثمار.

"لكن إيمان الأرواح هو غلتنا، ورحمة الكنيسة هي قطاف الفضل كله، التي ازدهرت منذ البداية في القديسين، وراحت تنتشر نفسها من بعد على كل الجموع، ولا ريب فقد لاحظ الجميع أن الإيمان بالمسيح قد تلقته العقول التي لم تكن في يوم ما فجة شرسة (ذلك أنه ليس هناك تاج للنصر دون خصوم) وتم رفض ذلك المعتقد الذي من قبل ساد، فالحق أحق أن تكون له الغلبة.

"وإذا كانت الطقوس القديمة هي الحق، فلم اتبعت روما عقائد أجنبية عنها؟
ولسوف أغض الطرف عن تلك المناطق التي علتها هذه المباني الباهظة التكاليف وبيوت أولئك الرعاة (الكهان) التي تتألق بذهب انطفاً بريقة، ولسوف أرد فقط على أهم ما يشكون هم منه، لماذا رحبوا بآلهة المدن المغلوبة، والأرباب المنهزمة. والطقوس الدخيلة لهذه الخزعبلات الأجنبية؟ ومن أين كان أنموذج الآلهة كيبيلى يغسل مركباتها لتزييف الألمو Almo وأنى فرسان الحرب (الشعراء) الفريجيون؟ وآلهة القرطاجنيين الجائرين المكروهين دوماً لدى الرومان؟ بل أين التي عبدها الأفارقة في شخص كلستيس Celestis والفرس في نيترا Nitra والجل في فينوس تبعاً لمسميات مختلفة وليس لربات متعدّدات؟ ومن ثم فإنهم يعتقدون أن النصر يتجسد في آلهة بعينها ولذا فهو بلا شك يأتي هبة وليس بالقوة، يمنح ولا يؤخذ، نتائج لعون الفيالق وليس لسلطان العقائد. ترى.. هل هذه الربة أعظم أو أكثر من تلك الأعداد التي يتطلبها القتال، أو تستدعيها وقائع المعركة؟

"ولقد طلبوا أن تحتفظ (ربة النصر) بمذبحها في مبنى السناتو في روما، بينما أغلبية الشيوخ فيه من المسيحيين!! إن المعابد مليئة بالمذابح، وهناك في معبد النصر أيضاً مذبح. وإذا كانت كثرة العدد هي التي تدخل السرور إلى قلوبهم فإنهم يقدمون أضحياتهم في كل مكان. أما الإصرار على تقديم الأضحيات على هذا المذبح بالذات، فإن هذا الأمر لا تفسير له إلا ازدياد الإيمان. وهل يحتمل المسيحي قيام وثني بالتضحية في حضرته؟ إنه يقول: "دعهم ولو على غير رغبة منهم يرمقون الدخان بعيونهم، ويصغون إلى الترانيم بأسماعهم، ويزدردون رائحة الأضحيات بحلوقهم، ويستنشقون البخور بأنوفهم، وليغط الغبار المتصاعد من مواقدنا وجوههم وهم كارهون. أليس فيما تزخر به الحمامات والأروقة والشوارع

من تماثيل كفاية لهم؟ ألن يكون هناك لكل قدره ومصيره فى هذا المحفل العام؟ إن الجزء المؤمن من مجلس السناتو سوف يكون مرتبطاً إذن بأصوات أولئك الذين يعطون للأرباب موثيقهم، بإيمان أولئك الذين يقسمون بهؤلاء الأرباب، فإذا ما أبدوا اعتراضهم بدوا وكأنهم يكشفون زيفهم، وإذا ما أذعنوا، سلموا بما هو انتهاك للحرمانات...

"أين سنقسم إذن على طاعة قوانين رحمتك ومراسيمك؟ ترى هل ارتضى عقلك وارتبط، وهو الذى تضلع فى القوانين، بالصدق عن طريق تلك الطقوس الوثنية؟ لقد اعتدى على قداسة الإيمان ليس فقط من جانب هؤلاء، بل أيضاً على يد من سبقوهم، ولكن ما هو أنكى من ذلك أن إيمانك أيها الإمبراطور قد تعرض للتجريح أيضاً، ولكنك قادر على أن تقهر إذا شئت. وقد اعتقد عظيم الذكر قسطنطىوس، رغم أنه كان ما يزال مبتدئاً فى معرفة الأسرار المقدسة، أن سمعته سوف تدنس إذا ما سمح ببقاء ذلك المذبح، فأمر بازالته، ولم يأمر بإعادته ثانية. وقد اكتسبت الإزالة سلطان الفعل، أما الإعادة فليس لمجرد القرار هذا السلطان.

"لا يحق لأحد أن يمتدح نفسه بسبب سهوه أو غفلته، ذلك أن هذا الذى يربط نفسه بفكر آخرين، يبدو أكثر تواجداً من ذلك الذى يعطى موافقته صادرة عن حضور شخصه فقط دون فكره، فتألف الفكر أشد وثاقاً من تقارب الجسد. إن السناتو إذا ما تمتلك رئيساً كأولاء الذين يدعون لم شمل الجماعة، فإنه يأتيك كرجل واحد، ويطلعك على سريره، ولا يسلمها لأرباب الوثنيين، ويفضلك أعضاؤه على بنيتهم، ولكن ليس على إيمانهم. هذا هو الحب المنشود، هذا الحب يفوق كل مظاهر السيادة، إذا ما أصبح الإيمان الذى يحفظ السلطان فى أمان.

"ومن المحتمل أن يثير بعض القول إذا ما حدث ذلك، بأن الإمبراطور الورع^(٩٢). قد تم هجران جانبه، كما لو كان ذلك بكل تأكيد جزاؤه على ما قدم من أعمال جديرة بالتقدير بهذه الإجراءات الانتقالية للأعمال الحاضرة. وما من رجل حكيم يجهل أن المسائل التى تتعلق بأمور البشر يمكن أن تنتظم فى نوع من الدورة

أو التتابع، لأنها لا تحقق على الدوام نفس النجاح، ولكن أوضاعها تختلف وتعاني تقلبات الزمن.

"ومن ذا الذى يفوق كنيوس بومبى Cenius Pompeius فى نصر المعابد الرومانية ودعمها فى الخارج؟ ولكنه، بعد أن ساد الدنيا بانتصارات ثلاثة حقها، ما لبث أن هزم فى إحدى المعارك، فتحول إلى هارب من الحرب، ثم منفيًا خارج حدود إمبراطوريته، ثم سرعان ما سقط صريعاً على يد خصى كانوبس Canopus

"من ذا الذى امتلك ناصية الشرق أكثر مما ساد قورش ملك الفرس؟ ولكنه هو أيضاً، بعد أن تغلب على كل منافسيه، ثم أبقي عليهم، ما لبث أن لحقته الهزيمة وأمسى سجيناً، وهلك على يد امرأة^(٩٣). ومع أنه قد ذاع صيته بحسن خلقه وطيب معاملته حتى لمن قهرهم، فقد قطعت رأسه ووضعت فى إناء امتلاً بدمائه. وهكذا ذل لصلف امرأة متسلطة.

"ومن تراه أشد حرصاً واهتماماً بالأضحيات من هاميلكار زعيم القرطاجيين؟ لقد كان يقرب حتى بين أقل الجنود رتبة على امتداد سير المعركة، فلما رأى أن الهزيمة قد أحاطت به، ألقى بنفسه فى النار التى كان يطعمها، ولعله أراد أن يخمد حتى بجسده تلك النيران التى أيقن أنها لم تقدم له نفعاً بلا اضرأ!!

"وبماذا ترانى أحدث عن جوليان الذى ما أن وثق بحماقة فى أقوال العرافين، حتى دمر كل وسائل ملاذه، ولذلك فإنه حتى فى مثل هذه الحالات، لا نجد انتهاكاً مماثلاً، ذلك أن وعودنا لا تخدع أحداً.

"لقد كتبت ردودى على ما أثار حنقى على الرغم من أنى لا أستثار، ذلك أن هدفى الأساسى كان شجب هذا الالتماس، لأفصح تلك الخزعبلات، ولكن ليجعلك هذا الملتمس أيها الإمبراطور أكثر حرصاً، فبعد هذا العرض للأباطرة السابقين الذين سار الأوائل منهم على طقوس آبائهم، ولم يحد المتأخرون عنها، وذكرنا بالإضافة إلا ذلك أنه إذا كانت الممارسة العقيدية لأولاء الأوائل لم تصبح سابقة، فإن إغضاء الأواخر الطرف عنها جعلها كذلك. ولقد بدأ واضحاً ما أنت به مدين

(٩٣) توميريس Tomyris ملكة الماساجيتيين.

إلى إيمانك أولاً، أعنى أنه يجب ألا تتبع الطقوس الوثنية، وثانياً تجاه شعورك، أقصد عدم تحطيمك أو انتهاكك لما أقره من قبل أخوك، ذلك أنهم إذا ما أقدموا من جانبهم فقط على امتداح هذا التغاضى من جانب الأباطرة السابقين، الذين على الرغم من كونهم مسيحيين، إلا أنهم لم يقدموا على الاعتداء على التقاليد والتعاليم الوثنية، كان واجبا عليك أن تسلم إلى حب الأخوة قيادك، وأن ترعى أموراً قد لا تكون أنت نفسك راضياً عنها، حتى لا تنتقص من قدر أخيك. عليك الآن إذن أن تحفظ ما ترى أنه يتفق وإيمانك ورابطة الأخوة".

وبعد.. فهذه رحلة طويلة قطعناها مع أمبروز في رسالته الثانية إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى، رداً على ملتمس سيماخوس إليه من أجل إعادة مذبح النصر إلى مبنى مجلس الشيوخ الرومانى. وقد جاءت الرسالة كما عرضناها مطولة مفصلة، تناول فيها أمبروز كل ما تضمنه ملتمس سيماخوس بالتنفيذ، كما أنها جاءت انفعالية تتقد غضبا وغيظا، ملقبة بالتبعية فى خراب روما فى كثير من الأحيان إن لم يكن كلها من وجهة نظر الأسقف الميلانى على الأرباب الرومانية القديمة، والتي كانت من الوهن والضعف بحيث لم تقدر على الصمود أمام هانيبال وجحافل السينونيين، وتعيب على الوثنيين التفاخر بذلك، لأن الغزاة كانت لهم نفس الأرباب أو المثلات، أما إعادة المذبح ثانية فهذا أمر لا يمكن تقبل حدوثه من إمبراطور مسيحي يجب أن يقر بمذبح واحد فقط خاص بالمسيح. ويسخر أمبروز من مسألة عذارى فستا، وينتدر بالدعوة لرد الأموال والهبات المخصصة لهن، معتبرا ذلك إساءة كاملة إلى قيمة العذرية ومعناها، ويشيد بقرينتها فى المسيحية، ويفند دعوى سيماخوس القائلة بوقوع المجاعة لأسباب تتعلق بانتقام الأرباب، ويدلل على ذلك بأن هذا لم يحدث إلا فى بعض المناطق بينما عم الرخاء مناطق أخرى، وأن نيل مصر لا زال فياضاً، ويحذر الإمبراطور من الوقوع فى الشرك التى يراد اصطياده بها من القول بحماية الأرباب له ولملك أبيه من قبل، حيث أن الإمبراطور لا يزال فى مقتبل العمر والخبرة ولم يتمرس بعد فى أمور العقيدة والحياة". ويتساءل أمبروز إذا كانت روما تود الاحتفاظ بأربابها ومقدساتها لأنها سبب انتصاراتها ومكمن الفخار لها، فلماذا لجأت إلى أرباب آخر استقدمتها من

الشرق. ويختتم رسالته مبيناً أن من اتبع هواه وتمسك بالأرباب فقد ضل وغوى، وضرب مثلاً رجلين هما بومبي وقورش، وعززهما بثالث.. هاميلكار القرطاجي، وجعل خاتمة مطافه جوليان.

ويبدو أن هذه النغمة العالية من التهديد، مع الظروف السياسية السيئة التي كانت سائدة في الغرب، قد أدخلت في روع الإمبراطور الصبي أن تحدى أمبروز والظروف سوف يجبر عليه وعلى عرشه الوبال. ومن ثم كان طبيعياً أن يستجيب وهو حسير لآراء الأسقف الميلاني. وهكذا باءت محاولتا سيماخوس ومن ورائه شيوخ السناتو الوثنيون مع جراتيان ثم فالنتينيان، بالفشل. ولما كان الوثنيون في الغرب يدركون المعنى الجوهرى الذى يرمز إليه وجود هذا المذبح من رمز لمجد روما القديم، فإنهم حاولوا عن طريق سيماخوس أيضاً - هذه المحاولة للمرة الثالثة مع الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه بعد انتصاره على ماكسيموس، فى عام ٣٨٨^(٩٤). وإذا كان من الصعب تحقق إعادة المذبح على يد الإمبراطور الصبي بما عرف عنه من خور العزيمة وضعف الشخصية ووقوعه تحت تأثير أمه وانزعاجه من سلطان أمبروز، فلعله من الأحرى أن تتجسد الصعوبة تماماً فى شخص ثيودوسيوس النيقى المتحمس، الذى يحمل للأسقف الميلاني كل الاحترام والتقدير، ولذا لم يكن حظهم معه بأسعد من حظهم فى المحاولتين الأولى. ولكن اليأس لم يتملك السناتو وسيماخوس، فأعادوا الكرة من جديد مع فالنتينيان الثانى عام ٣٩٢ بعد انفراذه بحكم النصف الغربى من الإمبراطورية وعودة ثيودوسيوس إلى القسطنطينية^(٩٥)، غير أن الأقدار لم تمهله ليبدى فى هذا الأمر رأياً جديداً، إذ لم يلبث أن اغتيل على يد أربوجاست Arbogastes الذى لم يمكنه أصله الجرمانى من إعلان نفسه إمبراطوراً، فأعلن بيديه تتويج يوجنيوس Eugenius على العرش، فتحول سيماخوس بسفارته إلى هذا الإمبراطور الجديد، الذى استجاب لندائه وأمر بإعادة مذبح النصر إلى سابق مكانه^(٩٦). ويذكر بيورى أن محاولة إعادة نفوذ

AMB. ep. LVII. 4. (٩٤)

Ibid. 5. (٩٥)

Ibid. 6. (٩٦)

الوثنية، كانت إحدى النقاط الرئيسية في البرنامج الذي أعده القائد الجرمانى أربوجاست وصنيعته الإمبراطور يوجنيوس، وكان ذلك هو الطعم الذي اجتذب إليه عدداً من الشخصيات البارزة^(٩٧).

وعلى الرغم من أن يوجنيوس كان مسيحياً، إلا أن مسيحيته كانت فيما يبدو مسألة ظاهرية فقط، أو لعله كان خاضعاً لتأثير ونفوذ القائد الفرنجى الوثنى أربوجاست الذى جعل منه إمبراطوراً، ولهذا فإنه فى الوقت الذى كان أربوجاست يعلن فيه عزمه صراحة على إعادة الوثنية إلى السيادة من جديد، وتحطيم الكنائس إذا ما تحقق له النصر على ثيودوسيوس^(٩٨)، كان يوجنيوس يحاول قدر طاقته الاحتفاظ بسياسته التوازن بين المسيحيين والوثنيين. ولما كان ينتمى لعائلة نبيلة، مثقفاً ثقافة عالية، متضلعا من الفلسفة، وأستاذاً للبيان، فقد أصبح صديقاً لسيماخوس الخطيب الرومانى والمتحدث باسم السناتو. وفى الوقت ذاته محافظ روما، ولذلك كان طبيعياً أن يعمل يوجنيوس على كسب جانب أعضاء السناتو الوثنيين وزعيمهم فى حربه القادمة ضد إمبراطور الشرق. وفى سبيل ذلك، فإنه فى الوقت الذى سمح فيه بإعادة مذبح النصر إلى مبنى السناتو، فإنه لم يسمح بإعادة الدخول والهبات المخصصة لعبادة الربة فستا والعدارى^(٩٩). وإن كان قد أقدم على تعيين نيقوماخوس فلافيانوس Nicomachus Flavianus الزعيم الوثنى فى روما نائباً إمبراطورياً هناك^(١٠٠). ولا شك أن هذا كله كان راجعاً دون شك لتأثير القائد الوثنى الجرمانى أربوجاست، لما نعلمه عن شخصية يوجنيوس. ولا ريب أن المسيحيين قد تملكهم الفرع لهذا الذى يحدث، خوفاً من أن يطلع عليهم جوليان جديد ممثلاً فى يوجنيوس ومن ورائه قائده الفرنجى. ومهما يكن من أمر فإن هذه المحاولة الجديدة لم يكتب لها النجاح أيضاً حيث أزيل المذبح للمرة الأخيرة على يد الإمبراطور ثيودوسيوس بعد انتصاره على إمبراطور الغرب هذا عام ٣٩٤.

Bury, op. cit. I p. 369. (٩٧)

Jones, L. R. E. I p. 169. (٩٨)

AMB. Ep. LVII 6. (٩٩)

Id أنظر أيضاً : Jones, L.R.R. I p. 168; C. M. H. IV p. 246. (١٠٠)

وعلى الفور شحذ أمبروز سنان قلمه، وكتب إلى الإمبراطور رسالة احتجاج على مسلكه هذا، وأبدى استياءه لما أقدم عليه الإمبراطور، وقد تضمنت بعض سطور الرسالة إرهابات بفكر الغرب الأوروبي عن العلاقة بين الدولة والكنيسة. قال الأسقف الميلانى:

"من أمبروز الأسقف إلى الإمبراطور الكريم يوجنيوس".

"إن سبب ارتحالي هو خوفى من الرب الذى عليه فى كل الأمور اعتمادى.. ولا أشرك فى عقلى معه أحداً، ولا أقيم لأى إنسان مهما كان، قدراً أرفع من قدر المسيح. ذلك أنى لم أجلب على أى من الناس أذى. فإذا ما كان الله عندى قبل كل شىء، أضع فيه كل ثقى، فلن يرهبنى أن أواجهكم أيها الأباطرة بما يعتمل فى نفسى مهما كانت صورته. وعليه فلن ألزم الصمت أيها الإمبراطور تجاهك، فى أمور لم أسكت عنها فى مواجهة أباطرة سبقوك، ولسوف أراعى ترتيب الأحداث وأمضى خطوة خطوة فى عرض الوقائع التى تتعلق بهذا الخصوص.

"عندما كان سيماخوس الشهير محافظاً للمدينة (روما)، قدم إلى فالنتينيان الأصغر الطيب الذكر، التماساً يطلب إليه إصدار أوامره بأن يعاد إلى المعابد ما سلب منها. وقد قام بدوره كما ينبغى بما يتفق وحماسته وعقيدته، وكان على أنا الآخر باعتبارى أسقفاً أن أقوم بدورى، فقدمت احتجاجين إلى الأباطرة أوضحت فيهما أن المسيحي لا يمكن أن يساهم فى تكاليف القرايين للأرباب. والحقيقة أنى لم أكن السبب فى إبطال ذلك، ولكنى رحمت أنادى بكل حماسة بعدم إصدار مثل هذه المراسيم، وانتهى الأمر بعدم إعادة تلك الأموال إلى المعابد، لأن ما لم يسلبه بنفسه لا يمكنه إعادته، بينما باستطاعته أن ينعم من جيبه الخاص بنفقات وتكاليف تلك الخزعبلات. وأخيراً، فإنه إذا ما كان قد أقدم على ذلك، فإنه لم يكن بمقدوره والحالة هذه أن يسعى إلى الكنيسة، ولو جاء.. فإما أنه لا يجد الكاهن هناك، وإما أن يجد بها من يعترض طريقه متحدياً، ولا يمكن التماس العذر عن ذلك بأنه لم يكن قد تناول بعد سر المعمودية، لأن انتظار العماد لا يبرر أو لا يسمح بالمساهمة فى دفع نفقات الأوثان.

"وقد قرئت رسالتي في المجلس الكنسي الإمبراطوري، وكان من بين الحاضرين كونت باوتو Bauto وهو أحد كبار الضباط، وروموريدوس Rumoridus الذي ينتمي إلى نفس المرتبة، وقد عكف على عبادة الوثنيين منذ نعومة أظفاره. وقد أصغى فالنتينيان آنذاك إلى حديثي ولم يفعل إلا ما يتفق وقواعد الإيمان، ومن ثم أذعنوا لنائبي.

"ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى خاطبت الإمبراطور الرحيم ثيودوسيوس ولم أتردد مطلقاً في مواجهته، وكان قد تلقى رسالة بنفس المعنى من السناتو، وإن لم تكن تمثل كل أعضاء مجلس الشيوخ، وقد وافق على توصياتي بعد زمن، ولذا هجرت جانبه لعدة أيام، ولم ينظر إلى ذلك بنية سيئة، لأنه يعلم جيداً أنني ما فعلته عن أمري، ولم أخزى من أن أقول في حضرة الملوك ما قاله النبي نفسه. "وأتكلم بشهادتك قدام ملوك ولا أخزى" (مزامير ١١٩ / ٤٦)، وما ينبع من روعي.

"ولم يلبث السناتو أن أرسل سفارة ثانية إلى الإمبراطور فالنتينيان الممجد الذكرى، في غالة، ولكنها باءت بالخسران، وبكل تأكيد لم أكن هناك ساعتها، ولم يخط يراعى إليه شيئاً آنذاك.

"ولكن عندما اعتليتم كرسى سلطان، اتضح أن دفة الأمور قد عهد بها إلى أناس على قدر كبير من الكفاءة حقاً في تسيير مهام الدولة، ولكنهم وثنيون، وربما قيل أيها الإمبراطور العظيم أنك لم تقم بإعادة شيء فعلاً إلى المعابد، وإن كنت ق أنعمت بالهبات على أولئك الذين أبدوا لكم كامل الولاء، ولكنك تعلم أننا يجب أن نسلك دائماً سلوكاً يرضى الله، كما نفعل دائماً فيما يتعلق بمسألة الحرية، ليس فقط من جانب رجال الاكليروس، ولكن أيضاً على يد العسكريين العاملين في خدمتك، أو الداخلين ضمن عداد القاطنين في الأقاليم، وقد تسابق الرسل إلى بلاطك عندما غدت إمبراطورا يطلبون إعادة ما أخذ من المعابد ثانية، ولكنك لم تفعل ذلك، فعاودوا الكرة ثانية ولكنك ظللت على مقاومتك لهم، غير أنك عدت فرأيت من الأفضل أن تنعم على أولئك الذين تقدموا بمثل هذه الالتماسات.

"أيها الإمبراطور.. ضع فى اعتبارك جيداً أنه مهما عظمت السلطة الإمبراطورية فسلطان الله أعظم، إنه عليم بما تكنه الصدور، مطلع على خبئ النفوس. أحاط علمه كل شيء، وما هو بعد فى الغيب آت.. يعلم السر وأخفى. لا تعاني إذن خداع النفس، أتريد أن تخفى أى شيء من عند الله؟ ألم يدر ذلك بخلدك؟ وبما أنهم تصرفوا بمثل هذه المثابرة، ألم يكن من واجبك أيها الإمبراطور أن تكون أكثر منهم إصراراً بما يليق بالله المجد الحق الحى، وأن تزدري ما يعد انتهاكاً لقانونه المقدس؟

"من ذا الذى تراه يضر الغل والبغضاء لرغبتك فى الأنعام على الآخرين؟ إنا لا نقيم من أنفسنا عيوناً تقتفى وقع خطى جودك، ولا نحمل فى نفوسنا الحسد لمن خصتهم نعمتك، ولكننا فقط حفظة الإيمان، خبرنى كيف ستقدم هديتك إلى المسيح؟ إن هناك من يضعون كل تقديرهم على ما سوف تفعله، ولا بد أنهم سوف يحذون على التواضع. ومن ثم فإن أى شيء يقدمون عليه لابد وأن يعزى إليك، أما ما لم يفعلوه فهو بلا ريب من عند أنفسهم. ولقد كان من الضروري أن تكون - رغم كونك إمبراطوراً - أكثر الناس خضوعاً لله. وكيف يقوم خدام المسيح إذن بتوزيع هباتك؟

"لقد كانت هناك قضية على هذا النحو فيما مضى، غير أن الاضطهاد نفسه أذعن لقوة إيمان الآباء، وتولت إلى الظل الوثنية، ذلك أنه عندما أقيمت الألعاب الخماسية فى مدينة صور، وقدم ملك أنطاكية الأثيم لمشاهدتها، اختار ياسون Jason ضابطاً أنطاكيين لإحضار ثلاثمائة دراهمة من أورشليم وتقديمها من أجل أضحيات هرقل، غير أن الآباء لم يدفعوا هذه النقود المطلوبة إلى الوثنيين، بل أرسلوا من لديهم رسلاً على الإيمان حريصين ليعلموا أن الأموال لا ينبغي أن تنفق ثمناً لأضحيات الأرباب، إذ أن هذا يعد بذخاً فى غير موضعه، ولذا فقد تقرر أنه لما كان قد قيل إن هذه النقود حصلت من أجل التقريب لهرقل، فإنها يجب أن تذهب للغرض الذى من أجله جيبت، ولكن لما كان الذين حملوها يتقنون غيرة على الإيمان وحماسة، ويلتمسون عدم استخدامها للتقريب للأرباب، بل فى أغراض أخرى، لذا تقرر أن تخصص لبناء السفن. حقيقة لقد أكرهوا على حمل النقود، ولكنها لم تذهب إلى ما من أجله جمعت ولكن فى أمر من أمور الدولة.

"والآن.. فإن من أحضروا النقود قد أصبحوا دون شك في عالم الصمت، ولكنهم وقفوا بكل قوة دفاعاً عن إيمانهم، فلقد علموا مقدماً أن النقود لا بد وأن تحصل، ومن ثم فقد أرسلوها مع رجال هم لله أشد خشية، أفلحوا في تخصيص هذه الأموال، لا للمعبد، ولكن لبناء السفن، وما ذلك إلا لأن الآباء قد عهدوا بالنقود إلى من يدافعون عن قضية القانون المقدس، وتولى الله المطلع على النوايا والضمائر القضاء في هذا الأمر. وإذا كان هذا قد حدث، فليس هناك شك أيها الإمبراطور، فيما يجب عليك فعله. وكيفما كان الأمر، يصبح عليك حتماً مقضياً، وأنت لا تخضع لأي قهر، ولا يتحكم أحد في سلطانك، أن تسعى حثيثاً من أجل الحصول على نصيح رجل الأكليروس.

"وبكل تأكيد، فإنني في نضالي وإن كنت وحدي، فإنني لست فيما أرغب أو أنصح وحدي. ولما كنت مسئولاً عن كل كلمة أقولها أمام الله والناس، فليس هناك شيء آخر يمثل لي وزناً، لأنني لا يمكن أن أضع فيك ثقتي الكاملة. ولقد كتبت من زمن أحزاني، وأيقنت أنه ليس من الصواب في شيء تصنع أي شخص بأي شيء، ولم يعد من واجبي أن أغض الطرف عما لا أرتضيه، كما أنه ليس مسموحاً لي أن أعقل لسانى، ومن أجل هذا أيضاً لم أرد عليك عندما كتبت إلى في أول عهدك، لأنى كنت كمن يتتبا بأن هذا هو الذى سوف يقع. وأخيراً.. فإنك عندما طلبت منى رسالة لأنى لم أكتب لك رداً من قبل، قلت في نفسى هذا هو السبب في كل ما حدث.

"ولكن عندما وجد ما يتعلق بممارستى لوظيفتى، كتبت ملتماً من أجل أولئك الحيارى، ذلك أنى فيما يتصل بأمر الله أرتعد خشية ولا يعنينى أى اطراء قد يوجه إلى روحى، أما في الأمور التى يفضل فيها الرجاء والشكاية، فإنه سوف يصبح ضرورة مخاطبتك، كما أنى لا يفوتنى أن أقدم الاحترام الواجب مراعاته تجاه السلطة، تمشياً مع ما هو مكتوب:

"فأعطوا الجميع حقوقهم.. الجزية لمن له الجزية" (رسالة بولس إلى أهل روما) ذلك أنى إذا كنت أذعن من أعماق قلبي لشخص ما، فكيف لا أذعن

للإمبراطور؟ ولما كنت ترغب فى أن ترى مظاهر الاحترام والتبجيل تؤدى إليك، فلتسمح لنا أن نذعن لمن وهبك السلطان، ولمن تنتمى رضاه".

وإذا كان يوجينيوس لم يحقق لأمبروز رغبته، إلا أن الأيام لم تمهله ليواصل سياسته، ذلك أنه سرعان ما لقى الهزيمة مع قائده وصانعه أربوجاست على يد ثيودوسيوس الذى لم يتردد فى هدم المذبح.

وكان ثيودوسيوس طوال هذه السنوات الماضية من عهده قد اتخذ خطوات بعيدة نحو إعلاء شأن المسيحية والإجهاز على الوثنية، ووجهت ضرباته هذه المرة إلى المعابد ذاتها، ورغم أن الإمبراطور لم يكن راغباً فى تحطيم دور العبادة الوثنية تماماً، بل يطمع فى تحويلها إلى مرافق عامة، إلا أن الأمور أفلتت من يديه، حيث لعب الرهبان خاصة ورجال الأكليروس الدور الرئيسى فى هذه الناحية، وأقدموا بأنفسهم وبحمية بالغة على تدمير كل ما تصل إليه أيديهم من هذه المعابد، وتمثل ذلك بصورة واضحة فى مصر وسوريا.

ويذكر سوزومنوس - المؤرخ الكنسى - أن العديد من المناطق فى الولايات الشرقية كانت ما تزال تعج بالوثنيين الذين يترددون على المعابد ويمارسون طقوسهم فى حرية، ويؤيده فى ذلك الفيلسوف الوثنى ليبانيوس^(١٠١). وتركز هؤلاء بصفة خاصة فى البتراء والعربية ورفح وأفاميا جنوبى أنطاكية. ومن الطبيعى أن يعزو سوزومنوس أسباب الفوضى التى شهدتها هذه المناطق إلى الوثنيين، ويعتبرهم المحرك الرئيسى للاضطرابات التى وقعت، ومن الطبيعى أيضاً أن يرد المؤرخ الوثنى زوسيموس Zosimus التهمة بمنثلها معتبراً المسيحيين بمن فيهم النائب الإمبراطورى فى الشرق كينجيوس Cynegius مسئولين عن هذه الأحداث، وليس من العسير أن نعلل تلك الوقائع، فالمسيحيون وقد استندوا إلى اتجاه الحكومة الإمبراطورية وخاصة المراسيم التى صدرت عام ٣٨٥ بتحريم الأضحيات والقرايين والتردد على المعابد، ليهاجموا دور العبادة الوثنية ومستقر الأرباب. وكان ماركولوس Marcellus أسقف أفاميا أشدهم تحمساً لذلك، إلى الحد الذى دفعه

إلى تكوين فريق من المصارعين الأشداء يعتمد عليهم فى إرهاب كل من تسول له نفسه من الوثنيين أداء الطقوس فى أحد المعابد. وقد لعب الدور الرئيسى فى تدمير عدد من دور الأرباب الوثنية، ليس فقط فى أفاميا، بل وسع دائرة نشاطه فى الريف المجاور، يدفعه إلى ذلك الإيمان بأنه ليس من السهل تحويل الوثنيين عن عقيدتهم إلا بهذه الطريقة وحدها^(١٠٢)، وساعده بفرقة عسكرية مدربة على رمى السهام، النائب الإمبراطورى كينجيوس، لقهر جماعات الفلاحين الذين هم على عقيدتهم قائمون. غير أن ماركيلوس ما لبث أن تجرع كأس موت سقاها من قبل للكثيرين قتلاً، إذ لم يسعفه عرجه بالهروب من إحدى المواقع التى كان يستتر فيها وراء فريق المصارعين، فلحق به الوثنيون المغيظون وأحرقوه حياً^(١٠٣).

أما فى مصر فكانت الأمور أسوأ من هذا بكثير، ذلك أن الأسقف السكندرى ثيوفيلوس، الذى يصفه ثيودوريتوس بأنه صوت الحكمة ومكمن الشجاعة^(١٠٤)، راح يلح على الإمبراطور ثيودوسيوس كى يسمح له بتحويل معبد الإله ديونيسيوس Dionysius إلى الكنيسة، ومع أن ثيودوسيوس لم يصدر أوامر صريحة بذلك، إلا أنه فى الوقت ذاته لم ينبئه برفضه، فاتخذ ثيوفيلوس من ذلك ذريعة لبدء حملة شاملة لتدمير المعابد الوثنية الشهيرة فى الإسكندرية، وعمد إلى السخرية بالطقوس الوثنية، عندما ألقى إلى عرض الطريق بكل ما يخص أسرار الشعائر الديونيسية. ثم تحول الهجوم بعد ذلك إلى السرابيوم^(١٠٥). وكان من الصعب على الوثنيين فى المدينة، خاصة فلاسفتهم، إزاء هذه السخرية بالأرباب أن يكظموا غيظهم، ومن ثم اندفعوا فى غضبهم لا يلوون على شىء، واحتلوا مبنى السرابيوم، يقود جمعهم الفيلسوف أوليمبيوس Olympius وراحوا من هذه القلعة الوثنية يردون هجمات المسيحيين^(١٠٦).

SOZOM. hist. eccl. VII 15; THEOD. hist eccl. V 22. (١٠٢)

SOZOM. hist. eccl VII 15; THEOD. hist. eccl. V 21. (١٠٣)

THEDD. Hist. eccl. V 16 وبصفه المؤرخ جيبون بأنه "العدو الأبدى للسلام والفضيلة". (١٠٤)

SOCRAT. hist. eccl. V 16. (١٠٥)

Id. (١٠٦)

ورغم أن سقراط يذكر هذه الحقائق، إلا أنه، ومن ورائه مؤرخو الكنيسة جميعهم، يلقون اللوم على الوثنيين في الإسكندرية لإثارتهم مثل هذا الشغب في المدينة، وهو نفس الموقف الذي اتخذته سوزومنوس من وثنيي سوريا، ويضيفون أن عدد القتلى من المسيحيين في المدينة كان يفوق الوثنيين!! وهذا أمر لا يمكن تصديقه حتى مما يرويه سقراط نفسه ومؤرخو الكنيسة، فنحن نعلم من تاريخه أن حاكم مصر إفاجريوس Evagrius وقائد الحامية العسكرية رومانوس Romanus قد تدخلوا بالحامية الرومانية في المدينة لصالح الأسقف السكندري ثيوفيلوس، كما أن الوثنيين اضطروا أمام أعمال العنف التي تعرضوا لها إلى الهروب من الإسكندرية متفرقين في عديد من مدن مصر، وكان من بينهم النحويان هلاديوس Helladius وأمونيوس Ammonius^(١٠٧). هذا بالإضافة إلى أن الوثنيين "تملكهم الهلع والرعب مخافة أن يحل بهم غضب الإمبراطور" ولم يلبث أن تحقق صدق حدسهم، حيث جاءت الأوامر الإمبراطورية إلى الإسكندرية بتحطيم كل المعابد الوثنية في المدينة، فصهرت تماثيل الأرباب في غلايات ضخمة، بينما صودرت الأدوات الطقسية كالأواني المقدسة لمصلحة كنيسة الإسكندرية، واحتفظ ثيوفيلوس بتمثال واحد لأحد الأرباب ليقمه في أحد الميادين من قبيل "الازدراء والسخرية" بالعبادات الوثنية. وقد أدى هذا بالذات إلى استياء أمونيوس، الذي عبر عن ذلك بقوله "أن ديانة الوثنيين قد أسىء إليها بصورة فجأة بالإبقاء على هذا التمثال"^(١٠٨).

(١٠٧) SOCRAT. Loc. Cit ويقول "وقد كنت أنتلمذ عليهما في القسطنطينية في فترة شبابي".
(١٠٨) يذكر سوزومنوس أن نيل مصر لم يفض في هذا العام، وأن الوثنيين عزوا ذلك إلى ما حل بأربابهم، وعدم تقديم القرابين لآلة النهر. وقد كتب حاكم مصر إلى الإمبراطور يخبره بذلك، فرد عليه ثيودوسيوس بقوله "دع هذا النهر يتوقف عن الفيضان حتى ولو كان السحر ضرورة لتأكيد انتظام فيضانه، أو كانت للبهجة تعلق صفحته لتقريب الأضحيات، أو كان الدم يحب أن يمتزج بمياهه التي تتبع من فردوس الإله!!" ولكن سوزومنوس يختم القصة معلقاً بقوله: "لقد أوردتها كما رويت لي" ويذكر ثيودوريتوس إنه عندما هوت المعاول على السرايوم تهدمه، أفرج المعبد عن أعداد لا حصر لها من الجرذان، وأن هدم هذا المعبد دون حراك الألهة كان سبباً في تحول كثير من الوثنيين إلى المسيحية" أنظر: SOZOM. Hist. eccl. VII 15; THEOD hist. eccl. V 22; RVFIN. Hist. eccl. II 29; SOCRAT. hist. eccl. V 15-16.

حتى إذا ما جاء عام ٣٩١ أدرك ثيودوسيوس ومستشاروه الكنسيون، وعلى رأسهم الأسقف الميلاني أمبروز، أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية للوثنية، فأعلنها حرباً على الوثنية ضروساً. ولعله من المنطقي أن نربط بين الإجراءات الصارمة التي اتخذها ثيودوسيوس في هذا العام والذي يليه، وبين إذلال ميلانو الذي جرى له في السنة السابقة على يد أمبروز بعد حادثة سالونيك. إذ أن الأسقف انتهز هذه الفرصة المواتية تماماً، ليحاول عن طريق الدولة الإجهاد كلية على الوثنية، بحيث تحتل المسيحية المرتبة الأولى، ومن ثم فإنه في الرابع والعشرين من فبراير ٣٩١ أصدر ثيودوسيوس مرسوماً عاماً يقضى بإغلاق جميع المعابد في كافة أنحاء الإمبراطورية وتحريم الأضحيان تحريماً تاماً، ثم لم يلبث أن تلى ذلك في الثامن من نوفمبر ٣٩٢ بمرسوم عام جديد نص على تدمير عدد من أشهر المعابد الوثنية في الإمبراطورية، ومنع إحراق البخور أمام الأرباب في المعابد أو في البيوت، ولعن العرافة والتنجيم، وفرضت الغرامات المالية الباهظة على كل من يحاول التردد على المعابد التي أغلقت أو المزارات المقدسة، ووصلت إلى حد مصادرة الأملاك الخاصة من المباني أو الأراضي التي تجرى فيها ممارسة مثل تلك الطقوس، واعتبرت الديانة القديمة وطقوسها، كما جاء في المرسوم، محض "خزعبلات وثنية" *gentilicia superstito* وعد كل من يخالف نص هذين المرسومين، خارجاً على الإمبراطور والعقيدة، معرضاً نفسه لتهمة الخيانة العظمى ضد الدولة^(١٠٩) حتى جاز لأحد المؤرخين أن يدعو هذا المرسوم الأخير "أنشودة الأحزان الوثنية"^(١١٠). وشهدت سنة ٣٩٣ آخر احتفال بالألعاب الأوليمبية، وتم نقل تمثال زيوس Zeus رب الأرباب، ذلك العمل الرائع للمثال الإغريقي فيدياس Phidias من على جبل الأوليمب إلى القسطنطينية^(١١١).

(١٠٩) انظر : SOZOM hist eccl VII 20

وقارن : Vasiliev, op. cit. I p. 83; Bury, op cit I p. 369.

و Jones, later Roman Empire, I p. 186.

وله أيضاً : The decline of the Ancient world, p. 71.

وكذلك : Chadwick, op. cit. p. 168.

(١١٠) Vasiliev, op cit. I p. 83

Id. (١١١)

هكذا غدت المسيحية على عهد ثيودوسيوس بمقتضى هذين المرسومين دين الدولة الرسمي، بعد أن ظلت ثلاثة أرباع القرن الرابع ديانة شرعية إلى جوار العقائد الأخرى فى الإمبراطورية، منذ رفع قسطنطين وليكينوس عن كواهل رعاياها عبء الاضطهاد الوثنى، ذلك أنه منذ عام ٣١٣ وحتى عام ٣٩١ لم يصدر أحد من الأباطرة مرسوماً عاماً باضطهاد الوثنية، إلا عندما أقدم ثيودوسيوس على اتخاذ هذه الخطوة. ولا شك أن سياسة ثيودوسيوس الدينية تمثل الصورة المقابلة أو المضادة لسياسة الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)، فبينما كان ثيودوسيوس يعتبر اضطهاد الوثنية والفرق المسيحية الخارجة عن النيقية، ضرورة لأمن الإمبراطورية، فإن دقلديانوس كان يطبق نفس النظرة فى اضطهاده للمسيحيين، بل إن هذه أيضاً كانت نظرة الأباطرة الرومان الوثنيين للمسيحية قبل دقلديانوس عندما صدر أول مرسوم عام باضطهاد المسيحية على عهد الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١)، وكان ذلك راجعاً إلى الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التى كانت تمر بها الإمبراطورية إبان ما عرف بأزمة القرن الثالث الميلادى.

وإذا كانت كفة الأقدار الآن قد مالت لصالح المسيحية، إلا أن هذا لا يعنى أن الوثنية قد استسلمت دفعة واحدة. فالفلاحون فى ريف الإمبراطورية كانوا أشد الناس تعلقاً بهذه الديانة القديمة، خاصة أولئك الذين يرتبطون بها بالمولد أو الزواج. وكانت المشكلة الحادة فى الغرب بصفة خاصة هى كيفية اقتلاع الخزعبلات والأساطير من بين أفئدة الفلاحين، أما فى المدن وحتى قلاع المسيحية ذاتها كسوريا وآسيا الصغرى وأطراف مصر، فإن الطقوس السرية بما فيها الأضحيات، ظلت تمارس على الأقل حتى القرن السابع الميلادى، ومن ثم فقد انقضى وقت طويل قبل أن تدخل هذه المراسيم الإمبراطورية التى صدرت عامى ٣٩١، ٣٩٢ حيز التنفيذ الجدى، بل إن ثيودوسيوس نفسه، صاحب هذه المراسيم، جعل من الخطيب الوثنى ثمستىوس Themstius محافظاً للقسطنطينية، وعهد إليه بتربية ابنه أركاديوس، وبقيت مدرسة أثينا تؤدى رسالتها فى حفظ التراث الكلاسيكى دون أن تتأثر بأى من مراسيم ثيودوسيوس، حتى أدركتها بالفناء يد جوستينيان فى القرن السادس الميلادى.



البصائر الخَامِسِين

إذلال ميلانو

لم يكن من السهل على الفكر السياسى الرومانى أن يقبل وجود كيان داخل الدولة، أو بتعبير آخر، دولة داخل الدولة، ذلك أنه تبعاً للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والإمبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك فى أن يعتنق من العقائد ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتعارض مع السلام الرومانى والنظام العام. ومن هنا كان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة المسيحية التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة، وزاد الأمر تعقيداً أن المسيحيين عزلوا أنفسهم عن المجتمع الرومانى والحياة العامة، فلا يشاركون الرومان الوثنيين طعامهم أو مبارياتهم أو مسارحهم، ولا يتزوجون منهم أو يزوجونهم، ولا يشتركون فى الوظائف العامة للدولة، ولا ينخرطون فى سلك التجنيد العسكرى، إلا بأعداد قليلة جداً وفى فترة متأخرة. ولما كانت الوثنية متسامحة مع أرباب العقائد الأخرى، وتسمح بوجودهم إلى جوار أربابها فى البانثيون الرومانى، على حين ترفض المسيحية الاعتراف بأرباب أخرى غير إله المسيح، ومن ثم يرفض المسيحيون العبادة الإمبراطورية، التى كانت تمثل رمز الولاء لروما والإمبراطور، غدا المسيحيون فى نظر الرومان منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها. ومن هنا تعرض المسيحيون للاضطهاد لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب بل على أيدى أباطرة مصلحين أمثال تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس، وإن لم يكن اضطهاداً عاماً أو رسمياً أو مستمراً.

ولم يكن الأباطرة الوثنيون يعنيه من أمر الخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة المسيحية شيئاً، ولهذا كانت نظرتهم إلى المسيحيين واحدة، وسياستهم تجاه الكنيسة بصفة عامة تسير على وتيرة واحدة، اضطهاداً أو تسامحاً، فلما كان عهد الإمبراطور قسطنطين وأخذت الدولة تتبع سياسة جديدة تتسم بالتسامح مع

المسيحيين، ثم التأييد على عهود أبنائه، ثم الانحياز الكامل زمن ثيودوسيوس وخلفائه من بعده، وجدت الدولة نفسها أمام مشكلة جديدة لم تعتد عليها من قبل، خاصة بعد أن أقحمت المشاكل العقيدية نفسها على الجهاز السياسى الرومانى. ومن هنا كان وضع الكنيسة فى الإمبراطورية الرومانية شيئاً جديداً وفريداً فى عالم تلك الأيام على حد تعبير بيورى^(١)، خلق عدداً من المشاكل من نوع لم يكن أى إمبراطور رومانى حتى الآن قد اعتاد على مواجهتها من قبل، ولم يكن لأحدهم خبرة سابقة تفتح له باباً يلج منه لحل هذه المشكلات. ولا شك أن تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان سيصبح على قدر كبير من الاختلاف مما غدا عليه، لو أن الكنيسة بقيت مستقلة الشأن كما كان عليه الحال قبل قسطنطين، أو أن هذا الإمبراطور وخلفاءه أنعموا عليها بمثل ما أنعم به أسلافهم من حرية على المعابد الوثنية.

وبنفس الفكر السياسى الرومانى فى الإمبراطورية الوثنية، عالج قسطنطين شئون الكنيسة المسيحية وخلاف العقيدة فيها، خاصة وأن الرجل أمضى ثمانية عشر عاماً (٣٠٦-٣٢٣) يناضل من أجل وحدة الإمبراطورية سياسياً، ولهذا لم يكن يسيراً عليه أن يسمح لجماعة رفع عنها هو إصرها والإغلال التى كانت عليها، أن تعكر صفو سلامه السياسى بأمور عقيدية بدت له "تافهة" و"عقيمة" و"خلة حمق صبيانى" فدعا هو بنفسه إلى عقد المجمع، المكانية أولاً كما حدث فى المسألة الدوناتية^(٢). وهو بعد فى الغرب، ثم تدخل فى الأمر بشخصه وقضى فيه بحكمه، ثم دعا من بعد إلى عقد المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥، ورأس الجلسة الافتتاحية، وشارك فى بعض جلساته وتدخل فى أمر العقيدة، فأضاف إليها ما ليس منها وما غدا قاعدة الإيمان للكنيسة الجامعة بعد ذلك، وصدق على قرارات المجمع، وأثاب الموافقين ونفى المخالفين، كل هذا يجرى ولم يكن قد تناول بعد سر المعمودية. ولم ترفع الكنيسة للرأس معارضة، ولم تكن فى ذلك راغبة، وحتى إذا

(١) Bury, op. cit. I p. 63.

Legacy of Middle Ages, p. 509.

وقارن

(٢) عقدت فصلاً خاصاً للحديث عن المسألة الدوناتية فى كتابى: الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، الفصل الرابع.

رغبت فلم تكن تقدر، بعد أن مد قسطنطين يده إليها لينتشلها وهي تصارع موج الاضطهاد وتوشك على الغرق إبان عصر الاضطهاد الأعظم (٣٠٣-٣١٣)، فكيف لها إذن أن تعارض ولي النعم!!.

ولم يتخل واحد من خلفاء قسطنطين على امتداد عمر الإمبراطورية عن ممارسة هذه الأمور مع الكنيسة، وحرص جميعهم عرفوا من أمر اللاهوت شيئاً أم لم يعرفوا - على أن يظلوا أصحاب السيادة المطلقة في علاقاتهم مع الكنيسة، والتي تمثلت فيما يعرف بالقيصرية البابوية Caesaropapism فالإمبراطور الذي كان الكاهن الأعظم في الإمبراطورية الوثنية، أصبح هو الآن الأسقف الأعلى وقد تحولت الدولة إلى المسيحية. وقد اتبع أبناء قسطنطين الثلاثة الأسلوب نفسه في تعاملهم مع الكنيسة، وإن كان أحدهم وهو قسطنطيوس، قد دخل في صراع سافر مع الأسقف السكندري أثناسيوس طيلة عهده، ولما كان أثناسيوس يعتبر آنذاك رمز الأرثوذكسية، فإن المقاومة التي أبداهما تجاه السلطة الإمبراطورية كانت مؤشراً على أن المجتمع الجديد يستطيع أن يقرر فكره وإرادته بصورة لم يسبق لها مثيل في علاقة الدولة بالكنيسة^(٣). ولكن من الأهمية بمكان أن نضع في اعتبارنا دائماً أن أسقف الإسكندرية في تحديه للسلطة الإمبراطورية، لم يكن يضع نظرية معينة في العلاقة بين الدولة والكنيسة، ذلك أنه لم يكن يناوئ سلطان الدولة في حد ذاته بل كان يتحدى فيها سيادة العقيدة الآريوسية ليس إلا.

وإذا كان الأمر على هذا النحو عند الأسقف السكندري أثناسيوس، فإنه يختلف إلى حد كبير عنه عند أبي المجامع، هوسيوس القرطبي، وإذا كنا لا نعد ما كتبه هذا الأخير أيضاً نظرية في العلاقة بين الدولة والكنيسة، بالمعنى المفهوم للنظرية، إلا أنه يمكن اعتباره بادرة مبكرة، وخطوطاً واضحة لطبيعة هذه العلاقات الآتية التي سيطرت على العصور الوسطى في أوروبا فيما بعد، وصبغت تاريخ حقبة كبيرة من الزمن ما بين القرنين العاشر والثالث عشر، ويؤيد ذلك أن هوسيوس ظل مستشار الإمبراطور قسطنطين للشئون الكنسية طيلة عهده، ولم تصدر عنه أية إيماءة توحى بالاعتراض على أي من سلوك الإمبراطور الذي

(٣) Bryce, The holy Roman Empire, p. 12.

اعتبرته الكنيسة الحواري الثالث عشر للمسيح. ومن هنا يصدق القول أن ما جاء في رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس كان مجرد خطوة وإن كانت بعيدة على طريق تحديد العلاقة بين الدولة والكنيسة في الغرب في العصور الوسطى، على حين حسم الشرق هذه المسألة منذ البداية بحيث احتوت الدولة الكنيسة وأصبحت هذه إحدى دوائر تلك، والأسقف مجرد موظف كبير فقط عند الإمبراطور.

وكانت أهم العبارات التي تضمنتها رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس، والتي كتبها إليه بعد عقد مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ الذي انتهى بإدانة أثناسيوس والنيقية في شخصه، ومحاولة التأثير على هوسيوس للتصديق على ذلك، قوله: "... لا تقم نفسك في المسائل الكنسية، لا تصدر إلينا أوامر هي من صميم شئوننا، بل لتعلمها أنت منا نحن. الله وضع في يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة، وكما أن الذي يسلبك هذه الإمبراطورية يصنع الشر في عيني الرب، فلتخش أنت أيضاً التدخل في شئون الكنيسة حتى لا تأتي بذلك شيئاً إذاً. مكتوب.. (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ومن ثم فليس من حقنا أن نمارس حكم الدنيا، وليس من حقك أيها السيد أن تحرق البخور"^(٤). وإذا جاء حديث هوسيوس بهذه الصراحة، فلا ينبغي أن يغرب عن ذهننا أنه رحب شأن يوسيبوس القيساري بالتزاوج بين الدولة والكنيسة، منذ عمل في خدمة قسطنطين، ومنذ طلب الدعم من ولده قنسطانز قبل انعقاد مجمع سرديكا عام ٣٤٣ وبعده، وإن كنا نعتبره في الوقت ذاته - كما قدمنا - إرهاباً وسابقة لما سيحدث بعد ذلك. ومن هذه الدائرة يمكننا أيضاً أن ننظر إلى ما كتبه هيلاريوس أسقف بواتييه في عمله الشهير "ضد الإمبراطور قسطنطيوس" Contra Constantium Imperatorem بعد أن أصبحت الأريوسية الهوموية لها السيادة بعد مجامع ريمنى وسلوقية عام ٣٥٩ ونيقا والقسطنطينية سنة ٣٦٠.

وكان ابتعاد الأباطرة عن الغرب وإقامتهم على شاطئ البسفور في القسطنطينية وبصفة خاصة الأباطرة ذوي الشخصية القوية والنفوذ خلال القرن الرابع، فرصة سانحة كي تمارس الكنيسة في الغرب عملها دون إشراف مباشر من الأباطرة، كما جرى عليه الحال في النصف الشرقي من الإمبراطورية، وكان هذا

(٤) HOSIVS, ep, ad Cons (in ATHANAS, hist. Arian, 44, Nicene, vol. IV).

الدولة .. والكنيسة

من بين الأسباب العديدة التي دعت أكليريوس الغرب إلى نبذ العقيدة الأريوسية بعد ارتحال قسطنطيوس عائداً إلى القسطنطينية عام ٣٥٦، وكان هذا في الوقت ذاته أيضاً مدعاة لأن تصبح الكنيسة الغربية أقل اعتماداً على الدولة من قرينتها في الشرق.

وقد وجدت الكنيسة الغربية في شخص أمبروز، الذي جعل من ميلانو منافساً خطيراً لروما، رغم احترامه وتقديره للكرسي الروماني وأساقفته، منتهزاً فرصة خلو عرش بطرس من شخصية قوية آنذاك، وجدت فيه زعيماً استطاع أن يتمسك بحقوق الكنيسة وإن كان في الوقت نفسه صديقاً مخلصاً للأباطرة وخادماً أميناً للإمبراطورية. ولما كان أمبروز رومانياً من الطراز الأول، ولد وتربى في جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين في الإمبراطورية، فقد جاء إلى خدمة الكنيسة مزوداً بما اشتهر به الموظف الروماني من روح عامة وإخلاص للواجب العام. ولم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة، حيث كان يعتقد أن الإيمان الحق سوف يكون مصدر قوة جديدة للإمبراطورية، وكما انتصرت الكنيسة على الوثنية فستنتصر الإمبراطورية المسيحية على الجحافل الجرمانية^(٥). لقد كان أمبروز بحق أول الدعاة إلى مثالية الدولة المسيحية في الغرب، كما كان يوسيبوس القيساري في الشرق، وإن كان هناك فارق كبير بينهما، فأمبروز يختلف تمام الاختلاف عن يوسيبوس في تصويره لواجبات الحاكم المسيحي والعلاقة بين الكنيسة والدولة، وإذا كان موقف يوسيبوس من الإمبراطور قسطنطين قد اقتصر على موقف أسقف يدين بالفضل للبلاط الإمبراطوري، وهو يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان على غرار الهالة التي أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة في الشرق القديم، ويخاطبه على أنه مخلوق مقدس يعلو أحكام البشر، فإن أمبروز ينتمى إلى تقاليد أخرى، إذ يقف في منتصف الطريق بين مثالية العصور القديمة على المسئوليات المدنية، ومثالية العصور الوسطى المنادية بسمو السلطة الروحية. لقد جمع أمبروز في شخصه شيئاً من صفات الحاكم في العصور الرومانية وشيئاً من صفات البابا في العصور الوسطى، فرأى أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدي رجالها، أي الأساقفة الذين يجب أن يخضع لسلطانهم

(٥) دوسن، تكوين أوربا. ص ٥٢.

جميع الناس حتى الإمبراطور نفسه، وهو لا يتردد في تحدى الأباطرة وزجرهم ومحاسبتهم على أعمالهم المنافية للعدالة^(٦).

هذه النواحي نجدها متمثلة في علاقاته بالأباطرة فالننتينيان الأول وولديه جراتيان وفالننتينيان الثانى، ثم ثيودوسيوس. فهو يلوم الإمبراطور فالننتينيان الأول على سلوك بعض موظفيه وخروجهم عن جادة الصواب، ولما يمضى على اختياره لأسقفية ميلانو إلا فترة قليلة جداً، وهو يصر على ضرورة الإيمان النيقى لدى الأباطرة حتى يمكنهم مواجهة التحديات التى تهدد الإمبراطورية متجسدة فى الزخوف الجرمانية، إذ كتب إلى الإمبراطور جراتيان ضمن عمله "عن الإيمان" الذى أعده بناء على طلبه، يقول:

"ليس من واجبى أن أعوق مسير عظمتكم فى وقت تستعدون فيه للحرب وإتمام النصر على البرابرة، فتقدم يحميك درع الإيمان، مسلحاً بسيف الروح القدس، إمض إلى النصر الذى وعدنا الله به وأنبأت به المعجزات التى جرت على يديه^(٧)... إن جيشنا لا تتقدمه النصور الحربية، ولا الطيور المحلقة، بل اسمك أنت أيها الرب يسوع، وصلواتنا عليك. ليست هذه الديار للكافرين، إنها إيطاليا التى اعتادت أن تبعث دوماً بالمعترفين، إيطاليا التى طالما أغراها أهل الهوى، ولكنها إليهم لم تتحرف، إنها إيطاليا التى كثيراً ما دافع عنها جلالتك، والتى تعملون على إنقاذها الآن من البرابرة. إن إمبراطورنا لا يحمل فى رأسه عقلاً متردداً، بل إيماناً ثابتاً لا يتزعزع"^(٨).

ورغم أن أمبروز لم يتوان عن القيام بمهمة سياسية أوفده فيها الإمبراطور فالننتينيان الثانى وأمه جوستينا، إلى الإمبراطور المغتصب ماكسيموس فى عامى ٣٨٤، ٣٨٧، إلا أن ذلك لم يمنعه من مواجهة فالننتينيان بكل الحزم والعنف عندما علم بما كان من أمر السناتو الرومانى وزعيمه سيماخوس معه فيما يتعلق بمسألة إعادة مذبح النصر إلى مكانه القديم، إلى حد التهديد بتوقيع الحرمان الكنسى ضد

(٦) المرجع السابق، ص ٥٣، ٥٤.

(٧) AMB, de fide II 136.

(٨) Ibid. 142.

الإمبراطور، ثم نجد أن أمبروز يكشف عن أفكاره الأساسية حول العلاقة بين الدولة والكنيسة، ويعلنها صراحة منذ الآن فصاعدا وحتى نهاية حياته في رسائله إلى الأباطرة وسلوكه إزاءهم، فقد وقف موقفاً صارماً من فالنتينيان وأمه بعد أن أدرك ميلهما إلى الأريوسية ومحاولة الاستيلاء على إحدى كنائس ميلانو، فقد جاء في رسالته إلى فالنتينيان بهذا الخصوص:

"... متى سمعت أن العلمانيين قد أصدروا أحكاماً فيما يتعلق بالأساقفة حول قضية الإيمان؟ وهل بلغنا حد المهانة من جراء تملق البعض ومداهنتهم إلى درجة التغافل عن حقوق الأكليروس؟ أو أن نعطي إلى آخرين ما عهد الله به إلينا؟ وإذا ما تصادف وتلقى أحد من رجال الدين تعليمه على يد واحد من العلمانيين، من تراه يتبع الآخر؟ فليناقدش العلماني وليصنع رجل الدين، وليتعلم هذا من ذاك، ولكن مع كل هذا الذي لا شك فيه، إننا سواء تابعنا ما جاء به الكتاب المقدس، أو اقتفينا سنة الأقدمين، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أنه في مسائل الإيمان، وأكررها، في مسائل الإيمان،، قد استقرت الأعراف بأن الأساقفة هم قضاة الأباطرة وليس هؤلاء قضاة أولئك"^(٩). ويضيف: "إن الإمبراطور لا سلطان له على الكنيسة لأنها لله وحده"^(١٠). "القصور للإمبراطور وللأسقف الكنائس.. لقد خولت فقط السيادة على المرافق العامة لا على الأبنية المقدسة"^(١١). "نحن نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله. الجزية لقيصر، نحن لا ننكر ذلك، والكنيسة لله ومن ثم فلا تخضع لقيصر، لأن بيت الله لا يمكن أن يكون من حق القصير"^(١٢). ويؤكد فكره حول هذا بصورة لا تدع مجالاً للشك عندما يقول: "إن الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"^(١٣).

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

AMB. Ep. XXI 4. (٩)

AMB. Ep XX 7. (١٠)

Ibid. 19. (١١)

Ibid. 35 (١٢)

Ibid. 36. (١٣)

وإذا كان هوسوس قد خطا خطوة الكنيسة الأولى على طريق تحديد علاقتها بالدولة، فإن أمبروز قطع نصف الطريق وصولاً إلى ذلك الهدف، ذلك أن شيئاً من ادعاء الكنيسة بالسيادة في الحياة لم يكن قد تحقق منه شيء حتى أيام أمبروز، ولذلك فليس من المبالغة في شيء القول بأن البابا جريجوري السابع اعتمد في كثير من أفكاره وجهوده عن سمو الكنيسة في القرن الحادي عشر على ما أقره قبلاً أمبروز في القرن الرابع الميلادي، إلا أن أمبروز لم يجد السبيل أمامه في هذا الطريق يسيراً، إذ أن ادعاءاته هذه بحقوق الكنيسة وكيانها المستقل، كانت تبدو للفكر الروماني غريبة عنه، خاصة وأن الدولة قد سيطرت على الكنيسة في عهد الأباطرة الوثنيين، ثم احتوتها منذ القرن الرابع بعد أن أخذت تميل إلى المسيحية. وكانت سيادة قسطنطين على الكنيسة المثل الذي يحتذيه خلفاؤه من بعد، ولذا كان اصطدام أمبروز بالدولة وسيادتها ممثلة في شخص ثيودوسيوس الآن حتماً مقضياً. وإذا كان شباب جراتيان وطفولة فالنتينيان الثاني قد ساعدت الأسقف الميلاني على أن يحقق للكنيسة نوعاً من السيادة تجاههما، فإن شخصية ثيودوسيوس، وفكرته عن سيادة الدولة، اتساقاً مع الفكر السياسي الروماني، ورغبته في تأكيد سيطرة الدولة على كل رعاياها، كان مدخلاً طبيعياً للصدام مع الكنيسة ممثلة في أمبروز.

لقد أنعم ثيودوسيوس على الكنيسة والأكليروس المسيحي بكثير من الامتيازات التي ربما فاقت ما أقدم عليه أسلافه فيما يتعلق بالواجبات الشخصية ومسئوليات الحكم، غير أنه مع ذلك وضع في اعتباره أن لا تتعارض هذه الامتيازات مع اهتمامات واختصاصات الحكومة، ومن ثم فإنه بقرار واحد فرض على الكنيسة التزامات غير عادية *extra ordinaria munera* من أهمها أن مقدرة الكنيسة على اعتبارها ملجأ وملأداً للمجرمين والتي احترمت من جانب الدولة من قبل، حددت الآن بصورة كبيرة بسبب سوء استخدام هذا الامتياز، ومن ثم فقد منع المدنيين بصفة خاصة من الاحتماء في الكنائس هرباً من دائنهم، ومنع الأكليروس من التستر عليهم^(١٤).

ولم تكن السنوات التي أعقبت انتصار ثيودوسيوس على ماكسيموس في الغرب، إلا محكاً لاختبار القوى بين الكنيسة والدولة، ففي عام ٣٨٨ قام الأسقف والرهبان المسيحيون في كالينيك Callinicum في ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) Mesopotamia بتحريض الغوغاء من الجموع المسيحية على إحراق معبد لليهود وكنيسة لفريق من الخارجين على النيقية يعرف بالفالنتينيين Valentinians ولما كانت اليهودية تتمتع بالحماية الرسمية من جانب الدولة، فقد أصبح لزاماً عقاب هؤلاء الدهماء، وعلى الفور أصدر ثيودوسيوس أوامره إلى أسقف كالينيك بإعادة بناء المعبد اليهودي ثانية^(١٥). ولا شك أن الإمبراطور الذي كان موجوداً في الغرب آنذاك، كان حريصاً على أن يضمن هدوء تلك المناطق الشرقية حتى لا يستغل الفرس هذه الأحداث، وانشغال الإمبراطور بإقرار الأمور في الغرب، للقفز على جبهة الفرات، التي كانت قد شهدت سلاماً حديثاً فقط جرى به توقيع معاهدة في العام الماضي، خاصة وأن الثورة في أنطاكية لم يكن قد انقضى على إخمادها شهور معدودات.

ومن الجدير بالذكر أن العلاقة بين اليهود والمسيحيين منذ البداية لم تكن طيبة على الإطلاق، ظل هذا ديدنها طيلة العصور الوسطى، وكان هذا يعود في المقام الأول إلى الموقف العدائي الذي اتخذته اليهود من المسيح والمسيحيين، وانعكس ذلك بدوره على علاقتهم مع الإمبراطورية، ذلك أن اليهود لم يجدوا في المسيح بغيتهم التي كانوا يؤملونها في الـ"مسيا" الذي إياه ينتظرون، فقد جاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدّهم وعداً حسناً في الدار الآخرة، ولم يكن طموحهم أخروياً، بل دنيوياً، يتمثل في مسيح ملك يعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء ومن القوة والعظمة، وينهى بقوته وإلى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال، ويتقنون في أن "يهوه" لن يتخلى عنهم، ولم لا ونبوءات أنبيائهم تحدثهم بذلك. فهذا أشعيا يقول: لأنه يولد لنا ولد ونعطى إنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً الها قديراً أباً أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته والسلام لا نهاية على كرسي داود

وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا" (اشعيا ٦/٩-٧).

وكان الإذلال الذى تعرض له اليهود إبان العصر الرومانى دافعاً لهم على التعلق بهذه الآمال بعد أن تحطمت آمالهم بيد أباطرة الرومان خلال القرنين الأول والثانى، وكانت اليهودية قد أخذت فى الانتشار الواسع فى حوض البحر المتوسط الشرقى مستفيدة من غزو الإسكندر المقدونى الذى فتح العالم الإغريقى كله أمام اليهود، فاحتلوا مراكز التجارة العامة فيه، وسيطروا على طرق المواصلات الرئيسية، ولقيت المستعمرات التى أقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى أعفتهم من الخدمة العسكرية، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم، وأنعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها. حتى أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى جودايا Judaea نفسها . وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السلوقيين سبباً فى إعادة إحياء هذه الديانة، ومدعاة لنشاط تبشيري بين جماعات الوثنيين، واستطاعات اليهودية أن تجذب إليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من هؤلاء.

وعلى الرغم من أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى، واستسلموا تدريجياً لمظاهر هذه الحضارة، إلا أنهم ظلوا يكونون شكلاً من الوحدة الدينية يترأسه الكاهن الأكبر فى القدس، وعندما أضحت جودايا جزءاً من ولاية سوريا الرومانية فى عام ٦٣ ق.م. حفظت روما لليهود موقفهم إزاءها أثناء عدائها الباكر مع دولة السلوقيين، كما ذكرت لهم بكل التقدير تخليهم عن نصره آخر حكام البطالمة فى مصر ووقوفهم إلى جانب أوكتافيانوس، فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من الدول الهلنستية، ولم يطلب إليهم المشاركة فى العبادة الإمبراطورية، وحظوا بنوع من التسامح كانت تقره الوثنية، وتمكن اليهود من التخلص بلباقة من المأزق الذى دفعهم إليه الإمبراطور كاليجولا عندما أصدر أوامره بأن يقدم أتباع كل العبادات قرباناً لتمثيله، حيث قطعوا نصف الطريق إلى ترضية الإمبراطور بقبولهم أن يضحوا للاله يهوه باسم الإمبراطور.

غير أن اليهود قاموا بثورتين خلال هذه الفترة، الأولى في جودايا في ستينيات القرن الأول أخمدها الإمبراطور فسباسيانوس بعنف ودمر الهيكل، وأمر بتحويل الضريبة التي يدفعها اليهود إلى هيكل بيت المقدس إلى البانثيون في روما، والثانية في عامي ١١٥/١١٦ عندما شبت الثورة في روما وامتدت منها إلى مناطق عديدة من الإمبراطورية في برقة ومصر وقبرص وما بين النهرين، وتمكن الإمبراطور هادريان من القضاء عليها، وأصدر في سنة ١٣١ مرسوماً يحرم الختان أو الاحتفال بأي عيد من الأعياد اليهودية، أو إقامة أى طقس من طقوسهم علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا في يوم واحد خلال العام ليسمح لهم فيه بالبكاء أمام خرائب الهيكل.

ولم يتحسن وضع اليهود بمجىء قسطنطين الذي أصدر مرسوماً في عام ٣١٩ تهدد فيه اليهود بعقوبة الحرق إذا ما وقفوا حجر عثرة في سبيل "التحول إلى عبادة الله". ومن المعروف أن القانون الروماني لم يكن يستبعد تطبيق عقوبة الإحراق للمجرمين، خاصة إذا كانوا من الطبقات الدنيا. وعبارة المرسوم غامضة لا تشير إلى المسيحية مباشرة، وهذا يؤكد من جديد تلك السياسة التي سار عليها قسطنطين في علاقته بالعقائد المختلفة في الإمبراطورية، خاصة وأنه في هذه السنة كان ما يزال سيد الغرب فقط. وقد أبدى قسطنطين سعادته عندما وافق مجمع نيقية على تعديل عيد الفصح حسب ما تحتفل به كنيسة روما والإسكندرية، خلافاً لما جرى به التقليد الكنسي من قبل من الاحتفال بهذا العيد تبعاً للتقويم اليهودي. ويمكن القول بصفة عامة على حد تعبير المؤرخ جواتكين Gwatkin أن اليهود لم يظهروا في يوم ما ولاءهم للإمبراطورية، كما أن الإمبراطورية وقد أخذت تتحول إلى المسيحية، كانت تحمل لهم عداً دائماً، وإن كان هذا قد خف بصورة ما على عهد الإمبراطور جوليان الذي عمل على أن يقربهم إليه كجزء من سياسته العامة تجاه المسيحية، وإن كان ذلك لم يظهر في مرسوم عام من جانبه، ولم تدل عليه الأحداث إلا عند مقدمه إلى أنطاكية التي كان بها جالية يهودية كبيرة، وتشير بعض الروايات إلى أنه سمح بإعادة بناء الهيكل ثانية، وإن كان هذا لم يتحقق.

وعلى أى حال فإن أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية كان كل منهما يحمل العداء للآخر، خاصة من جانب المسيحيين الذين كانوا يذكرون دائماً مواقف اليهود المختلفة من المسيح وعداءهم له. ولم يكن اليهود يقلون عنهم شعوراً بهذا العداء على اعتبار أنهم أتباع المسيح الذى رفضوه، والذين تنهياً لهم الأمور لتصبح عقيدتهم لها السيادة فى الإمبراطورية، ويصبحون هم بالتالى رعايا لجماعة يعدونها منشقة عنهم وخارجة، ومن ثم كان التوتر قائماً بينهما بصفة مستمرة، ولهذا فإن ما وقع فى كالينكا فيما بين النهرين، من إحراق المعبد اليهودى هناك على يد الجموع المسيحية بتحريض الأسقف والرهبان، لهو دليل على هذه الناحية بشكل مباشر. وبينما كان الإمبراطور ثيودوسيوس ينظر إلى هذه الحادثة باعتبارها مسألة تخص الحكومة الإمبراطورية وسلطانها، كان الأسقف الميلاى أمبروز يعتبرها أمراً عادياً جزاء ما قدمت أيادى اليهود فى حق المسيح وأتباعه. ولهذا فإنه على حين أصدر الإمبراطور أوامره بإعادة بناء المعبد ثانية، وأن يتولى الأسقف نفسه هذه المسألة، راح أمبروز يستحث الإمبراطور على العدول عن قراره، حتى اضطره إلى ذلك فعلاً. وقد كتب أمبروز رسالة مطولة إلى ثيودوسيوس حول هذا الأمر، لا يعجلها فى إطنابها إلا رده على سيماخوس.

والرسالة تنتهى على رحمة ثيودوسيوس وعدالته، وورعه وتقواه، إلا أن ذلك لا يمنع من الوقوع فى الغواية بتأثير عوامل معينة. ولذا فمن واجب أمبروز كأسقف أن يوجه النصيح والرشد للإمبراطور بما يمليه عليه واجبه الدينى وصداقته الحميمة التى تربطه به. ولهذا كان من الضرورى أن يوضح له أن قراره بإعادة بناء المعبد اليهودى ثانية يشكل إثماً خطيراً إذ أنه سيدفع رجال الأكليروس المسيحى بعد ذلك إلى سلوك أحد سبيلين، فإما الزيف والضلال نتيجة سكوتهم عما يرونه من انتهاك لحرمة الدين، وأما الموت خلاصاً من ذلك. وقد أشار أمبروز إلى الرواية التى تقول إن جوليان أمر بإعادة بناء الهيكل ثانية، وما كان من أمر اشتعال النيران فيه قبل إتمام بنائه، وقارن بين قراره هذا وهو إمبراطور مسيحى، وبين موقفه عندما أضرمت النيران من جانب الآريوسيين فى منزل أسقف العاصمة نكتاريوس فى نفس الفترة تقريباً، وراح يعدد الكنائس الكثيرة التى أحرقها

الدولة .. والكنيسة

اليهود على عهد جوليان فى غزة وعسقلان وبيروت والإسكندرية، والمذابح التى أوقعوها بالمسيحيين، ويوجه الاتهامات العنيفة إلى اليهود وينعتهم بالإلحاد، ويذكر الإمبراطور بأن انتصاراته على ماكسيموس التى جرت منذ شهور تعود إلى تأييد الله له، فكيف يغضبه الآن لارضاء هؤلاء اليهود؟ وإذا كان قد عفا عن الأنطاكيين الذين أساءوا إلى شخصه بتحطيم تماثيله، فلا أقل من أن يعدل عن قراره هذا. ولم يفت أمبروز أن يشهر فى وجه الإمبراطور فى آخر سطور رسالته سلاح التهديد بقرار الحزمان الكنسى.

ولعله من الضرورى هنا أن نبسط فكر أمبروز حول هذا الأمر، وما تضمنه من علاقة الدولة بالكنيسة، وليس أصدق على هذا "البسط" من أن نترك المجال لأسقف ميلانو كى يعبر بقلمه عما احتواه صدره.. قال:

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير الرحيم، والإمبراطور المبارك ثيودوسيوس العظيم.

"أيها الإمبراطور الممجّد .. لطالما عانيت .. ولكنى مع ذلك لم أكن فى يوم ما محزوناً كيومى هذا. لذا أخذت حذرى موقناً أنه ليس هناك شىء يمكن أن يعزى إلى، ويشتم منه انتهاكاً لحرمة المعابد. ومن ثم فإنى أتوسل إليك أن تصغى بكل الصبر لما أنا قائل، ذلك أنى إذا لم أكن جديراً باصغائك، فلن أكون مستحقاً إذن، وقد حظيت بثقتك، أن أقدم من أجلك النذور والصلوات. ألن تسمع أنت نفسك من ترغب فى أن يسمع من أجلك؟ ألن تصغى لهذا الذى يعرض قضيته هو وقد أصغيت له وهو يتحدث من أجل آخرين؟ ثم ألسنت خائفاً من أجل قرارك الخاص، بحيث إذا ظننت أنه غير جدير بأن تسمع له، يمكن أن تجعله بذلك غير جدير بأن يصغى إليه أحد من أجلك.

"ومع كل ذلك فليس من حق أى إمبراطور أن ينكر على أحد حرية القول. وليس من واجب أى كاهن أن لا يبدى ما يدور فى أغوار فكره. ولعل أعظم ما فيك أيها الإمبراطور شهرة وتقديراً هو احترامك لحرية حتى أولئك الذين قهرتهم بالقوة العسكرية. وهذا هو الفارق الجوهرى بين الحاكم الصالح ونقيضه، فالأول

يعشق الحرية والثاني يهوى العبودية، كما أنه ليس هناك شيء أعظم من أن يرعى الكاهن حدود الله. ولا أخط في فكر الناس من أن يعرفون عنه أنه لا يمتلك الحرية في التعبير عما يجول بخاطرهم. مكتوب "وأتكلم بشهادتك قدام ملوك ولا أخزي" (مزامير ٤٦/١١٩). ومكتوب أيضاً "يا ابن آدم قد جعلتك رقيقاً لببيت إسرائيل" لأن "البار إن رجع عن بره وعمل إثماً وجعلت معثرة أمامه فإنه يموت لأنك لم تذر يموت في خطيته ولا يذكر بره الذي عمله. أما دمه فمن يدك أطلبه. وإن أنذرت أنت البار من أن يخطئ البار وهو لم يخطئ فإنه حياة يحيا لأنه أنذر وأنت تكون قد نجيت بنفسك". (حزقيال ١٧/٣، ٢٠، ٢١).

• "وتجمعني وإياك أيها الإمبراطور رفقة خير لا صحبة شر، ولذا كان صمت الكاهن مدعاة لإثارة السخط والغم في نفسك، بينما يضيف السرور على قلبك حديثه. وليس الفضول من طباعى بحيث أدس فيما لا يعنيني أنفى، إني لله وتعاليمه متبع. وما فعلت ذلك كله إلا حرصاً على محبتك، ومودة لك، ورغبة في أن تظل أعمالك على الدوام طاهرة. فإذا لم أكن أعتقد صدق ذلك فعلاً، أو قدر لي أن أحرم من التصرف وفق هذا الأساس، فيكفى أنى سوف أقدم نفسي بكل الاصطبار قداء لك، فربما تكون دون مجازفتي مقبولاً عند الرب مجدداً. ولكن إذا كانت خطيئة الصمت أو الرياء من جانبي سوف تحط من قدرى، وفي الوقت نفسه لن تطلق يدك حرة في كل الأمور، فإني أفضل أن تعتبرني ملحقاً في القول لجوجاً خيراً من أن تنظر إلي على أنى عدم النفع دينياً، فقد جاء على لسان بولس الرسول الذى ليس بمقدورك أن تحاجه في تعاليمه "أعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب. وبخ، انتهر، عظ بكل أناة وتعليم" (رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٢/٤).

"وهناك واحد تصنع شراً لو حاولت اغضابه، خاصة وأن الأباطرة أنفسهم لا يسخطون إذا ما أدى كل شخص واجبه، وأنت نفسك تصغى بكل الأناة لكل إنسان يبدى مقترحات في مجال عمله، ولا حتى تنتهز أحداً انحرف عن جادة الصواب في ميدانه. فهل يمكن أن يبدو صفاقة من جانب الأكليروس ما ارتضيته أنت من قبل في موظفيك، خاصة إذا كنا لا نقول ما نحب، بل ما نحن به مأمورون؟ ولا ريب فقد قرأت "قمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون لأنكم تعطون في

تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم" (متى ١٩/١٠-٢٠). ولو فرضنا أنى رحمت أتحدث فى قضايا الدولة، وأنا أعلم أن الصدق لابد أن يتوفر أيضاً فى مثل هذا الحديث، فلن أمتعض إذا ما أحسست أن أحدا لا يصغى لحديثى، أما إذا كان الأمر يتعلق بأمر من أمور الله، فلمن تسمع إذن إذا لم تسمع لكاهن؟ من تراه يجترئ على أن يعلن الحق أمامك إذا لم يفعله كاهن؟

"أنا أعلم أنك إنسان تخشى الله وتتقيه، رحيم، وقور، رقيق، دخل الإيمان إلى قلبك فملاك الله خشية، ومع كل ذلك فإن هناك أشياء غالباً ما تغفل عنها العيون. مكتوب "لأنى أشهد لهم أن لهم غيرة لله ولكن ليس حسب المعرفة" (رسالة بولس إلى أهل روما ١٠/٢). ومن ثم كان لازماً علينا أن نكون حريصين حتى لا يتسلل ذلك إلى الأرواح المؤمنة. وأنا أعلم مدى اتضاعك لله، وكم أنت بالناس رؤوف، وأنا نفسى مدين لك بالفضل، من أجل هذا يساورنى القلق خشية أن تديننى من بعد بحكم خاص تصدره، مبنى على أنك من خلال رغبتى فى أن أكون صريحاً تماماً، أو بسبب نفاقى وتملقى، لم تسطع أن تتحاشى بعض الهنات، فإذا ما عاينت أنك أخطأت فى حقى، فليس من واجبى أن ألزم الصمت، لأنه مكتوب "وأن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحداً أو اثنين لكى تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة". (متى ١٨ / ١٥-١٧). أترانى بعد هذا إذن أعقل لسانى عن أمر يخص الله؟ والآن دعنى أعرض عليك مخاوفى والهواجس.

"هناك تقرير دبجه القائد العسكرى للشرق يقول فيه أن معبداً لليهود قد تم احراقه، وأن هذا الحادث قد وقع بتحرير من الأسقف، ولقد أصدرت أوامرك على الفور بمعاقبته الآثمين، وألزمت الأسقف ذاك نفسه بإعادة بناء المعبد. ولست أستحسبك كى تؤخر بعض الوقت حساب الأسقف، فالذى أعلمه أن الكهان هم مهدئو الفتنة، حريصون على السلام، إلا عندما يستتارون لأمر يخص الله، أو لإهانة لحقت بالكنيسة. ولنفترض أن الأسقف كان حقاً شديد الحماسة فى مسألة إحراق المعبد، شديد الحياء عند منصة القضاء، ألا يملكك الخوف أيها الإمبراطور خشية أن يتزعزع إيمان الأسقف بإذعانه لحكمك؟

"ألا تخشى أيضاً إذا ما حدث ذلك، أن يواجه الأسقف قائدك بالرفض ومن ثم فإنه أما أن يدفع الأسقف بعد ذلك إلى أن يصبح مرتدّاً أو شهيداً. وهذا أو ذاك قد انقضى زمانه، وكلاهما للاضطهاد قرين إذا ما أكره على الارتداد أو سيق إلى الشهادة. وها أنت ترى إلى أى منحدر تسير الأحداث، فإذا ما تبين لك أن الأسقف ثابت على موقفه، فلتحم من الموت رجلاً خلقه للثبات، أما إذا عرفته مزعزعا، فلتجنب نفسك إثم سوق إنسان يترنح إلى هاوية السقوط، فهذه الأخيرة في حد ذاتها مسئولية شديدة الوطء.

"ومادم الأمر قد جرى على هذا النحو فلنفترض أن الأسقف المذكور يقول أنه هو الذى أضرم النيران، واستحث الجموع، وجمع العامة من حوله حتى لا يضيع أى فرصة للشهادة، فبدلاً من أن نقدم ضعيفاً، فلنضع فى المقدمة مصارعاً. أى سعادة زائفة إذن تلك التى ينالها شخص لنفسه على حساب تبرة آخرين. وهذا بعينه أيها الإمبراطور ما ألح فى طلبه، بمعنى أن توقع على عقاب ما، فإذا ما اعتبرت ذلك جرماً، فلتعزوه إلى. ولماذا تصدر حكماً غيبابياً؟ إن المذنب ماثل أمامك يدلى باعترافاته. أنا الذى أشعلت النار فى المعبد، أو قل على الأقل إننى أنا الذى حرضت من فعل ذلك، فليس من الواجب أن يوجد مكان ينكر فيه اسم المسيح، فإذا ما اعترض على قولى بأنى لست أنا الذى أحرق المعبد، فإن إجابتى لن تخرج عن القول بأن الحريق بدأ بقضاء الله وأن دورى قد انتهى فإذا ما طلب الحق لذاته، فإنى أكون فى هذه الحالة أشد ارتباطاً، لأنى لا أتوقع أبداً أن هناك شيئاً يستحق العقاب. ولماذا أقدم على شيء يبدو كما لو كان لن يؤخذ بثأره، وكذلك دون مكافأة؟ هذا القول يخدش الحياء، ولكنه يوجب الصفع، مخافة أن حدث ذلك أن يكون إثماً يرتكب فى حق الله العظيم.

"ولكن دعنا نسلم بأن أحداً لن يذكر أن الأسقف هو الذى فعل هذا، بدلاً من أن أطلب ذلك من رحمتك، ورغم أنى لم أقرأ بعد أن هذا المرسوم قد تقرر الغاؤه، إلا أننا سوف نفترض أنه قد ألغى بالفعل. وماذا لو أن الآخرين الأشد حياء عرضوا إعادة بناء المعبد على نفقتهم الخاصة؟ أو ماذا لو أن القائد وقد وجد هذه النية المسبقة، قد أصدر أوامره ببنائه ثانية بعيداً عن مدخرات المسيحيين؟ إن لديك

أيها الإمبراطور نائباً مرتداً.. فهل يمكن أن تثق في النصر يجرى إذن على يديه؟ وهل يمكن أن تعهد بحمل لابرومة المسيح إلى من يحاول إعادة المعبد اليهودي الذي لا يعرف من هو المسيح؟ ألا فلتصدر أوامرك بأن تحمل لابرومة المسيح إلى قلب هذا المعبد لنرى هل يظهرون الاحتجاج والرفض أم لا.

"ترى أيمن أن يخصص مكان للمرتابين اليهود من بين ما غنمته الكنيسة؟ وهل يمكن أن تنتقل الأملاك الكنسية التي حازها المسيحيون بنعمة المسيح إلى خزانة غير المؤمنين؟ ولقد قرأنا حقاً عن معابد قديمة بنيت من أجل أوثان المغتصبين، قد أخذت من الكمبري Cimbri وغنمت من غيرهم من الأعداء . فهل يكتب اليهود على مدخل معبدهم: "شيد معبد الألحاد من غنائم المسيحيين"؟

"ولكن.. ربما يكون إقرار النظام هو دافعك أيها الإمبراطور.. لكن خبرني أيها أهم وأعظم؟ إقرار النظام أم العقيدة؟ إن الأمر يحتاج إلى أن تكون الأحكام خاضعة لنظم العقيدة.

"ألم تسمع أيها الإمبراطور بما حدث على عهد جوليان عندما أمر بإعادة بناء الهيكل في بيت المقدس؟ لقد أكلت النار أولئك الذين راحوا يرفعون الأنقاض^(١٦). أفلا تكون حذراً خشية أن يقع مثل ذلك مرة أخرى؟ إن الواجب يقتضيك أن لا تأمر بما أمر به من قلب جوليان.

"ولكن .. ما هي حقاً دوافعك ؟ أتعود إلى مجرد احتراق مبنى عام، أو لأن هذا المبنى بالذات هو معبد اليهود؟ فإذا كان الأول (مع أنه ليس في المدينة مبنى ذو أهمية).. أفلا تتذكر أيها الإمبراطور كم من بيوت محافظي روما قد التهمته النيران، ولم يعاقب أحد من جراء ذلك؟ وللحقيقة.. فإن أي إمبراطور تحدوه الرغبة في إنزال العقوبة الصارمة جزاء فعل ما، فإنه بالتالي سوف يسىء إلى أصحاب القضية الذين لحقهم الضرر، وأيهما أجدر بالقصاص؟ .. إضرار النيران في بعض

(١٦) لقد جاء ذكر الرواية في كل كتب المؤرخين للكنسيين وتحدث عنها أميانوس ماركلينوس الوثني في كتابه Res gestae XXIII. 1 وليس من المستبعد طبعاً أن تكون النيران قد اشعلت على يد الساخطين.

أبنية كاللينيكا، أو تسعيرها في روما؟ على افتراض أن هذا أو ذاك واجب الوقوع. ولقد حدث مؤخراً أن النار قد اشتعلت في منزل أسقف القسطنطينية، وقد تشفع ابنكم في ذلك طالباً منكم الصفح وعدم الانتقام لهذه الإهانة التي لحقت به.. وبمن لحقت؟ بابن الإمبراطور وأسقف العاصمة. ألا تعتقد أيها الإمبراطور أنك لو كنت قد أصدرت أوامرك بالقصاص العادل في هذا الحادث، أنه كان سيتدخل ثانية من أجل رفع العقوبة؟ ومع ذلك فقد باء الابن بالفضل من أبيه، إذ كان جديراً بالتسامح والعفو عن أساء إليه. وكانت تلك إذن قسمة عادلة، فالابن تم استعطافه من أجل حقه، والأب من أجل حق ولده. ولم يحدث لك شيء مطلقاً من جراء اصغائك لابنك. إذن.. خذ حذرك.. لئلا تخسر كل شيء من عند الله آت.

"ليس هناك إذن سبب كاف لمثل هذا الهياج بحيث يعاقب الناس بصورة صارمة بسبب إحراق مبنى، تتضاءل أهميته إذا ما عرف أنه المعبد اليهودي، بيت الكفر والإلحاد، وكر الحماقة الذي أدانه الله نفسه. ونحن نقرأ ما تحدث به الرب الهنا على لسان أرميا النبي: "أصنع بالبيت الذي دعى باسمي عليه الذي أنتم متكلون عليه وبالموضع الذي أعطيتكم وآباءكم إياه كما صنعت بشيلوه. وأطرحكم من أمامي كما طرحت كل نسل أفرايم. وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ولا تلح على لأنى لا أسمعك. أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا" (ارميا ١٤/٧-١٧) لقد حرم الله الشفاعة لأولاء القوم.

"وبكل تأكيد.. لو أنني كنت مترافعاً بما يمليه القانون، فإن بمقدوري أن أعدد كم من الأسقفيات قد أحرق بيد اليهود زمن الإمبراطور جوليان: اثنتان في دمشق، إحداهما مما لا يمكن إصلاحها ثانية على نفقة الكنيسة وليس على حساب المعبد اليهودي، أما الأخرى فما زالت أنقاضاً وخرائب، وأحرقت أيضاً كنائس في غزة وعسقلان وببيروت، وفي كل مكان تقريباً من تلك الأجزاء، ومع ذلك فإن أحداً لم يطلب القصاص. وفي الإسكندرية أشعل الوثنيون واليهود النار في إحدى الكنائس - وهي تفوق كل ما عداها، ولم تقدم الكنيسة على الانتقام - ترى أيفعل معبد اليهود ذلك؟

"وهل سينتار أيضاً لإحراق معبد الفالنتينيين؟ Valentinians ما الحال فى معبد لا يمثل إلا تجمعاً للوثنيين؟ فعلى الرغم من أن الوثنيين يبتهلون إلى اثني عشر ربا، فإن الفالنتينيين يعبدون أثنتين وثلاثين دهرأ Aeons يدعونهم آلهة. ولقد عرفت أيضاً فيما يتعلق بهذا الأمر أن الأوامر قد صدرت بانزال العقوبة ببعض الرهبان، إذ بينما هم فى طريقهم للاحتفال بعيد المكابيين ينشدون المزامير كما جرت بذلك العادة منذ القدم، اعترضهم نفر من الفالنتينيين وأثاروا بوقاحتهم غضب هؤلاء الرهبان، فأقدموا على إحراق معابدهم التى بنيت على وجه السرعة فى بعض قرى المنطقة.

"وكم منهم كان عليه أن يقدم نفسه لمثل هذا الاختيار؟ إذا ما تذكر أنه على عهد الإمبراطور جوليان، الذى ألقى بالمدبح ودنس القربان، قد أدين وعانى الشهادة، على يد القاضى الذى لا يمكن أن تحسبه أكثر من ورع، ولم يظن أحد أنه جدير بالمودة. فإذا لم يكن قد مات.. أترك أيها الإمبراطور كنت آخذ بالثار منه، رغم أنه لن يهرب من انتقام السماء الأبدى؟

"ولقد قيل أن القاضى أمر بأن يطلع على حيثيات القضية، لا ليكتب عنها تقريراً بل ليقرر فيها العقوبة، وأن صناديق الذور التى نهبت يجب أن تعاد ثانية. ولسوف أتغاضى عن الموضوعات الأخرى، ولكن كنائسنا أحرقت بيد اليهود، ولم يعد شىء مرة أخرى، بل لم يطالب بعودته. وما الذى يمكن أن يمتلكه معبد لليهود فى مدينة قصية، إذا كان كل ما هناك ليس كثيراً، بل ولا قيمة له، ولا وفرة فيه؟ وما الذى يمكن أن يفقده اليهود الكائدون فى الحريق؟ إن هذا ولا شك بعض من خداع اليهود الذين يحيكون بنا المكائد، ذلك أنه بناء على شكواهم سوف تتواجد هناك قوة عسكرية كبيرة، وسوف يأتى قائد عسكري، (وقائد) ربما يردد ما قاله واحد من الناس قبل اعتلائك العرش أيها الإمبراطور "كيف يكون بمقدور المسيح مساعدتنا ونحن نحارب من أجل اليهود ضد المسيح الذى أرسل ليقتص من اليهود؟. لقد حطموا أسلحتكم وهم الآن يحاولون نفس الشىء معنا.

"إنهم بأى وشاية إذن سوف ينطلقون، إذ لم يتورعوا عن الوشاية حتى بالمسيح. إنهم لن يرجعوا عن أى نميعة، وكيف ذلك وهم الذين كذبوا على الله؟

ومن تراهم يتهمون بأنهم المحرضون على هذه الفتنة؟ من تراه لم يتعرض لقحتهم، حتى من بين أولئك الذين يعرفون أنهم ليسوا لذلك أهلاً؟ ألم يروا إلى هذه الأعداد التي لا حصر لها من المسيحيين على مختلف طبقاتهم في السلاسل يسحبون؟ وإلى رقاب المؤمنين الصادقين في الأسر قد أُنلت؟ وإلى رجالات الله وهم إما يتخبطون في الظلام، وإما قطعت رؤسهم، وإما ألقى بهم في النار، أو قذف بهم للعمل في المناجم؟ ولكم طال بهم العذاب؟

"أتراك تهدي هذا النصر على كنيسة الله إلى اليهود؟ أتراك أيها الإمبراطور تدشن هذا النصب الذي أقيم بمناسبة الانتصار على رعية المسيح؟ وتمنح هذه البهجة لأولاء الملحين؟ أليكون التهليل من نصيب معبد اليهود؟ وللكنيسة الغم والحزن؟ إن اليهود سوف يصفون هذه القداسة والمهابة على أعيادهم، وسوف يضعونها بلا شك بين انتصاراتهم على العموريين والكنعانيين، أو حتى خلاصهم من أيدي فرعون ملك مصر، أو نبوخذ نصر ملك بابل. إنهم سوف يجلون هذا ويذكرونها دائماً بالانتصار على شعب المسيح.

"وحيث أنهم هموا أنفسهم ينكرون التزامهم بالقوانين الرومانية ويعتبرونها شراً محضاً، فكيف يظنون الآن أنه من الواجب القصاص لما نزل بهم حسب هذه القوانين الرومانية؟ وأين كانت هذه القوانين عندما أقدموا هم على إضرار النيران حتى أسقف الكنائس المقدسة؟ وإذا لم يكن جوليان قد اقتصر للكنيسة باعتباره مرتداً، فهل تقتص أنت لما حل بمعبد اليهود باعتباره مسيحياً؟

"وما الذي سوف يقوله لك المسيح؟ ألا تذكر ما قاله الله على لسان نبيه ناثان إلى المقدس داود^(١٧). "من بين إخوتك اصطنعتك لنفسى ومن نسل رجل ممجد اخترتك إمبراطوراً، وعلى عرش الإمبراطورية أقمت ثمرة غرسك^(١٨). وأذلت لك جميع أمم البرابرة، وأنعمت عليك بالسلام، وقوضت جميع أعدائك من أمامك. ولم تكن لديك الحنطة التي تمون بها جيشك، ففتحت أمامك الأبواب، وصوامع الغلال

(١٧) (صموئيل الثاني ٨/٧ وما بعدها).

(١٨) يعنى ابنه أركادىوس.

الدولة .. والكنيسة

بأيدي أعدائك أنفسهم جعلتها طوع أمرك، فقدموا لك بذلك ما كانوا لأنفسهم قد اخترنوه، وحيرت مستشاري عدوك فجعلته بذلك مكشوقاً أمامك. وعرقلت خطط مغتصب^(١٩) العرش الإمبراطوري وأدخلت على عقله، إذ بينما توفرت لديه وسائل الهرب، فإنه خوفاً من أن ينضم بعض جنده إليك فارين، إلا أنه أغلق عليه. أما قائد القوات الأخرى^(٢٠) وقائدها، الذين بددت شملهم حتى لا تتحد قوتهم جميعاً ضدك، فقد جمعت شتاتهم ثانية حتى يكتمل نصرك. أما جيشك الذي جيشته من أمم عديدة لم يتيسر لك إخضاعها، فقد حفظت عليه إيمانه وهدوءه وألفت بين قلوب جنده حتى غدوا كما لو كانوا أبناء أمة واحدة، فلما لاح في الأفق تهديد جديد متمثل في إمكانية اختراق البرابرة، الذين تتطوى على الغدر نفوسهم، جبال الألب، خلعت عليك النصر عبر هذه السلسلة الجبلية الضخمة، حتى يتحقق لك النصر دون أية خسارة. وهكذا قدت خطوك إلى النصر على عدوك، رأيته تسلم هذا النصر لأعدائي على شعبي.

"ألم يكن من نتيجة هذا كله أن تم هجران ماكسيموس ونبذه، وهو الذي أقدم قبل أيام من الحملة، عندما ترامي إلى سمعه أن معبداً لليهود في روما قد تم إحراقه، على إرسال مرسوم إلى روما كما لو كان هو صاحب الأمر فيها، وحيث قال المسيحيون ساعتها، لا خير في الإبقاء عليه. لقد أصبح ذلك الملك إذن يهودياً وعلمنا أنه أضحي مدافعاً عن هذا الأمر، ولكن المسيح، الذي مات لأجل الخطاة، فإنه سرعان ما أدخله في تجربة. وإذا كان هذا قد حدث فقط لمجرد قول قيل، فما بالك إذا كان الأمر عقوبة واقعة؟ ولقد هزم أكثر من مرة من قبل على يد الفرنجة والسكسون في صقلية عند سيسكيا Siscia وبتافيو Petavio، وباختصار في كل مكان. ما الذي يجمع إذن بين المؤمن والكافر؟ إن الأمثلة الدالة على كفره يجب أن تطرح سوياً مع صاحبها نفسه. هذه الأمور التي جلبت الضرر لصاحبها وأوردته مورد التهلكة، لا يجب على المنتصر أن يحذو حذوها بل عليه أن يدينها.

(١٩) ماكسيموس.

(٢٠) يشير هنا إلى أسطول ماكسيموس الذي كان يقوده أندراجاثيوس Andragathius وأعد بناء على احتمال توقع مجيء ثيودوسيوس عن طريق البحر.

"ولتعلم يقينا أنى لا أعيد ذكر هذه الوقائع على مسامح إنسان جاحد ينكر المعروف، ولكنى أسردها باعتبارها نعماً وهبت بحق، منبها إياك بها، أنت يا من يحمل لك قلبى الحب كله. ولعلك تذكر أن سمعان عندما أجاب بمثل هذه الكلمات قال له الرب يسوع "بالصواب حكمت" (لوقا ٤٣/٧) ثم التفت على الفور إلى المرأة التى بللت قدميه بالدموع، وقال مخاطباً سمعان، واضعاً نظام الكنيسة: "من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، والذي يغفر له قليل يحب قليلاً" (لوقا ٤٧/٧) تلك هى المرأة التى دخلت بيت الفريسي، ونبذت اليهودى ولكنها كسبت المسيح. لقد أوصدت الكنيسة الباب فى وجه المعبد اليهودى، فلماذا تجرى المحاولات الآن فى شخص خادم المسيح كى يجتث المعبد الكنيسة من جذور إيمانها، من بيت المسيح؟

"أيها الإمبراطور.. لقد سقت كل هذه الأمور فى خطابى هذا بدافع الحب لك والغيرة عليك، ذلك أنى مدين بذلك لرحمتك (حيث أعدت - بناء - على شفاعتى - كثيرين من منقاهم، وأطلقت سراح العديدين من سجنهم، وأنجيت غير هؤلاء وأولئك من الموت)، بحيث لا يخيفنى حتى مهاجمة شعورك من أجل خلاص نفسك. (فليس هناك أجدر بالثقة كلها من إنسان يحب ملء قلبه.. وبكل تأكيد فإن أحداً لا يمكن أن يسبب الضرر لشخص يملأ عليه كل فكره) - ولن أفقد فى لحظة واحد ذلك الشرف الذى يمنح لكل كاهن وتلقيته لسنين عديدة مضت، لكن الخسارة كلها أن أعرض للدنس الخلاص.

"أيها الإمبراطور.. إنه لأمر جلل أن لا تعتقد أنه من الضرورى الاستفسار أو القصاص لأمر كهذا الذى حدث فى ذلك اليوم ولم يلفت نظر أحد، وإنك لتأتى أمراً إذا تضحى بخلاصك من أجل اليهود. ألم تقرأ أنه عندما أقدم جدعون (٢١). على ذبح الثور المقدس، خلص الوثنيون إلى أن الآلهة هى التى سوف تنتقم لما حل بها. فمن ذا الذى سوف يقتص لما حل بالمعبد اليهودى؟ أهو المسيح الذى صلبوه بعد أن أنكروه؟ أم هو الله الأب الذى رفضوه حيث رفضوا الإبن؟ ومن تراه سينتقم لما حل بالفالنتيين؟ فكيف يمكنك أنت إذن أن تتأثر لهم وأنت ترى أن المراسيم قد

الدولة .. والكنيسة

صدرت بطردهم وتحريم اجتماعاتهم؟ وهل إذا بسطت أمامك قصة يوشيا^(٢٢) كملك عمل المستقيم في عيني الرب، أترك تدين فيهم ما من أجله رضى الرب عنه؟

"وإذا كان هناك أى نوع من عدم الثقة فى، فلنأمر أيها الإمبراطور أولئك الأساقفة الذين تعتقد فى صلاحهم، ولتدعهم يتباحثون فيما يجب عمله دون إلحاق أى أذى بأمر العقيدة. وإذا ما كنت تستشير مرءوسيك فى الأمور الدينية، فمن الأحرى أن تأخذ برأى رجال الله فى أمر يخص العقيدة.

"ولتضع فى اعتبارك أيها الإمبراطور كم عانت الكنيسة من المتأمرين والعيون، وإذا كانوا قد أحدثوا بها شرخاً واهياً، إلا أنهم قد دقوا فيها إسفيناً. وإنى لأتحدث فقط فيما يخص سلوك الناس، ولكن الله فى النفس خشية تفوق الناس، وتعلو حتى الأباطرة. وإذا ما اعتقد أحد أنه من الصواب أن يوقر صديقاً له أو أحد أبويه أو جاره، فإن الصواب حليفى إذا حكمت بأن الوقار كله يجب أن يقدم لله، وأنه وحده له المجد. أيها الإمبراطور عد إلى نفسك فأعمل بنصحها أو اسمح لى بأن أكون لك ناصحاً.

"وماذا يكون قولى فيما بعد لو اتضح أن المسيحيين، بمقتضى السلطة التى منحت من هذا المكان، قد ذبحوا بالسيف، أو ضربوا بالهراوات، أو كبلوا بأساور من جلود شددت بالرصاص؟ وكيف يمكن أن أوضح مثل هذه الحقيقة وبأى أسلوب أعذر لأولاء الأساقفة الذين يذرفون الآن الدمع مدراراً، بعد أن قاموا بأعباء الوظائف الكهنوتية وغيرها من الخدمة الكنسية على امتداد نيف وثلاثين سنة، ثم جردوا من وظائفهم المقدسة وأكروهوا على القيام بأعمال مدنية^(٢٣) وإذا كان من يحاربون من أجلك يعملون لفترة محدودة فى خدمتك، فلا بد يبدو حتماً مقضياً أن تقدر أولاء الذين يحاربون فى سبيل الله. أقول، بأى أسلوب أعذر لأولئك الأساقفة الذين تتعالى شكاياتهم من أجل الأكليروس، ومن أجل الكنائس التى خربت من جراء ما تعرضت له من هجمات خطيرة تتكرر.

(٢٢) الملوك الثانى ١/٢٢ وما بعدها.

(٢٣) قارن ذلك بما جاء فى Ep. XVII.

"ولكم كنت أتمنى أن يبلغ كل ذاك مسامعكم، عندما كنتم ستتعطفون بالنظر إلى ذلك بعين الاعتبار، وتصدرون أوامركم بما يتفق ومشيتكم، منحياً ومستبعداً كل ما يؤرقنى.. أقول الحق.. يؤرقنى. لقد فعلت بنفسك ما أمرت به أن يفعل، حتى ولو لم يفعله نائبك، لا شك يفضل عندي أن تكون رحيماً من ذلك الذى لم يفعل ما به قد أمر.

"إن لديك من الواجب ما يدفعك إلى الابتهاال إلى الرب من أجلهم^(٢٤) لصالح الإمبراطورية الرومانية، وإنك لتؤمل لهم بأن يكونوا أسعد منك قدراً.. ألا فلتحل بهم رحمة الله، وليتحقق لهم الخلاص من خلال كلماتى. إن الخوف ليتملكنى خشية أن تأتمن الغير على قضيتك ليصدروا فيها حكمهم. كل شيء واضح أمامك لا لبس فيه ولا غموض، وإنى بهذا الخصوص أدع نفسى عند الله من أجلك رهينة، ولا تخشى يمينك^(٢٥). وهل من الممكن أن يغضب الله من أجل السعى لإعلاء مجده؟ إنك لا تحتاج إلى تغيير أى شيء فى تلك الرسالة سواء إذا كانت قد أرسلت أم لم ترسل بعد، وما عليك إلا أن تصدر أمراً آخر بالإيمان يمتلىء، وبالرحمة يمطر. فأنت من جانبك من الممكن أن تغير إلى الأفضل، ومن ناحيتى فلا يمكننى السكوت عن الحق.

"لقد عفوت عن الأنطاكيين من قبل عندما أساءوا إليك، ولقد استدعيت بنات عدوك وعهدت بتربيتهم إلى أحد المقربين، وأغدقت على أم عدوك من خزانتك الخاصة. يا لها من رحمة! يا له من إيمان بالله عظيم! ولكنه سوف يذهب إلى غيابة الظلماء بما أنت مقدم عليه الآن. أتوسل إليك يا من صارعت الأعداء، وأبقيت على خصومك كرامة، أن لا تعتقد بأن المسيحيين يجب أن يعاقبوا بمثل هذه الحماسة.

"وبعد .. أيها الإمبراطور، إنى أضرع إليك أن لا تزدرى حديث من يملكه الخوف لأجلك ولأجل نفسه، فها هو صوت أحد القديسين ينادى: "لماذا خلقت كى أرى شقاء شعبى"، ذلك لأنى بهذا أصنع الشر فى عينى الرب. الحق يقال، لقد

(٢٤) يقصد بذلك ولدى الإمبراطور ثيودوسيوس، أركاديوس وهونوريوس.

(٢٥) يعنى بهذا أنه من الممكن أن يكون الوفاء بالوعد مناقضاً للواجب.

فعلت كل ما يمكن فعله متناغماً وسمو قدرك، ولكن عليك إذن أن تصغى إلىّ في قصرك حتى لا تصغى إلىّ كارها في الكنيسة".

على هذا النحو جاءت رسالة الأسقف الميلاني إلى الإمبراطور الروماني، حادة عنيفة، تحذر ثيودوسيوس صراحة من تنفيذ ما أقدم عليه من إلزام رهبان وأسقف كاللينيكا بإعادة بناء كنيس اليهود وكنيسة الفالنتيين، ويبدو أن أمبروز عندما كتب هذه الرسالة لم يضع في اعتباره مطلقاً ما أشرنا إليه سابقاً من الظروف السياسية الصعبة التي كانت تحيط بالإمبراطورية في الشرق والغرب على السواء، وإنما جعل نصب عينيه فقط مسألة تدخل الدولة في أمور الكنيسة، بمعاقبة نفر من رهبانها وإكليروسها على عمل جرى ارتكابه ضد اليهود والفالنتيين، مسقطاً من حسابه كلية أن ما وقع هو مسألة تخص الإدارة المدنية وحدها في الدولة باعتبارها المسئولة عن إقرار الأمن في الداخل، ونسى أمبروز تماماً ما قام به هو من قبل باعتباره حاكماً مدنياً، عندما أسرع على الفور إلى كنيسة ميلانو ليحول دون وقوع الاضطراب والفوضى في المدينة على أثر موت أوكسنتيوس الأسقف الأريوسي. وكتب إلى الإمبراطور رسالة تفصح عن وجهة نظره إزاء العلاقة بين الدولة والكنيسة. استهلها بقوله: "... لطالما عانيت، ولكني مع ذلك لم أكن في يوم ما محزوناً كيومي هذا"^(٢٦).

ويدفع أمبروز في رسالته هذه ببطلان الدعوى، حيث يتهم النائب الإمبراطوري في الشرق بأنه "دج" تقريراً ضمنه إحراق المعبد اليهودي بتحريض من الأسقف في المدينة^(٢٧)، ويدافع عن الأسقف بأنه لا يمكن أن يكون قد أقدم على ذلك إلا بناء على أمور استثاره بها اليهود حتى دفعوه إلى ذلك^(٢٨) وهو بهذا العمل ليس آثماً لأنه ينفذ - في رأى أمبروز - إرادة الله^(٢٩) ويحمل أمبروز في رسالته على اليهود بعنف، ويتهمهم بالإلحاد وبأنهم أشد من الوثنيين كفراناً^(٣٠). ويشير إلى

AMB. Ep. XL 1. (٢٦)

Ibid 6-8. (٢٧)

Id. (٢٨)

Ibid. 8. (٢٩)

Ibid, 10. (٣٠)

قيام الأريوسيين باضرام النيران فى منزل نكتاريوس أسقف العاصمة فى نفس العام، وكيف أنهم لم يعاقبوا على ذلك^(٣١). وهو يلقى باللوم أيضاً على الفالنتيين ويعتبرهم السبب فى إثارة شعور الرهبان مما دفع هؤلاء إلى احراق كنيستهم^(٣٢). وبعد أن يعدد له ما فعله اليهود فى الكنيسة والمسيحيين من قبل، ويذكره بما جرى لماكسيموس خصمه قبل شهور قليلة^(٣٣). ويحذره من التماذى أو الإصرار على تنفيذ العقوبة، مخاطباً إياه: "وإذا ما كنت تستشير مرعوسيك فى الأمور المدنية، فمن الأحرى أن تأخذ برأى رجالات الله فى أمر يخص العقيدة"^(٣٤). ثم يفصح فى آخر فقرة فى الرسالة عن التهديد المباشر للإمبراطور بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضده، دون أن يشفع للإمبراطور كل ما قدمه من أجل المسيحية حتى جعلها الدين الرسمى للإمبراطورية، ويقول: "... عليك أن تصغى إلى فى قصرى، حتى لا تصغى إلى كارها فى الكنيسة"^(٣٥).

ولا شك أن ثيودوسيوس قد تملكه الذهول لهذا الذى يقرأ، ودار بخلاه ما قدمته للكنيسة يداه، بحيث جعلت للمسيحيين فى الدولة المكان العلى. ولا شك انتابه شعور بالقلق وهو يرى أسقف ميلانو يطلب إليه صراحة أن يتغاضى عن النظام العام للدولة من أجل الكنيسة، إذا يخاطبه صراحة: "... ربما يكون إقرار النظام هو دافعك أيها الإمبراطور.. ولكن خبرنى، أيها أعظم وأهم؟ إقرار النظام أم العقيدة"^(٣٦). وكانت تلك مشكلة ثيودوسيوس الرئيسية، وذلك أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بكل ما يتعلق بإقرار الأمور فى داخل الدولة، دافعه إلى ذلك رغبته فى مواجهة مشاكله الخارجية، وما أكثرها، بدولة منظمة مستقرة، فالفرس على الفرات يتحفزون، والجرمان فى البلقان وولايات الدانوب يعبثون، والحروب الأهلية فى الغرب قائمة، ومن ثم كان حريصاً على إقرار سيادة الحكومة فى الداخل، ومن هنا جاءت قراراته فى كثير من الأحيان سريعة وصارمة فى كل ما يشتم منه المساس

Ibid, 13. (٣١)

Ibid, 16. (٣٢)

Ibid. 15, 19, 21, 23. (٣٣)

Ibid. 27. (٣٤)

Ibid. 33. (٣٥)

AMB. Ep. XL 11. (٣٦)

بسلطان الدولة وهيبتها في الداخل. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك، أحداث أنطاكية، وفوضى كاللينيكا هذه التي نحن بصدها، ومنبحة سالونيك من بعد. ولهذا اتسمت قراراته في هذه الأحداث بالعنف ولكنها في الوقت ذاته مهدت السبيل أمام حكم هادئ ومستقر في النصف الشرقي من الإمبراطورية، فلم نجد مغتصباً واحداً للعرش طيلة عهده، على حين شهد الشطر الغربي إمبراطورين مدعين في أقل من عشر سنوات.

والحقيقة أن ثيودوسيوس كان يرفض التضحية بالعدالة، ويأبى على حد قول نورمان بينز N. Baynes أن تقدم العدالة قرباناً على مذبح الأرثوذكسية المتعصبة، ومع ذلك فإن هذا قد حدث في حالة واحدة فقط، حيث انتصر الإصرار العنيف للأسقف الميلاني أمبروز، وأعفى الرهبان المسيحيون الذين دمروا المعبد اليهودي في كاللينيكا من إعادة إصلاح ما أفسدوه، حسبما كانت تقضى أوامر الإمبراطور^(٣٧). لكن هذه الأوامر في حد ذاتها توضح مبادئه الأساسية التي كانت تحكم أسلوبه في الإدارة^(٣٨). ولعل ثيودوسيوس كان يضع في اعتباره عندما أقدم على إلغاء قراره السابق الخاص بهذه الحادثة، وإصدار عفوه عن الرهبان الآثمين، أن عرشه لا يعتمد على دعائم أسرية تعود إلى الأسرة الأصلية الحاكمة وهي أسرة فالنتينيان، التي كان الغرب مقراً لها، وأن شخصية فالنتينيان الثاني تتضاءل كلية إلى جانب شخصية أسقف ميلانو، وأن موقف هذا الإمبراطور الصبي في الغرب ما يزال مزعزحاً رغم القضاء على ماكسيموس. ولما كان ثيودوسيوس قد أصبح صهراً لفالنتينيان الثاني بزواجه مؤخراً من أخته، فقد كان يعنيه تماماً، أن تستقر الأمور في هذه الولايات الغربية، وهذه تتحقق إذا ما ضمن جانب أمبروز ووقوفه إلى جانب صهره هناك، وأكد له ذلك الجهود الدبلوماسية التي بذلها الأسقف الميلاني من أجل انقاذ عرش فالنتينيان والإبقاء على إيطاليا بمنجاة من غزو ماكسيموس خلال الفترة بين عامي ٣٨٤-٣٨٧، ولهذا فقد نزل على إرادة أمبروز.

ولم يمض على ذلك عامان، حتى دخلت العلاقة بين الدولة والكنيسة في تجربة أشد من سابقتها وأقسى، ويعود ذلك حسب رواية سوزومونوس إلى أنه عندما

AMB. Ep. XLI 25-28. (٣٧)

C. M. H. I. P. 248. (٣٨)

كان بوثرىك Buthericus قائداً عاماً لفيالق الليريا، ثبت لديه أن هناك علاقة دنسة جمعت بين أحد غلمانه الذى كان على قدر من الجمال، وواحد من سائقى عربات السباق فى الهيدروم فى سالونيك، فأصدر القائد أوامره بالقبض على هذا اللاعب وإيداعه السجن، فلما جرى السباق من بعد، ولم يعثر النظارة لأثر على ذلك اللاعب الذى كان مفضلاً لديهم أثيراً، ولما لم تكن الأخلاق تعنى شيئاً فى عرفهم إلى جوار إشباع لهوهم ومسراتهم، فقد طالبوا بالإفراج عن السجين العاشق، وازداد صخبهم برفض القائد الاستجابة إلى مطالبهم، ثم تحول الأمر إلى فتنة عارمة فى المدينة وصب المتمردون غضبهم على بوثرىك فذبحوه، وأشركوا معه فى نفس المصير موظفى الإمبراطور^(٣٩).

كان ثيودوسيوس ما يزال آنذاك (٣٩٠) مقيماً فى الغرب ولم يعد إلى القسطنطينية، وما أن أعلم بهذه الأنباء حتى استبد به الغضب وتملك عليه كل سبيل، ولما كانت هذه الفوضى تمثل اعتداء على هيئة الحكومة وسلطان الدولة، فقد أمر على الفور بإنزال عقاب صارم بالمدينة كلها دون استثناء، وحتى يتم تنفيذ الأوامر الإمبراطورية على الوجه الأكمل، دعى الناس لميقات يوم معلوم يلتقون فيه فى الهيدروم بدعوى مشاهدة بعض الألعاب، ولم يفتن الناس إلى ما يدبر لهم، إذ كان هوس مشاهدة العروض الرياضية يسيطر على الرومان بصفة عامة^(٤٠)، ومن ثم احتشدت المدينة فى الهيدروم، وصدرت الأوامر ببدا المذبحة، فجرت حمامات الدم "حيث حصدت سيوف الجند جموعاً حاشدة كحصاد سنابل القمح فوق سيقانها، وبلغ عدد القتلى على أقل تقدير سبعة آلاف بينهم كثير من الغرباء"^(٤١).

(٣٩) SOZOM, hist. eccl. VII 25; THEOD. hist eccl. V 17.

(٤٠) استغل بعض الأباطرة هذه الناحية لتنفيذ مآربهم على نحو ما جرى فى سالونيك، فقد أقدم الإمبراطور جوستينيان على اتخاذ نفس الإجراءات لعقاب أهالى القسطنطينية فى عام ٥٣٢ عندما حدثت الفتنة الشهيرة بثورة النصر (Vika (Nika (نيقا)، بسبب الصراع بين حربى الزرق والخضر الذى جرى فى الهيدروم وتحول إلى ثورة عامة، فوجهت الدعوة إلى أهالى المدينة لمشاهدة بعض العروض، وجرى لهم ما جرى من قبل على أهالى سالونيك.

(٤١) THEOD. HIST. eccl. V. 17; SOZOM. hist. eccl. VII 25.

كانت هذه الأوامر الإمبراطورية تتمشى مع السياسة العامة لثيودوسيوس فيما يتعلق بالشئون الداخلية، ولعل الإمبراطور كان يدرك فداحة الخطر المتمثل فيما أقدم عليه أهالي سالونيك، ذلك أن الحامية وقائدها بوثرليك كانوا من الجرمان، والاعتداء على قائد جرمانى على هذا النحو، لقاء لاعب فى الهيدروم، يشكل خطراً كبيراً كان الإمبراطور يتحاشى وقوعه، ألا وهو إثارة مشاعر الجرمان وعدائهم بعد المعاهدة التى وقعها معهم ثيودوسيوس قبل ذلك بسنوات قلائل. لقد كان الإمبراطور يعلم جيداً مدى قوة الجرمان ومدى اعتماده الكامل عليهم الآن فى جيشه، وكان هذا العمل معناه، أن يقدم الجرمان على إنزال "إدرنة" أخرى بالإمبراطورية لم تكن هذه لتتحملها الآن، ومعناه أيضاً الإطاحة بكل جهود ثيودوسيوس التى بذلها عبر أحد عشر عاماً عقب هزيمة إدرنة، للحصول على قدر من الولاء للإمبراطورية من جانب الشعوب الجرمانية، التى تنهال جحافلها داخل الحدود بصفة مستمرة منذ عام ٣٧٨، ولهذا فقد جاء قراره تهدئة لمشاعر الجرمان، أكثر منه قصاصاً من مثيرى الشغب، بالإضافة قطعاً إلى تأكيد هيبة الحكومة وسلطانها.

غير أن مذبحة سالونيك كانت فجيرة لنفس الأسقف الميلانى أمبروز، أدت إلى اعتقال فى صحته، ودفعته إلى الانسحاب من ميلانو ورفض مقابلة الإمبراطور عندما قدم إلى المدينة، وأعلن حرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة، حتى يقدم ثيودوسيوس ندامته وتوبته على ما اقترفت يده (٤٢). وكتب أمبروز رسالة إلى ثيودوسيوس يفصح له فيها عن السبب فى عدم لقائه (٤٣). وهو إن كان يثتنى فى رسالته على إيمان الإمبراطور ويمتدح رحمته (٤٤) إلا أنه يبين له أن فعلته هذه لن تغفرها الكنيسة إلا بتوبة صادقة، وإذا كان داود قد أصغى لنائثان، فلا بد أن يصغى هو إلى رجل الله (٤٥). ويدعوه إلى الإسراع فى طلب العفو والصفح من

(٤٢) يذكر سوزمنوس أن أمبروز لقي ثيودوسيوس عند باب الكنيسة عندما أتى إليها للصلاة، فأخذ بجامع عبايته الإمبراطورية، موجهها خطابه له أمام الجموع قائلاً: "عد أدراجك، فليس من حق رجل تدنسه الخطايا، وتلطخ يديه بالدماء، أن يدخل دون توبة هذا الحرم القدسى وأن يتناول الأسرار المقدسة: انظر: SOZOM. Hist. eccl VII, 25

AMB. E p LI (٤٣)

Ibid. 4 (٤٤)

Ibid. 7-9 (٤٥)

الكنيسة حتى لا يسمح "للشيطان" أن يَتملك عليه قلبه^(٤٦)، ويوصيه بالضراعة إلى الله بالصوات حتى يقضى الله في أمره ويغفر له خطايا^(٤٧). ويطلب إليه أن يضع ثقته فيه، لأنه رغم كل ذلك فإنه يحمل له كل الحب والتقدير، وإلا فإنه سيفوض فيه أمره إلى الله^(٤٨). ولكنه رغم كل ذلك فإنه في رسالته يخاطب الإمبراطور في جرأة بالغة عندما يقول له "لست إلا رجلاً استولت عليك الضلالة.. فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة"^(٤٩).

ونضع الآن بين يدي القارئ الرسالة التي بعث بها الأسقف إلى الإمبراطور عقب مذبحة سالونيك. وقد بدأها أمبروز بتقديم الأسباب التي أدت إلى عدم مقابلاته له عند عودته إلى ميلانو، ثم عرج على مشاعر الأساقفة فيما يتعلق بهذه المذبحة الحادثة في سالونيك، وأكد على العفو وتحقيق النصر على الشيطان المدبر الحقيقي لهذه الجريمة. ولم يستطع أمبروز أن يقدم القربان في حضرة الإمبراطور، ولما كان يحب الإمبراطور حقاً، فقد اغتم لهذا المسلك ولكنه كان يعلق على توبته الآمال. قال:

"إن ذكرى صداقتنا القديمة لتدخل السرور على قلبي، وإني لممتن كل الامتنان لرحمتكم التي - استجابة لندائتي الصريحة - أسبغتموها بكل الكرم على عبيدي، لذا يجب أن يكون معلوماً أن عدم استقبالي لك عند قدومك لم يكن نوعاً من نكران الجميل، خاصة وأنتم تعلمون مدى حرصى على لقاءكم دوماً من قبل، ولذا فإنى سوف أعرض عليكم الآن الأسباب التي دفعتنى إلى سلوك هذا السبيل.

"لقد اتضح لى جلياً أننى الوحيد الذى حرم حقه الطبيعى فى يسمعى بلاطك، وحرمت أيضاً مكانتى كمحدث، وما ذلك إلا لأنك اغتممت صراحة بسبب علمك بأن أموراً معينة طرحت فى مجلس مستشاريك قد بلغت تفصيلها، وإنى دون أى قدر من التعالى، حيث قال الرب يسوع : "لأنه ليس خفى لا يظهر" (لوقا ١٧/٨)،

Ibid. 11-12 (٤٦)

Ibid. 15 (٤٧)

Ibid. 17 (٤٨)

Ibid. 11 (٤٩)

وبكل التبجيل، امتثلت للإرادة الإمبراطورية وأخذت حذرى حتى لا أسبب لك أى ضيق، فسعيت جاهداً حتى لا يروى أمامى شىء من المراسيم الإمبراطورية، وإنى لن أسمع - حالة حضورى - من خلال خوف الآخرين، ومن ثم ألحق الضرر بمن يبتغى التستر، أو أسمح لأذى بأن تكون مصغية على أية صورة، وأمسكت عن النطق لسانى حتى لا ألقوه بما سمعت خشية أن ألحق الأذى وأعرض للتهلكة أولئك الذين هتكوا غشاوة الغدر والخيانة.

"وبعد - ما الذى بمقدورى أن أفعل ؟ هل أصم أذى؟ ولكنى لست بقادر على أن أصب فيها شمع تلك الأساطير، أم هل ينطق لسانى بما سمعته أذى؟ غير أنى ملزم بأن أكون حذراً فى حديثى عن تلك الأشياء التى أتقى فيها أوامرك، أعنى مخافتى من ارتكاب عدد من الفعال الدموية، أم هل التزم الصمت؟ ولكن ضميرى بهذا سوف يغدو موقفاً، وأقوالى مبعدة (خفيضة)، وعندها سوف تكون الأوضاع لكل فى منتهى سوءها. وأين إذن سوف يحدث هذا؟ وإذا لمن ينذر الكاهن الشرير، فذلك الشرير يموت بائمه، ويصبح الكاهن بذلك واقعاً تحت طائلة العقاب لأنه لم ينذر من غوائل الرديئة.

"أيها الإمبراطور العظيم.. إسمع.. لا يمكننى إنكار أن قلبك على الإيمان غيور، وأن عندك لله خشية، ولكنك فى الوقت ذاته ذو حمية، إذا ما جهد إنسان لإرضائك سرعان ما تغدو رحيماً، فإذا ما أغضبك إنسان، ثارت حميتك بحيث يتعذر عليك كبح جماحها، ومن ثم فإذا لم يكن هناك من يسترضيها، فلا أقل من عدم وجود من يؤججها. أما فيما يتعلق بك، فإنى عن طيب خاطر أضع ثقتى كلها، وأنت قادر على كبح جماح نفسك وعلى قهر سورة الغضب فيك بتقواك والورع.

"ومن المفضل أن تمتدح هذه الحمية لك شخصياً وبصفة سرية، عن إثارتها بأى عمل من جانبى فى العلن، ولئن يرانى الناس مقصراً بعض الشىء فى واجبى خير من أن يرونى مستذلاً فى تواضعى، ولئن يظنون بى ضعف التأثير فى كهانتى، أكرم من أن يجدون فى عوزاً للاحترام المبنى على المحبة. ولن يبدو قهرك لحميتك وغلبتك على سلطان قراراتك ضعفاً أو تخاذلاً، وإنى لأعتذر إليك بعلتى التى ثقلت على وطأتها، ولا أظن البرء منها بالأمر اليسير، ومع ذلك فإنى

أفضل الموت على أن لا أكون في انتظارك ليومين أو ثلاثة ، ولكن هذا لم يكن ممكناً بالنسبة لى.

"ولقد وقع فى مدينة سالونيك ما لم نسمع بمثله من قبل، لقد وقع ما لم أكن قادراً على منعه، ذلك الذى قلت أنه سوف يصبح أمراً عظيماً عندما رحت أتوسل مراراً من أجل العدول عنه، وهو ما أظهرته أنت نفسك بنقضه وإن كان ذلك قد جاء متأخراً جداً، فغدوت مغتماً حزيناً، ولم يكن باستطاعتي أن أخفف منه عندما وقع، وما أن سمع به، حتى التأم مجمع محلى بسبب وصول أساقفة الغال، ولم يبق هناك أحد لم تنهمر على الخد دموعه، ولا أظن أن هذا الفعل لم يصدر عن نزق وتهور، ولم تتجك صداقتك لأمبروز من أن يطوق عنقك بما أثمت يداك. والآن فإن توجيه اللوم على ما اقترفت، قد وضع على كاهلى أثقالى، ولم يقل أحد إن عودتك إلى الله لم تكن ضرورية.

"هل تخجل أيها الإمبراطور من أن تفعل ما فعله النبى الملك داود جد المسيح فى الناسوت؟ لقد قيل له كيف أن الرجل الغنى الذى له غنم وبقر كثيرة جداً "قد أخذ نعجة الرجل الفقير وذبها" ليهي للضيف الذى جاء إليه، وقد اعترف بنفسه أنه أدين فى هذه القصة، لأنه هو نفسه قد فعل، وقال: "قد أخطأت إلى الرب" (٥٠). فإذا ما رددت ثانية كلمات النبى الملك وهو يقول: "هلم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا" (مزامير ٦/٩٥)، فسوف يقال لك: "الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك لا تموت" (صموئيل الثانى ١٢/١٣).

"ومرة ثانية، عندما أمر داود بإجراء تعداد للشعب، "ضرب قلبه" وراح يخاطب الرب: "لقد أخطأت جداً فيما فعلت، والآن يا رب أزل اثم عبدك لأنى اتحمقت جداً" (صموئيل الثانى ١٠/٢٤)، وأرسل إليه النبى ناثان مرة أخرى ليخبره بين أمور ثلاثة: فإما أن يأتى عليه ثلاث (٥١) سنة جوع فى أرضه، وإما أن يهرب

(٥٠) صموئيل الثانى ١٢/١٣. وراجع القصة فى السفر نفسه والاصحاح نفسه. الآيات من ١-١٥.
(٥١) يذكر الكتاب المقدس أنها سبع سنوات: "... وقال له أتأتى عليك سبع سنة جوع فى أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك" (صموئيل الثانى ١٣/٢٤).

الدولة .. والكنيسة

ثلاثة أشهر أمام أعدائه وهم يتبعون، وإما يكون ثلاثة أيام وباء في الأرض. فقال داود: "قد ضاق بى الأمر جداً، فلنسقط فى يد الرب لأن مراحمه كثيرة ولا أسقط فى يد إنسان" (صموئيل الثانى ١٤/٢٤) كل هذا لأن خطأ داود كان فقط رغبته فى معرفة عدد كل الشعب الذى معه، وهى المعرفة التى يجب أن تترك لله وحده^(٥٢).

"ويخبرنا الكتاب المقدس أيضاً أنه عندما راح الوباء يحصد الشعب من الصباح إلى الميعاد، ورأى داود الملاك يبسط يده ليهلك الشعب، قال: "ها أنا أخطأت وأنا أنذبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا، فلتكن يدك على وعلى بيت أبى". (صموئيل الثانى ١٧/٢٤). وقد ندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك للشعب كفى، وأمر داود أن يقرب محرقات، ذلك أن الأضحيات كانت تقرب تطهيراً من الخطايا أما الآن فهى تقدم من أجل التوبة، وهكذا غداً داود بهذا الاتضاع أكثر قبولاً عند الله وقرباً، لأنه ليس مما يثير الدهشة أن يخطئ الإنسان، ولكنه يصبح مستحقاً للزجر والتعنيف إذا لم يعترف بخطيئته، ويخر ذليلاً أمام الله.

"وأيوب المقدس نفسه كان قوياً فى هذا العالم حين قال: "أنا لا أخفى إثمي فى حضنتي، بل أمام جمهور غفير أعلنه"^(٥٣). على حين راح يونانان يخاطب أباه المتجبر شاول الملك: "لا يخطيء الملك إلى عبده داود" (صموئيل الأول ٤/١٩) وأضاف: "فلماذا تخطيء بدم برىء بقتل داود بلا سبب" (صموئيل الأول ٥/١٩). لأنه وإن كان ملكاً إلا أنه سوف يغدو آثماً لو أنه قتل بريئاً، داود أيضاً عندما كان ملكاً وعلم أن أبنير البرىء قد قتل على يد يوباب قائد داود، قال: "انى برىء أنا ومملكتي لدى الرب إلى الأبد من دم أبنير بن نير". (صموئيل الثانى ٢٨/٣). وصام حزنا.

(٥٢) يذكر الكتب المقدس أن داود أقدم على ذلك بتوجيه من الله: "وعاد فحمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً أمض واحص إسرائيل ويهوذا. فقال الملك ليوباب رئيس الجيش الذى عنده ظف فى جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع وعدوا الشعب فأعلم عدد الشعب".

(٥٣) "إن كنت قد كتمت كالناس ننبى لإخفاء إثمي فى حضنتي إذ رهبت جمهوراً غفيراً وروعتنى إهانة العشائر فكففت ولم أخرج من الباب- من لى بمن يسمعنى، هو ذا امضائى، ليحببنى القدير" (أيوب ٣١/٣٣-٣٥).

"ولتعلم أنى لم أكتب هذا كي يختلط عليك الأمر فتبدو حائراً، ولكنى سقت هذه الأمثلة عن هؤلاء الملوك حتى تحفزك لتتنفض الرأس، عن مملكتك أدران هذا الاثم، باتيانك إلى الله خاضعاً خفيض الرأس، فلست إلا رجلاً استولت عليك الضلالة فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة. وليس الملاك بقادر على أن يفعل ، ولا رئيس الملائكة. الله وحده هو القادر على أن يقول: "ها أنا معكم" (متى/٢٠) كلنا خطاءون وخيرنا التوابون.

"إنى أستحث، أتوسل، أحذر، أنذر، لأنه من الصعب على نفسى، وقد كنت أنت مضرب الأمثال فى التقوى ومعقد الآمال فى الرحمة، كيف لا يذرف الدمع انتحاباً من أجل عديدين ذبحوا، ذلك الذى لم يكن يرضى بأن يعانى العقاب من اثمٍ ورغم أنك خضت الحرب بكل نجاح، ورغم أنك بالثناء فى أمور أخرى جدير، فإن الرحمة كانت دائماً التاج الذى يزين أعمالك. لقد حسد عليك الشيطان أعز ما كنت تملك، ألا فلتقهره ما دمت لا زلت تمتلك ما أنت به قادر على قهره. لا تضيف إلى ذنبك إثماً آخر بالإقدام على عمل يوقع بالكثيرين الضرار.

"والحقيقة، فعلى الرغم من أنى مدين لرحمتك بشكل لا يمكن إنكاره، تلك الرحمة التى فاقت ما كان عليه كثير من الأباطرة، ولم يتساو فيها إلا واحد فقط، رغم كل ذلك أقول إنه ليس هناك ما يدعونى لاتهامك بالعصيان، بل إن لدى فقط ما يدعونى إلى الخوف، ذلك أنه لا يمكننى أن أتجاسر بتقديم القربان إذا ما كنت قد عزمت على الحضور إلى الكنيسة. وهل يمكن أن يسمح بهذا بعد إهراق دماء الكثيرين، بينما لم يسمح به بعد قتل رجل واحد برىء؟ لا أعتقد.

"وأخيراً فقد خططت بيدي ما يجب أن تطالعه أنت وحدك، وكلى أمل فى أن يرفع الله عنى كل ما أعانى، لقد حذرت، لا عن طريق إنسان أو من خلاله، ولكن بالله وحده بكل وضوح بما يعز على ذلك أنى بينما كنت فى قلقى إيان تلك الليلة التى كنت أستعد فيها للسفر، تبديت لى فى منامى آت إلى الكنيسة، وعندها لم يسمح لى بتقديم القربان. وإنى لأتغاضى هنا عما يمكننى تجنبه، واحتمله من أجل محبتى لك.. هذا ما اعتقده.

وقد يهين الرب الأسباب ليمر كل شيء فى سلام، وإن الله ليضع أمامنا المحاذير فى صور مختلفة، بأدلة سماوية، بوصايا الأنبياء، حتى برؤى الخطاة حيث قضت مشيئته أن نتدبر، كي نضرع إليه أن يدفع عنا كل نازلة، وأن يحفظ السلام من أجلك، ومن أجل إيمان الكنيسة وسلامها، ومن أجل أن يبقى لها بهاؤها بأباطرة مسيحيين أتقياء.

"ولا ريب فى أن الرغبة تحذوك فى أن يصفح الله عنك، ولكن مكتوب "لكل شيء زمان" (الجامعة ١/٣). ومكتوب أيضاً: "إنه وقت عمل للرب" (مزامير ١١٩/١٢٦). وكذلك: "فى وقت رضى يا الله" (مزامير ١٣/٦٩). ومن ثم فإن عليك أن تقرب تقدمتك عندما يسمح لك بذلك، عندما تتقبل من الله. أليس مما يدخل السرور على قلبى أن أنا بحظوة الإمبراطور، وأن أتصرف كما يهوى، إذا ما كان الأمر يسمح بهذا. والصلاة فى حد ذاتها نوع من القربان يجلب العفو والمغفرة، عندما يكون القربان مجلبة للغضب، فالأول دليل الخضوع والمذلة، والثانى علامة الخزي، ولأن كلمة الله نفسه أجبرنا أنه يفضل الاستمساك بتعاليمه على تقديم القربان. ولقد أوصى الله بهذا، وأعلنه موسى لقومه، وكرز به بولس بين الأمميين. ولعل هذا الذى فهمته يكون أعظم نفعاً لهذا الزمان، مكتوب "أنى أريد رحمة لا ذبيحة" (متى ١٣/٩). وبعد، أليس المسيحيون الذين يدينون خطاياهم أقرب إلى الحق من أولاء الذين يفكرون فى التوارى بها "الأول فى دعواه محق" (أمثال ١٨/١٧). فالعادل من يدين نفسه عندما يخطئ، وليس الذى يمتدحها.

"أيها الإمبراطور.. إنى لآمل أن تكون تقى فى نفسى أكثر منها فى سجياك، وعندما أضع ذلك فى اعتبارى تماماً، عليك أن تسرع الخطى لطلب العفو، وأن تنقض على الفور قرارك، كما كنت تفعل دائماً. لقد أسلفت، أما أنا فلم أعرض عن شيء كنت أخشاه. الحمد لله وحده، الذى شاء أن يبتلى عباده حتى لا تفسد حالهم، وأنا فى هذا رفيق الأنبياء، وسوف تكون أنت به أيضاً إلى جوار القديسين.

"أترانى لن أجل قدر أب جراتيان أكثر مما تبصره عيناي؟ أن عهودك المقدسة الأخرى تطلب الصفح. لقد أضفيت من جانبي قبلاً صيتاً ذائعاً على كل من يحمل الحب لهم قلبى. ولقد تابعتك بحبى، وودادى، وصلواتى، فإن كنت مصدق

فعليك أن تتبع رشدى، أما إن لم تكن على ثقة من قولى، فمعذرة عما فعلت، وأفوض فيك إلى الله أمرى، ولعلك أيها الإمبراطور العظيم من خلال ذريتك المطهرة، تقيم السلام الدائم والسعادة والرخاء".

على هذا النحو جاءت رسالة أمبروز، شديدة اللهجة، وإذا كان أمبروز يصف ثيودوسيوس بأنه رغم تقواه إلا أنه رجل فيه حمية، فإن أمبروز نفسه كان ينطوى على حدة طبع. ويبدو أن البلاط الإمبراطورى كان قد بدأ يضيق ذرعاً بتدخل أمبروز فى كثير من الأمور التى تخص الدولة، ومن ثم فقد راح يحاول التقليل من هذا النفوذ داخل البلاط، خاصة بعد حادثة كالينيكيا، وأمبروز نفسه يشير إلى هذه الحقيقة فى صدر رسالته ويعزوها إلى الإمبراطور نفسه، ويقول إنه لم يعد يحظى بالثقة الكاملة من جانب ثيودوسيوس. ولا يخفى علينا أن موقف أمبروز من أحداث كالينيكيا كان له أثره الكبير فيما يشير إليه الآن الأسقف فى رسالته، غير أن استجابة الإمبراطور لرأى أمبروز عام ٣٨٨ قادت إلى تشدد الأسقف إزاء أحداث سالونيك، فهو لم يكتف بالتهديد بالحرمان من رحمة الكنيسة، بل أصدر فعلاً هذا القرار.

لكن نفس ثيودوسيوس، بالإضافة إلى كل ما سبق أن ذكرناه عن الظروف السياسية فى الغرب، كانت تتطوى على قدر كبير من الإيمان والتقوى، وفى الوقت نفسه شجاعة كاملة ونادرة، فلم يستبد به الغضب لما احتوته هذه الرسالة، بل تآقت نفسه إلى التوبة والندامة^(٥٤)، فخلع عن جسده رداءه الإمبراطورى، نعى العباءة الأرجوانية، وترك أشعرته، وسار وسط الجموع المحتشدة على طول الطريق فى ميلانو من القصر الإمبراطورى إلى مقر الكنيسة، حافى القدمين، عارى الرأس مطأطئها، يردد صرخات داود بالتوبة^(٥٥)، ومع ذلك لم يسمح له أمبروز بدخول القاعة المخصصة للأكليروس ساعة التناول، وأمره أن يقف وسط الجموع وشأنها، وخاطبه قائلاً "إن العباءة الإمبراطورية يمكن أن تصنع الأباطرة، لكنها لا ترسم الكهنة!"^{١١} وقد تقبل الإمبراطور ذلك بنفس راضية، وأعلن أمبروز الصبح عن ثيودورسيوس، ورفع عنه قرار الحرم الكنسى، وقبل توبته^(٥٦). ويبدى المؤرخ

C.M.H.I p, 245 (٥٤)

THEOD. Hist. eccl. V 17 (٥٥) وراجع ، مزامير ٢٥/١١٩.

THEOD. hist. eccl. V 17. (٥٦)

الدولة .. والكنيسة

الكننسى ثيودوريتوس إعجابه بالرجلين، الإمبراطور لإيمانه القوى وشجاعته، والأسقف لجرأته وحفاظه على قدر الكنيسة، ويضيف أن ثيودوسيوس أبدى احترامه وتقديره صراحة لأمبروز أمام نكتاريوس أسقف القسطنطينية بقوله : لقد تعلمت منه الكثير، إنه الوحيد الذى يستحق لقب الأسقف^(٥٧).

هنا يجب أن نتوقف قليلاً لأن ما حدث فى ميلانو يعد نقطة فاصلة فى تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، فلم يكن قد مضى على الاعتراف بالمسيحية كديانة شرعية Religio Licita فقط لها حق الوجود إلى جوار اليهودية وتحت مظلة الوثنية، الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية، إلا ثلاثة أرباع القرن فقط (٣١٣-٣٩٠)، ولم تقدم الدولة على الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية إلا خلال هذه السنوات الأخيرة من حياة وعهد الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه، وعلى وجه التحديد منذ مجمع القسطنطينية المسكونى الذى عقد فى عام ٣٨١، أى أقل من عشر سنوات. حقيقة أن الأباطرة بدءاً بأبناء قسطنطين الثلاثة وحتى ثيودوسيوس كانوا على المسيحية باستثناء الإمبراطور جوليان، ومن ثم ظلت من وجهة النظر الطبيعية "مسيحية حكومية"، حتى إذا كان عهد ثيودوسيوس تبدلت الحال غير الحال، وراح المسيحيون يسقون الوثنيين كنوس الهوان عدة قرون تالية.

ورغم حذب الأباطرة "المسيحيين" هؤلاء على الكنيسة إلا أن أحداً من أساقفتها لم يجرؤ على أن يرفع الرأس معارضا سلطان الدولة، خاصة فيما يتعلق بالأمور المدنية التى تتعلق بالأمن العام داخل حدود الإمبراطورية، ولم يكن عناد أثناسيوس السكندرى وتحديه للسلطان الرومانى إلا دفاعاً عن العقيدة التى آمن بها وهو وشعب الكنيسة فى الإسكندرية، وما أتفق عليه الأساقفة فى المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥.

والغريب فى الأمر أن يأتى هذا التحدى من جانب أسقف ميلانو .. وليس من البابوية، لكن الغرابة سرعان ما تزول إذا ما استدعينا ما ذكرناه آنفاً عن خلو

(٥٧) THEOD. Loc. Cit وراجع أيضاً:

Chadwick, op. cit p. 168; Stephenson, op. cit. pp. 79, 252; Bainton, early Christianity, p. 76; Downey, op. cit. pp. 68-69.

العرش البابوي آنذاك من الشخصيات الاكليروسية القوية، وعدم وجود منافس آخر لميلانو في الغرب، بالإضافة إلى الشخصية القوية التي كان يتمتع بها أمبروز نفسه.

وعلى أية حال .. فإن ما حدث في ميلانو من "إذلال" للإمبراطورية في شخص إمبراطورها على يد الكنيسة، كان يعد سابقة خطيرة وبعيدة في هذه الرحلة الطويلة في العلاقة بين البابوية والإمبراطورية في العصور الوسطى في الغرب الأوروبي، أما بالنسبة للقسطنطينية فقد كانت الاستثناء الوحيد الذي شهدته الإمبراطورية البيزنطية على امتداد عمرها الطويل حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت عاملاً أساسياً في سعي الأباطرة البيزنطيين جميعهم لتدعيم نفوذهم فوق الكنيسة حتى غدت طيلة ألف ومائة من السنين دائرة من دوائر الحكومية البيزنطية، وبات أسقف العاصمة موظفاً كبيراً لدى الإمبراطور، بينما أضحي هذا الإمبراطور هو نائب المسيح Vicarius Christi على الأرض.

هكذا وللمرة الأولى، حققت الكنيسة أول نصر لها على الدولة، لقد ظلت عدة قرون تخشى بأس الوثنيين، ثم لقيت العنت أشد وأقسى من جانب الأباطرة المسيحيين. لقد خضعت كارهة تظهر الرضى لقسطنطين، ولم تلبث أن أخذت تتملل تحت سيادة ولده قسطنطيوس، حتى إذا وائتها الفرصة الأولى على عهد أسقفها أمبروز، أذلت كبرياء الدولة، التي قدمت من قبل يدها لانتشالها بجهود هؤلاء الأباطرة جميعاً وخاصة ثيودوسيوس، في شخص هذا الأخير. حقيقة أن ثيودوسيوس أقدم على ذلك عن طيب خاطر واقتناع بأنه وإن كان إمبراطوراً، إلا أنه يعتبر أيضاً واحداً من رعايا الكنيسة، وهذا هو ما أثبتته له أمبروز عندما طلب إليه أن يقف وسط الجموع ساعة التناول وقد جاء تائباً، لكن هذا الرضوخ من جانب الإمبراطور فتح الباب على مصراعيه من بعد لصراع طويل، ظل قائماً حتى القرن الثالث عشر بين الدولة والكنيسة في الغرب، وأصبح قرار الحرمان الكنسي سلاحاً تشهره الكنيسة في وجه كل من تسول له نفسه الخروج عن طاعتها أو إعمال فكره فيما تفترضه الكنيسة. وكان إذلال ميلانو الذي جرى على هذا النحو، إرهاباً جديراً بالاعتبار - كما يقول Rand - لما سيحدث بعد ذلك من

إذلال للإمبراطور في كانوسا عام ١٠٧٧^(٥٨). وإن كان من الأهمية بمكان أن نضيف إلى هذا القول، أنه بينما أقدم ثيودوسيوس على ذلك بدافع من إيمان، لم يقبل هنري الرابع ذلك من بعد إلا لدوافع سياسية بحتة، وبينما كان أمبروز صادقاً في موقفه مع ثيودوسيوس، سرعان ما عدل جريجورى السابع عن قرار عفو، وأعاد إنزال الحرمان واللعنة بهنرى من جديد لدوافع تسلطية.

لقد كان أمبور يؤمن يقيناً بعلو السلطة الروحية، وكان ثيودوسيوس أيضاً يؤمن تماماً بسمو السيادة الزمنية، امتداداً تقليدياً وطبيعياً لما كان عليه الفكر السياسى الرومانى، ولذا كان ضرورياً أن يقع بين الرجلين الصدام، ولكن هذا أمكن تجنبه بحصافة ثيودوسيوس، وبتقدير الرجلين كل منهما للآخر. وإذا كانت الكنيسة قد كسبت أولى جولات الصراع الطويل، فإنها راحت منذ الآن تسير الطريق حتى منتهاه. لكن هذه الحادثة أو بتعبير آخر، هذا "الإذلال" الذى حدث للدولة فى ميلانو، كان دافعاً قوياً لأباطرة القسطنطينية كي يزيّدوا من قبضتهم على الكنيسة وأن يحققوا سيادتهم الكاملة عليها، لتغدو إحدى دوائر الإمبراطورية. وهذا واضح فى سياسة جوستينيان (٥٢٧-٥٦٥) تجاه الكنيسة، إذ حرص فى متجدداته دائماً على أن يحقق دون أدنى شك مبادئ القيصرية البابوية التى وضع قواعدها قسطنطين، حتى إذا جاء ليو الثالث الأيزورى إمبراطوراً (٧١٧-٧٤١) كانت هذه المسألة قد رسخت بصورة كاملة، فقد كتب إلى البابا جريجورى الثانى (٧١٥-٧٣١) يقول له واصفاً نفسه بأنه (إمبراطور وقس)، أما فى الغرب فكان الأمر على غير هذا تماماً، منذ سار أمبروز أولى خطوات الطريق بلوغاً إلى السيادة.

(٥٨) Founders of the Middle Ages, p. 77 وقد جرى هذا الإذلال نتيجة للصراع السافر بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع، مستتراً خلف مشكلة التقليد العلمانى، بينما جوهره النزاع على السيادة العالمية بين القوة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية والقوة الروحية متجسدة فى الكنيسة، وقد أصدر البابا قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور، الذى سعى إلى البابا ليرفع عنه هذا القرار. واحتتمى البابا بقلعة كانوسا فى تسكانيا عند حليفته الكونتيسة ماتيلدا وكان الإمبراطور متجرباً - شأن ثيودوسيوس من أرديته الإمبراطورية، غير أن جريجورى أوصد باب القلعة فى وجه هنرى ثلاث ليال، ثم سمح له بالدخول حيث راح يقبل قدم البابا ويغسلها بدموعه، حتى رفع البابا قرار عنه الحرمان. وعرفت هذه الحادثة بإذلال كانوسا. ولمزيد من التفاصيل راجع للمؤلف، الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى.

وقد جمع أمبروز خلاصة فكره حول العلاقة بين الدولة والكنيسة في عبارات واضحة قاطعة، وذلك في رسالة بعث بها إلى أخته في أحد أعياد الفصح^(٥٩). وضمنها كل آرائه حول هذا الأمر.. قال:

".. إن الإمبراطور لا سلطان له على الكنيسة لأنها لله وحد".

".. هل تسلمتم حقوق الرومان حتى تجعلوا من أنفسكم معكرين لصفو السلام العام؟ ولو دمرت كل هذه الأشياء فأين تذهبون؟".

"... ليس من حق أن أسلمها، وليس من صالحك أيها الإمبراطور تسلمها. إنك لا تستطيع دون حق انتهاك حرمة بيت أى إنسان. فهل تظن أن بيت الله يمكن استلابه؟". "أيها الإمبراطور .. لا تحمل على كتفك أثقال مثل هذا الظن بأن لك سلطاناً إمبراطورياً على تلك الأشياء التى تخص الله وحده.. لا تركزى نفسك.. فإذا أردت عهداً طويلاً، فلتخضع لله نفسك لأنه مكتوب: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (متى ٢٢/٢١)، الفصور للإمبراطور وللأسقف الكنائس. لقد خولت السيادة فقط على المرافق العامة، لا على الأبنية المقدسة".

ويذكر الآراء نفسها مؤكداً عليها فى إحدى عظاته ضد الأسقف الأريوسى أوكسنتيوس^(٦٠)، يقول: "... نحن نعطي ما لقيصر لقيصر، فليكن ما لله لله، الجزية لقيصر، لا ننكر ذلك، والكنيسة لله، ومن ثم فلا تخضع لقيصر، لأن بيت الله لا يمكن أن يكون من حق القيصر".

"... هل هناك احترام أكثر من أن يدعى الإمبراطور ابن الكنيسة ، إن الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها".

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الأسقف الميلائى أن يستصدر من ثيودوسيوس مرسوماً يقضى بعدم تنفيذ أوامر الإمبراطور التى تتضمن عقوبة الإعدام، إلا بعد ثلاثين يوماً من صدورها^(٦١). وكان الهدف من ذلك واضحاً وهو

(٥٩) SOZOM. hist, eccl. VII 25; THEOD. hist. eccl. V 17.

(٦٠) AMB. Ep XX.

(٦١) AMB. Sermo contra Auxentium

إعطاء الفرصة للإمبراطور كي يتدبر الأمر ثانية قبل أن تحقيق بمن يعينهم العقوبة، وإن كان هذا المرسوم لم يدخل حيز التنفيذ.

أمضى ثيودوسيوس بقية العام وأوائل العام التالي (٣٩١) في الغرب، ثم عاد إلى القسطنطينية عن طريق سالونيك، وفي الوقت ذاته كان فالنتينيان الثاني قد غادر ميلانو إلى الغرب، ليصل إلى غالة في خريف هذا العام. وكان قد انقضى ثلاث سنوات منذ تمكن ثيودوسيوس من الانتصار على ماكسيموس، تركزت السلطة في غالة خلالها في يد القائد الجرمانى الفرنجى أربوجاست الذى عهد إليه ثيودوسيوس بقيادة القوات الإمبراطورية في الغرب، ويصفه سقراط بأنه شخصية متعجرفة متسلطة يتطلع إلى اغتصاب العرش^(١٢). إلا أنه تمكن من كسب ولاء جنده بما كان يقدقه عليهم من المنح والعطايا، وزاد في نفوذه وتعلق الجنود به، عدم وجود الإمبراطور فالنتينيان هناك، وبقاؤه في ميلانو بعيداً في معية إمبراطور الشرق ثيودوسيوس. وقد أدى هذا أيضاً إلى أن تصبح إرادة أربوجاست في الغرب هي القانون، وأن يوجه ولاءه فقط إلى ثيودوسيوس الذى عهد إليه بالقيادة^(١٣). فلما قدم فالنتينيان الثاني مؤخراً إلى غالة، لم يجد له بين الجنود أى نفوذ، بل أصبح سجيناً في قصره، وفشلت محاولته التى أقدم عليها للتخلص من أربوجاست بعزله، ولم يؤد ذلك إلى إلى التعجيل بما كانت تتوق إليه نفس القائد الجرمانى، إذ لم يلبث أن أذاع في الناس نبأ اغتيال فالنتينيان الثانى، وكان في العام التالى (٣٩٢) لوصوله إلى غالة^(١٤).

ولما لم يكن من السهل على الرومان تقبل إمبراطور جرمانى، كما أن التنافس الجرمانى والحد كان يحولان أيضاً دون ذلك، فقد أصبح صعباً على أربوجاست أن يعلن من نفسه إمبراطوراً خلفاً لفالنتينيان، ولذا لم يجد بداً من اختيار أحد الرومان ويدعى يوجنيوس، وهو فيلسوف عمل استاذاً للبيان في أول الأمر، ثم شغل بعد ذلك منصب السكرتير الأول في خدمة الإمبراطور^(١٥). وكان من

SOCRAT. Hist. Eccl. V 23. (١٢)

C. M. H. U p. 254. (١٣)

SOCRAT. hist. eccl. V. 25; RVFIN. hist. eccl. II 31-32. (١٤)

SOCRAT. Loc. Cit. (١٥)

الطبيعى أن تدور المراسلات بين بلاط غالة وبلاط القسطنطينية حول الاعتراف بثيودوسيوس وأركاديوس أباطرة شركاء فى محاولة من جانبه وأربوجاست لكسب ود بلاط القسطنطينية.

غير أن هذه المراسلات بين الجانبين لم يكن يقصد بها فقط إلا كسب الوقت عند كل من الطرفين، ذلك أن ثيودوسيوس لم يكن راضياً عن هذه الأحداث، وهكذا جذبه وقائع النصف الغربى إليها مرة أخرى ولم يمض على عودته إلى القسطنطينية أكثر من عامين، فأعلن ابنه الثانى هونوريوس أوغسطس فى ١٠ يناير ٣٩٣، ثم أعد قواته ليتجه بها ناحية الغرب. وفى نهاية مايو ٣٩٤ ارتحل عن القسطنطينية مخلفاً وراءه ولديه أركاديوس وهونوريوس، وأعلن كثير من القوط تطوعهم للخدمة فى الجيش، وعين الإمبراطور تيماسيوس Timasius قائداً عاماً يعاونه ستيليكو Stilicho^(٦٦). بينما اعتمد أربوجاست ويوجنيوس على أعداد كبيرة من الفرنجة والألماني، وعند نهر فريجيدوس Frigidus فى منطقة تبعد حوالى ستة وثلاثين ميلاً عن أكويلى، دارت رحى المعركة الفاصلة بين الجانبين، وخسر ثيودوسيوس الجولة الأولى، حيث فقد عشرة آلاف قوطى حياتهم ومعهم قائدهم باكوريوس Bacurius ويعلق سقراط على ذلك بذكاء ولماحية تشير إلى الفارق الكبير فى الناحية الفنية العسكرية التى كان عليها الرومان والقوط، حين يذكر: "إنه فى حالة تصارع القوات الرومانية مع بعضها البعض، فإن نتيجة الصراع يكون مشكوكاً فيها، أما عندما شاركت القوات الجرمانية المساعدة فى جيش ثيودوسيوس فإن النصر كان لابد أن يصبح حليف يوجنيوس، ومن ثم التجأ الإمبراطور إلى السماء يدعوها أن تكون بجانبه"^(٦٧).

وفى اليوم التالى، السادس من سبتمبر ٣٩٤، تقدم أربوجاست قواته، وراح يسخر من الإمبراطور معلناً أن إلهه سوف يخله بينما ستنتصره أربابه. وكان ثيودوسيوس يدرك تماماً النتائج التى سوف تترتب على انتصار أربوجاست فى هذه المعركة، إذ أنها سوف تصبح إدانة أخرى، وسوف يعبث الجرمان بالإمبراطورية

(٦٦) انظر Id (وأيضاً) SOZOM. Loc. Cit.

(٦٧) SOCRAT. Hist. Eccl. V 25.

الآن كيف شاءوا ودون رادع، ومن ثم أعاد من جديد تنظيم صفوف قواته. غير أن الأقدار كانت رحيمة به وبالإمبراطورية، فانضم إليه أربيتيو Arbitio أحد قواد أربوجاست بمن معه من قواته، وساعدت الظروف الطبيعية أيضاً في هذه المعركة، إذ أن رياح الهاريكين العنيفة هبت في اتجاه مضاد لقوات أربوجاست وكان لها أثرها البالغ في قلب ميزان المعركة لصالح ثيودوسيوس، وقتل يوجنيوس بيد قواته بينما أنهى أربوجاست حياته بسيفه بعد أن تمكن من الفرار، وأدرك أن ذلك لن يجديه نفعاً^(٦٨).

وهكذا خضعت الإمبراطورية من جديد لحاكم فرد هو ثيودوسيوس، غير أن هذه الفترة كانت قصيرة جداً، إذ لم يلبث الإمبراطور أن مات في السابع عشر من يناير سنة ٣٩٥ بعد انتصاره هذا بأربعة شهور وأحد عشر يوماً. ويبدو أن الحروب المتواصلة التي خاضها من أجل الحفاظ على هيئة الإمبراطورية في الغرب قد أرهقته كثيراً. وقد أحس ثيودوسيوس بدنو أجله، فاستدعى إليه ابنه الأصغر هونوريوس ليعلنه أوغسطساً في الغرب، لتعود الإمبراطورية ثانية يعتلى عرشها إمبراطوران، وإن كانت في الحقيقة واحدة. ورغم أن هذا التقسيم لإدارة الحكم قد ساعد ضمن عوامل عديدة غيره في التبعاد بين شطري الإمبراطورية، إلا أن النظرية السياسية الرومانية القائلة بإمبراطورية واحدة، ظلت قائمة.

(٦٨) انظر Id وأيضاً SOZOM. Hist. Eccl. VII 22 ويضفي ثيودوديتوس على هذه المعركة جوا من الأسطورة، فيروي أن الإمبراطور أرسل إلى راهب مصري يدعى حنا يسأله عن هذه الحرب المقبلة، وكان يعيش في صحراء أسيوط Lycopolis فأخبره الراهب أنه سوف ينتصر، وإن كان سيفقد عدداً كبيراً من قواته، ويضيف أنه قد جاءه في نومه قبل أن تبدأ المعركة رجلان يرتديان ثياباً بيضاء ويمتطيان صهوتى جوادين، وأخبرا أنهما جاءا يحاربان في صف قواته، وأن أحدهما هو يوحنا الانجيلي والثاني قيليپ الرسول، ويقول إن الرؤيا نفسها رآها أحد الجنود الذي نقلها إلى قائده وهذا إلى قائده حتى وصلت مسامع الإمبراطور الذي ازداد سروره تبعاً لذلك!! انظر: THEOD. hist eccl. V 24.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأصلية :

AMBROSIVS: De fide ad Gratianum Augustum : Nicene X 2, 199-314 (=P. L. XVI 527-698) – De officiis Ministrorum: Nicene X 2, 1-89 – AD Valentinianum Imperatorem ep. XVII: Nicene X 2, 411-414 (=P.L. XVI 961-971) – Ad Valentinianum Imperatorem, ep. XXI : Nicene X 2, 423-429 (=P. L. XVI 1002-1007) EP. XX: Nicene X 2, 422-426 – Ep. XXII: Nicene X 2, 436-440 – Ad Theodosium Augustum, ep. XL: Nicene X 2 440-445 – Ep. XLI: Nicene X 2, 445-450- Ad Theodosium Augustum, ep. LI: Nicene X2 , 450-453 Ad Theodsium Augustum, ep LXII: Nicene X 2, 455-456- Ad Eugenium Imperatorem ep LVII: Nicene X 2, 453-455- Sermo contra Auxentium: Nicene X 2, 430-435 (=P.L. XVI 1007-1018).

AMMIANVS MARCELLENVS : Res Gestae, trans. By Jhon C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

ATHANASIVS: Ad Iovianum Imperatorem : Nicene IV 2, 567-569 (=P.G. XXVI 813-824- Epistola de synodis Arimini in Italia et Seleuciaie in Isauria celebratis: Nicene VI 2, 451-480 (=P.G. XXVI 681-793)- Ad Afros episcopos: Nicene IV 2, 489-494 (=P.G. XXVI 1029-1048)- Narratio Athanasii ad Ammonium episcopos : Nicene IV 2, 478 (= P.G. XXVI 980-981) – Tomus ad Antichenos: Nicene IV 2, 483-485 (=P.G. XXVI 796-809)- Orationes contra Arianos: Nicene IX 2, 306-447 (=P.G. XXVI 12-523).

BASILIVS: De Spiritio sancto: Nicene VIII 2, 1-50 (=P.G. XXXII 68-217)- Athanasio Alexandriae episcopo, epp. LXI, LXVI, LXVII, LXIX: Nicene VIII 2, 161, 163, 164, 165 (=P.G. XXXII 416-417, 424-425, 429-433)- Meletio episcopo Antiochiae, epp. LVII, LXVIII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXVI: Nicene VIII 2, 159, 164, 175, 192, 197, 225 (=P.G. XXXII 405-408, 428, 429, 469-472, 537-540, 557-561, 791-794) – Ad episcopoa Italos et Gallus, ep. XCII: Nicene, VIII 2, 177-179 (= P.G. XXXII 477-484)- Sanctissimis fratribus ac episcopis occidentalibus. Epp. XC.

CCLXIII: Nicene VIII 2, 176-301 (=P.G. XXXII 472-476, 973-982) – Ad Valerianum, ep. XCI: Nicene VIII 2, 176-177, Eusebio episcopo, epp. CXXXVIII, CCXXXIX; Nicene 2.

EVSEBIUS, vita Constantini: Nicene I 2, 473-580 (=P.G. XX 905-1232).

GREGORIUS NAZIANZENSIS,

Orationes contra Iulianum IV, V (P.G. XXXV 531-720)- Funebris in laudem Caesarii oratio: Nicene VII 2, 229-238 (=P.G. XXXV 755-788)- Funebris oratio in patrem oratio XVIII: Nicene VII 2, 254-269 (=P.G. XXXV 985-1044)- Oratio XXXIV; Nicene VII 2, 332-338; Oratio XLI: Nicene VII 2, 378-385-In laudem magni Athanasii episcopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269-280 (=P.G. XXXV 1081-1128)- Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328-334 (=P.G. 213-328) – Ad Cledonium contra Apollinarium, epp. CI, CII: Nicene VII 2, 439-445- Funebris oratio in laudem Basilii magni Caesareae in Cappadocia episcopi, oratio XLIII: Nicene VII 2, 395-422 (=P.G. XXXVI 493-606)- Ad Sophronium, ep. CXXXV: Nicene VII 2, 466.

GREGORIUS NYSSAEUS,

Contra Eunomium; Nicene V 2, 33-248 (=P.G. XLV 243-1122).

HIERONIMUS, De viris illustribus: Nicene III 2, 359-384 (=P.L. XXIII 2, 601-720) – epp. XLIII, LXXXIV: Nicene III 2, 57-58, 175-181.

HILARIUS, De synodis seu fide Orientalum: Nicene IX 2, 4-29 (=P.L. X 471-546).

HOSIUS, Ad Constantium Imperatorem, ep. (In historia Arianorum ad monachos: Nicene IV 2, 270-302),

LACTANTIUS, De mortibus persecutorum: Ante Nicene, VII 301-322, (=P.L. VII 2, 189-276).

Nicene and post Nicene fathers of the Christian church, ed. By Philip Schaff & Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.

RVFINUS, Historia ecclesiastica: P.L. XXI 467-538.

SOCRATES, Historia ecclesiastica: Nicene II 2, 1-178 (=P.G. LXVII 29-342).

SOZOMENVS, Historia ecolesiastica: Nicene II 2, 239-427 (=P.G. LXVII 343-1630).

SVLPECIVS SEVERVS, Historia sacra; Nicene XI 2, 83-122 (=P.L. XX 952-160).

SYMMACHVS, Memorial of, Nicene X 2, 414-417.

THEODORETVS, Historia ecclesiastica: Nicene III 2, 33-159 (=P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانياً: المراجع الأوروبية:

Bainton (R.H), Early Christianity, New Jersey, 1960.

- The penguin history of Christianity, 2 vols. Penguin books 1964.

Barry (W.), The papal monarchy from st. Gregory the great to Boniface VIII, New York, 1906.

Baynes (N.H.) & Moss (H.ST.L.B.),

Byzantium, an introduction to East Roman civilization, Oxford 1969.

Browne (CH. G.) & Swallow (J.E.),

Prolegomena (GREGORIUS NAZIANZENVVS, orations et epistolae): Nicene VII 2, 187-202.

Bryce (J.), The holy Roman empire, London 1950.

Bury (J.B.), History of the later Roman empire, 2 vol. London 1931.

Cambridge Medieval History, 8 vols. Cambridge 1964.

Cary (M.) A history of Rome down to the reign of Constantine, London 1954.

Chadwick (H.), The early church, London 1974.

Chambers (M.), The fall of Rome, can it be explained, New York 1970.

Copleston (F.), A history of philosophy, Medieval philosophy, p. I
New York 1962.

Davis (R.H.C.), A history of Medieval Europe from Constantine to st.
Louis, London 1975.

Dawsom (CH.), Religion and the rise of Western culture, New York
1958.

Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab
conquest, New York 1961.

- The late Roman empire, New York 1969.

Hear (F.), The Medieval world, trans, from the German by Janet
Sondheimer, New York 1963.

Hefele (C.J.), History of the councils of the church, trans. From the
German in 5 vols. And ed. By W.R. Clark, Edinburgh 1972.

Hughes (PH.), A history of the church, vol. 2, London 1948.

Jenkins (C.), Some aspects of Medieval latin literature (in legacy of
the Middle Ages, pp. 147-172).

Jones (A.H. M.), The decline of the Ancient world, London 1975.

- Later Roman empire, 3 vols. Oxford 1964.

- Constantine and the conversion of Europe, London 1948.

Ker (W.P.), The dark Ages, New York 1958.

Laistner (M.L.W.), Thought and letters in western Europe, New York
1957.

Martin (H.), Histoire de France, 8 tomes, Paris 1869 et sqq.

Neander (A.), General history of the Christian religion and church,
trans. From the German by Joseph Tarrey in 9 vols. London 1851-
1858.

Oman (CH.), The dark Ages, European history 476-918, London
1928.

Percival (H.R.), The seven ecumenical councils, Nicene XIV 2).

- Pirenne (H.), A history of Europe, London 1961.
- Rand (E.K.), Founders of the Middle Ages, New York 1975.
- Romestin (H.De.), Prolegomena (AMBROSIVS, Nicene X2,XI-XXII).
- Shaff (PH.), History of the Christian church, 8 vols. Michigan 1956 et sqq.
- Shiel (J.), Greek thought and the rise of Christianity, London 1968.
- Slessor (H.), The Middle Ages in the west, London s.d.
- Stephenson (C.), Mediaeval history, New York 1962.
- Strayer (J.), & Munro (D.),
The Middle Ages 395-1500, New York 1970.
- Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.),
An introduction to Medieval Europe, New York 1965.
- Ullmann (W.), A short history of the papacy in the Middle Ages,
London 1974.
- Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine empire, 2 vols. Madison &
Milwaukee 1964.
- Waston (E.W.), Introduction (HILARIVS, select works: Nicene IX, 2,
1 – 96.

ثالثاً: مراجع عربية وأجنبية:

أسد رستم (دكتور) : كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ثلاثة أجزاء، بيروت. بدون تاريخ.

_____ : الروم، جزءان، بيروت. ١٩٥٨.

اسحق عبيد (دكتور) : روما وبيزنطة، القاهرة ١٩٧٠.

أومان (ش.) : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣.

الدولة .. والكنيسة

بينز (ن.) : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد. القاهرة، ١٩٥٧.

جوزيف نسيم (دكتور) : الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٠.

جيبون (أ.) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة للمختصر الذي نشر في الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٦٠. ترجم الجزء الأول محمد على أبو درة، والثاني نجيب اسكندر، والثالث دكتور محمد سليم سالم، القاهرة، ١٩٦٩.

داونى (ج.) : أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة دكتور ألبرت بطرس. بيروت، ١٩٦٨.

رأفت عبد الحميد (دكتور) :

الدولة والكنيسة : الجزء الثانى: الوثنية والمسيحية. القاهرة، ١٩٩٩.

الدولة والكنيسة : الجزء الثالث: قيصر والمسيح. القاهرة، ٢٠٠٠.

العالم البيزنطى ، ترجمة عن كتاب ج. م هسى، القاهرة، ١٩٩٧.

الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، القاهرة، ٢٠٠٠.

عبد القادر اليوسف (دكتور) :

الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت، ١٩٦٦.

على الغمراوى (دكتور) :

دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. جزءان، القاهرة، ١٩٧٥.

موسى (م.) : ميلاد العصور، ترجمة عبد القادر جاويد. القاهرة، ١٩٦٧.

المحتوى

فاتحة الكتاب ٧-١٠

الفصل الأول

المسيحية الحكومية ١٣-٣٨

أثناسيوس وفالنز - الهوموية "النشابه بين الآب والإبن - الشرق اليونانى والغرب اللاتينى - فالنتينيان الأول وسياسة التسامح - أوكسنطيوس الأريوسى أسقف ميلانو - أثناسيوس ورسائله إلى الأساقفة فى أفريقيا دفاعاً عن النيقية - وفاة أوكسنطيوس عام ٣٧٤ واختيار أمبروز أسقفاً لميلانو - مجمع الليريا سنة ٣٧٥ - مجمع أنقرة الأريوسى المضاد - وفاة فالنتينيان الأول - ازدياد نفوذ الأريوسية فى الشرق بتأثير فالنز - اعتقال جرائيان عرش الإمبراطورية فى النصف الغربى - وفاة زعماء الأريوسية فى الشرق - يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ويوزيوس الأنطاكي - اعتقال ديموفيلوس ودوروثيوس عرش الأسقفيتين على التوالي - فالنز والجرمان - الجرمان والمسيحية - أولفيل القوطى والأريوسية - مناقشة قضية تحول الجرمان إلى المسيحية - السماح للقوط بعبور الدانوب - سحب الصراع الرومان الجرمانى - معركة أدريانوبل سنة ٣٧٨ - النتائج المباشرة والبعيدة للمعركة.

الفصل الثانى

تداعى المسيحية الحكومية ٤١-٧٩

مصرع الإمبراطور فالنز فى معركة أدريانوبل واهتزاز مركز الأريوسية - حالة جريجورى النيساوى - استقدام جريجورى النازيانزى إلى القسطنطينية - آباء كبادوكيا والاعتدال النيقى - كنيسة "البعث" فى العاصمة الإمبراطورية - التدخل السكندرى فى شئون العرش الأسقفى بالقسطنطينية - ماكسيموس الكلبي السكندرى - مراوغات ماكسيموس - دور بطرس أسقف الاسكندرية فى أحداث القسطنطينية - اختيار ثيودوسيوس إمبراطوراً خلفاً لفالنز - انتصار الإمبراطور الجديد لجريجورى النازيانزى ضد ماكسيموس السكندرى - انحياز

ثيودوسيوس للمسيحية النيقية - تداعى المسيحية الهوموية (الحكومية) - وفاة الإمبراطور جراتيان واعتلاء أخيه فالنتينيان الثانى العرش - انحيازه وأمه جوستينا للأريوسية - رسالة أمبروز إلى فالنتينيان الثانى حول هذا الأمر - مجمع القسطنطينية المسكونى عام ٣٨١ - مشكلة الروح القدس - ماكيدونيوس والماكيدونية - اختيار جريجورى النازيانزى أسقفاً للقسطنطينية رسمياً ويحضر ادعاءات ماكسيموس السكندرى - وصول تيموثى أسقف الإسكندرية الجديد إلى القسطنطينية وإعلان الحرب على جريجورى النازيانزى - انسحاب الأخير وإيثاره حياة الهدوء - دوافع الأسقف السكندرى لهذا العداء - قوانين وقرارات مجمع القسطنطينية - اختيار نكتاريوس أسقفاً للعاصمة - وثيقة الإيمان "النيقو - قسطنطينى - القانون الثالث وإعادة ترتيب الكنائس الرسولية - احتجاج روما وازورار الإسكندرية - نهاية المسيحية الحكومية وبداية السيادة للمسيحية الجديدة فى صورتها النيقية.

الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق ----- ٨٣ - ١٠٤

قسطنطين وسياسة التوازن العقيدى - أنطاكية معقل الأريوسية - يوستاتيوس النيقى المتشدد - التعدد العقيدى فى أنطاكية - مليتيوس والتيار المعتدل فى النيقية - يوزيوس الأريوسى المتحمس - مجمع الإسكندرية عام ٣٦٢ والرسالة إلى الأنطاكيين - يوسيديوس الفرسالى ولوكيفريوس السردينى والشقاق الأنطاكى - باولينوس يتزعم اليوستاتيين المتشددين - مليتيوس يقود النيقيين المعتدلين - تأييد الأكليروس الغربى لباولينوس المتشدد - مناصرة كنائس الشرق - عداء الإسكندرية لمليتيوس المعتدل - دور باسل الكبادوكى اللاهوتى - فلافيان أسقفاً لأنطاكية خلفاً لمليتيوس - محاولة التقارب بين المعتدلين والمتشددين من النيقيين - انصراف اكليروس الغرب عن متابعة أحداث الشقاق الأنطاكى وتوابعه والعهد إلى أسقف الإسكندرية بمتابعة القضية - الثورة الأنطاكية ضد سياسة الإمبراطور ثيودوسيوس - قرارات الإمبراطور لمعاقبة أهالى المدينة - شفاعة فلافيانوس - الهدوء النسبى فى أنطاكية.

الفصل الرابع

المسيحية النيقية الدين الرسمي للإمبراطورية ١٠٧ - ١٦٩

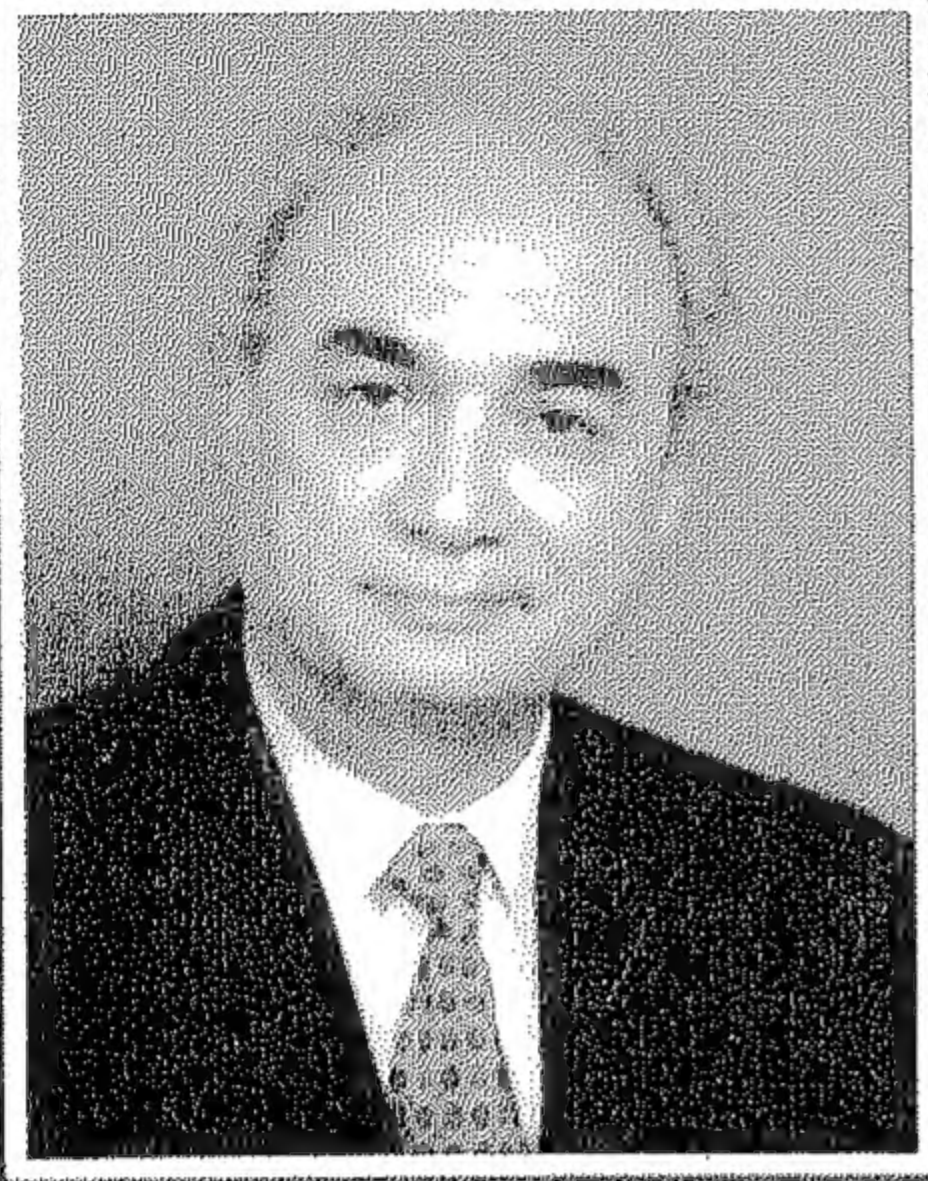
الإمبراطور جراتيان والتأييد الصريح للنيقية - أمبروز ورسالته "عن الإيمان" - شخصية أمبروز أسقف ميلانو - نشأته الأولى وتعليمه - كتابه عن "وظائف الأكليروس" عمله الإداري وتأثير ذلك على منصبه الكهنوتي من بعد - الظروف السياسية والعقيدية والأكليروسية التي ساعدت أمبروز على النجاح الكبير في أسقفيته - ثيودوسيوس والفرق الأريوسية العديدة - نكتاريوس وجهالته بالمسائل اللاهوتية - ثيودوسيوس يعلن المسيحية النيقية ديناً رسمياً للإمبراطورية - ثورة الأريوسيين في القسطنطينية - فالنتينيان الثاني وجوستينا ومناصرة الأريوسية في الغرب - ثيودوسيوس يعلن الحرب على الوثنية والأريوسية - رد الفعل الوثني - السناتو الروماني - المتفقون الوثنيون - سيماخوس الخطيب المفوه وزعيم الأغلبية الوثنية في مجلس الشيوخ - المعركة الدائرة حول مذبح النصر في مجلس الشيوخ في روما - ملتصق سيماخوس إلى الإمبراطور فالنتينيان الثاني حول مذبح النصر وعظمة الرومان - رسالتا أمبروز إلى فالنتينيان الثاني للرد على سيماخوس - المعركة البلاغية الرائعة بين سيماخوس وأمبروز - النص الكامل للرسائل الثلاث - اغتيال الإمبراطور الصبي في الغرب - إعلان يوجنيوس إمبراطوراً - رفض ثيودوسيوس وتعيين ابنه الطفل هونوريوس خلفاً لفالنتينيان الثاني - يوجنيوس وتجدد مسألة "مذبح النصر" رسالة أمبروز إلى الإمبراطور - تدمير المعابد الوثنية على يد الرهبان المسيحيين - ثيوفيلوس السكندري - معبد السرابيوم - قرارات ثيودوسيوس عامي ٣٩١-٣٩٢ بالقضاء على الوثنية - إعلان المسيحية الجديدة - النيقية - ديناً رسمياً للإمبراطورية.

الفصل الخامس

إذلال ميلانو ١٧٣ - ٢١٥

الفكر السياسى الرومانى ورفض قيام دولة داخل الدولة - قسطنطين الأسقف الأعلى - أثناسيوس السكندري وعلاقته بالأباطرة - هوسيوس القرطبي وفكره عن سلطان الكنيسة - أمبروز أسقف ميلانو وإيمانه بسمو السلطة الكنسية - الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها - أحداث كالينيكيا - اليهود والفالنتينيون - القرارات الخاصة بعقاب الأهالى فى كالينيكيا - موقف أمبروز، رسالته العنيفة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس - نص الرسالة - عدول الإمبراطور عن قراراته - مذبحة ميلانو - الدوافع والأحداث - قرارات ثيودوسيوس بالعقوبة الصارمة - هلع أمبروز - قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور - رسالة أمبروز شديدة اللهجة إلى الإمبراطور - توبة ثيودوسيوس - إذلال ميلانو ٣٩٠ - الانتصار الأول للكنيسة على الدولة - رحلة العلاقة بينهما - الفرق بين إذلال ميلانو سنة ٣٩٠ وإذلال كانوسا عام ١٠٢٧ - رسالة أمبروز إلى أخته ورأيه فى السلطان الكنسى وعلاقة الدولة بالكنيسة - تمرد أريوجاست واغتيال فالنتينيان الثانى - يوجنيوس إمبراطوراً - الحرب الأهلية - انتصار ثيودوسيوس عام ٣٩٤ - وفاة ثيودوسيوس.

المصادر والمراجع ٢١٧ - ٢٢٢



هذا الكتاب

لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل مطلقاً بوجود دولة داخل الدولة، مهما كان شكل هذه الدولة "الداخلية" وماهيتها، حتى وإن غدت الإمبراطورية الرومانية مسيحية، والإمبراطور الرومانى هو

"نائب المسيح" على الأرض، والكنيسة هى هذا الكيان الجديد.

وخلال الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى حدث أول صدام حقيقى على أرض الواقع بين الدولة والكنيسة، فقد استغلت هذه الأخيرة الفرصة التى أتاحت لها بجعل المسيحية فى شكلها الجديد، الذى اتفق عليه فى نيقية سنة ٣٢٥ والقسطنطينية عام ٣٨١، الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية، لتقف للإمبراطورية على الفور بالمرصاد، ولتطبق لأول مرة فى تاريخها قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور نفسه الذى جعل لها السيادة!! ولتخط بذلك أول صفحات الصراع الطويل بين الدولة والكنيسة فى الغرب اللاتينى، وأسس علو هامة الدولة فى الشرق البيزنطى.

أحمد غريب